

أثقل من رضوى

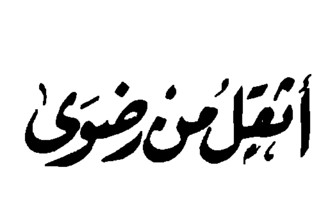
مقاطع من سيرة ذاتية

رضوى عاشور



مقاطع من سيرة ذاتية

دار الشروق


أثقل من رضوى

أثقلُ من رضوى

مقاطع من سيرة ذاتية

رضوى عاشور

تصميم الغلاف: رجائى عبد الله (لوحة الغلاف للفنان المكسيكي دييجو ريفيرا)

الطبعة الأولى ٢٠١٣

الطبعة الثانية ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: سيرة ذاتية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٤٧٦٠/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3263-6

الفصل الأول

مدخل

مال الشاب فجأة والتقط حجرًا جيريًّا كتب به على أحد الجدران:

«سأسمّي ابني طارق».

كان يقصد بيتًا بعينِه في أطراف ضاحية حلوان، زاره من قبل أم لم يزره، لا أدري. كانت شوارع الضاحية شبه خالية تحفُّها من الجانبين بيوتٌ ذات طابق واحد أو طابقين، لها حدائق تحيط بها أسوارٌ حجريةٌ عالية. والأرجح أنه كتب العبارة التي أوردتُها على سورٍ منها.

الشاب في الثلاثين من عمره، يبدو أصغر من سنِّه بسبب الصِغَر النسبيّ لجسمه وحيويّة لافتة مصدرها عيناه: تركيزهما أو حركتهما أو شيء ثالث يجذب الناظر فينتبه إلى الحديث إن كان الشاب يتحدّث، أو إلى الوجه إن كان يلتزم الصمت، فتنوب عيناه عن لسانه. يرتدي قميصًا وربطةَ عُنُق وبدلةً من ثلاث قطع: بنطلون وصديري وسُترة، وعلى رأسه طربوش، فلا تخطئ أنه من طبقة الأفنديّة.

لم يقل لي إنه كان ينوي في ذلك اليوم مفاتحة الدكتور عبد الوهاب في رغبته في الزواج من بنت من بناته، أو إنه كان عقد العزم على هذا الطلب في مستقبلٍ ما قريب، أو فاجأته العبارة برغبة في نفسه لم ينتبه لوجودها. ولا أعرف إن كان ما سمعتُه منه بعد نصف قرن من الواقعة دقيقًا، أم كان من خيالات الشيخوخة: هكذا أراد الأمر، وهكذا استقرّ في ذاكرته.

كنت أظن أن الذي اختار لنا أسماءنا هو جدّي لأمي: الدكتور عبد الوهاب الذي كان المحامي الشاب في طريقه إلى بيته في حلوان ذلك اليوم من خريف عام١٩٤١ أو مطلع العام الذي يليه. سمّى الولد طارق مستبشرًا بأول الذكور في ذريّته المُكوَّنة من ست بنات، وحفيدتين من كبرى بناته. اختار الدكتور لحفيده اسم طارق ليكون سَمِيًّا لفاتح الأندلس وللجبل الذي يحمل اسمه. فلما جاءت البنت بعد سنتين وتسعة أشهر، اختار لها اسمِ جبل آخر، لا يقع في الطرف الغربيّ من المتوسط، مشرفًا على المضيق الذي يربط المغرب الأقصى بشبه الجزيرة الأيْبيرِيّة، بل يقع بالقرب من المدينة المُنوَّرة، تضرب به العرب المثل في الرسوخ فتقول «أثقلُ من رضوى»، لأن الجبل في واقع الأمر، سلسلة من الجبال الممتدة إلى الشرق من يَنْبُع، بها جداول ماء وشعاب وأودية، ووعول وغزلان، تُحلِّق في أرجائها النسور والصقور والقَطَا والحمام. وتقول بعض فرق الشيعة إن الإمام الغائب محمد ابن الحَنَفِيَّة مقيمٌ في جبال رضوى حتى تحين الساعة التي يظهر فيها فيملأ الأرض عدلًا بعد أن عمّ فيها الظلم والزور.

ولما أكرم الله االمحامي بولدين آخرين حملتهما له زوجته مَيّة في عامين متتاليين، سمّى أكبرهما حاتم والأصغر وائل. والأرجح أن هذين الاسمين اللذين اقترحهما الدكتور عبد الوهاب، راقا للمحامي المُغْرَم باللغة العربية والبلاغة والخطابة، لا لأنها أداته في مرافعاته في المحكمة، تدرّب على حسن استخدامها في المدرسة وكليّة الحقوق، بل لأنه مولعٌ بالأدب العربي القديم، حريصٌ على اقتناء ما يمكنه من شعره ورسائله.

* * *

كانت النِّيَّة أن أطلب من حاتم مُسَوَّدة الرسالة التي وجّهها المحامي الشاب إلى الدكتور عبد الوهاب ليطلب يد ابنته (وكنت اطّلعت عليها ونحن نُنَظِّم أوراقه بعد رحيله)، لأُضمِّنها النص الذي كان واضحًا أنه مشروعٌ لكتابة سيرة ذاتية تبدأ بالحديث عن أمي وأبي وإخوتي، وتنتقل بعد ذلك لتحكي البعض الآخر من حكايتي. كنت بلغت الرابعة والستين حين بدأت الكتابة، أعي أن هذه السنوات ستُفلت حتمًا من حدودها، لأن أعمارَنا كما هو معروف، تفيض عن أعمارِنا، وتقفز بلا استئذانٍ إلى ما قبلها أو ما حولها، وتمتد متشعِّبةً في التاريخ والجغرافيا.

بالعودة إلى الملفّات الثلاثة التي يحمل كلٌّ منها صفحتين أو ثلاثًا من مُسَوَّدات هذا المدخل، وجدت أن أولها يرجع إلى الثالث والعشرين من أغسطس عام ٢٠١٠، وأنها تشترك جميعًا في حكاية المحامي الذي كتب على أحد الجدران: «سأسمي ابني طارق»، وإن

وردت هذه الحكاية في إحدى المُسَوَّدات بعد مقدمة عن الموت، قررتُ لاحقًا أنها لا تصلح كمدخل، فقد لا يحتملها القارئ. فتحت ملفًّا جديدًا وحذفتها منه. وأذكر أنني كتبت مقطعًا جميلًا من نصف صفحة عن مولد طارق، ثم ضيَّعته (أغلقت الجهاز سهوًا، على ما أظن، دون حفظ الإضافات).

لم أضمِّن نصّ الرسالة التي أرسلها المحامي الشاب إلى الدكتور عبد الوهاب. لم أطلبها من حاتم، لأنني توقفت عن الكتابة. يبدو لي الآن بوضوح أن الشروع في كتابة سيرة ذاتية في تلك الأيام تحديدًا، كان يتصل بشكل ما بمرض أخي وتدهور حالته الصحية وهواجسنا المتنامية أنه يستعد للرحيل. تحقّقت الهواجس. رحل طارق في السادس من سبتمبر ٢٠١٠.

بعد خمسة أسابيع، لحقت به أمي.

لم تكن أمي مريضة حين مات ابنها البكر. حَضَرَت أيام العزاء الثلاثة، استقْبَلَت المُعَزِّين وودَّعَتْهُم بما يليق، ثم انْسَحَبَت. لَزِمَت الفراش وأحْجَمَت عن الكلام، ورحلت.

الفصل الثاني

واقعة الرابع من نوفمبر ٢٠١٠

كان يوم خميس. كنت أرتدي ثوبًا أسود فلم يكن مضى على رحيل أمي سوى ثلاثة أسابيع.

دلفت من بوّابة الدخول إلى حرم الجامعة. أوقفت السيارة كالمعتاد منذ أكثر من ثلاثين سنة، في أي مكان خالٍ أمام مباني كلية الآداب أو كلية الحقوق التي تليها عن يمين الداخل، أو في الجهة المقابلة في طريق الخروج. ولكنني على غير المعتاد لم أتجه إلى كلية الآداب وأستخدم المصعد للوصول إلى الطابق الرابع حيث قسم اللغة الإنجليزية والوجوه الأليفة للطلاب وزميلاتي وزملائي من الأساتذة وإداريي القسم وسُعاته. سرت باتجاه قصر الزعفران، مقر إدارة الجامعة، وتحديدًا مقر رئيس الجامعة ونوابه وأمينها ومدراء مكاتبهم وأطقم السكرتارية. أمام المبنى التقيت ببعض الزملاء ثم توافد البعض الآخر من أساتذة جامعتَي القاهرة وعين شمس، من

كليات الطب والعلوم والآداب والهندسة، وزميل واحد من جامعة المنوفية. لم يكن عددنا يزيد على العشرة، وكنا نحمل معنا نص حكم المحكمة الإدارية العليا برفض الطعن المقدم من رئيس الوزراء ووزيرَي التعليم العالي والداخلية على حكم سابق بإنشاء وحدات للأمن الجامعي لا تتبع وزارة الداخلية، بل تتبع إدارة الجامعة. قضت المحكمة بأن وجود قوات شرطة بصفة دائمة داخل الجامعات ينافي الدستور وقانون تنظيم الجامعات، ويمثّل انتقاصًا من استقلال الجامعة وحرية الأساتذة والطلاب والباحثين.

كان بعض الضبّاط يقفون أمام بوابة القصر، كعادتهم حين يتجمع أساتذة أو طلاب في هذا المكان. تقدّم الدكتور عبد الجليل مصطفى من الضبّاط وأعطاهم نسخة من قرار المحكمة وبيان مجموعة استقلال الجامعة، وهو تقليد نتّبعه لتوصيل رسالة مزدوجة: عملنا علنيّ. وضمنًا: لا نخافكم. (كلما سلّم أحدنا في وقفة من وقفاتنا، بيانًا لأحد المسئولين عن الأمن، أجد نفسي أغالب الضحك. أتذكّر يومًا بعينه في منتصف التسعينيات على ما أظن، حين طالبنا بإقالة وزير الداخلية ومحاكمته لمسؤليته عن قيام قوات الأمن بالاعتداء على الطلاب المتظاهرين في الإسكندرية، مما نتج عنه إصابة بعضهم ومقتل طالب من الطلاب. حملنا مطلبنا إلى قصر عابدين ـ مقر الحكم. كنا حوالي ثلاثين من الأساتذة، رجالًا ونساءً، بعضنا دون الأربعين والبعض الآخر تجاوز الستين، نمثل مئات الأساتذة من مختلف الجامعات المصرية الذين وقّعوا على المطلب. الضحك

الذي أغالبه كلما تذكّرت الواقعة مرجعه وجوه الضبّاط الذين اعترضوا طريقنا، حين سلّمتهم الدكتورة ليلى سويف صورًا من البيان والتوقيعات وراحت تشرح لهم ببساطة أننا جئنا نطالب رئيس الجمهورية بإقالة وزير الداخلية ومحاكمته. لا بد أن المفارقة بين المطلب ـ المزلزل بالنسبة لهم ـ والوقفة العادية لهؤلاء الأساتذة وهم يقفون بهدوء ويقطعون الوقت بالحديث بأصوات خافتة مع بعضهم البعض، كأنهم بباب دارٍ للسينما، ينتظرون دورهم في الدخول، أقول لا بد أن المفارقة عقدت ألسنة الضبّاط فحمل أحدهم صورة البيان وذهب، ثم عاد مع ضبّاط آخرين أعلى منه رتبة. سمحوا لنا بالدخول إلى القصر. دعونا إلى الجلوس في صالون مقاعده مذهَّبة الأُطُر قدّرت أنها من طراز لويس الثالث عشر أو لويس آخر من اللويسات الثلاثة اللاحقين، الذي أُغرم بها الخديوي إسماعيل وأثّث بها قصوره. قدموا لنا عصير الليمون. اختفى الضبّاط وظهر موظّف من موظّفي أمانة رئاسة الجمهورية. رحب بنا. بدا لطيفًا ومهذبًا، وإن امتقع وجهه فجأة ثم راح يتلوّن بالوردي ثم بالأزرق المكتوم ثم عودة إلى الشحوب المُصْفَرّ، والدكتور عصام درويش رحمه الله، وهو أستاذ شاب في كلية العلوم جامعة القاهرة وكّلناه بالحديث باسمنا، يعرض مطلبنا وسياقه قبل تسليم أصل البيان والتوقيعات بشكل رسميّ. تخيّلت وأنا جالسة على المقعد مذهّب الإطار، الموظّف المهذّب وهو يحكي لزوجته بعد عودته لمنزله: تصدّقي جاءوا بأرجلهم يطلبون محاكمة وزير الداخلية؟! لوكانوا شخصين أو ثلاثة لقلت إنهم مجانين، ولكن عددهم تجاوز الثلاثين.

أساتذة جامعة محترمون، بعضهم دكاترة في كلية الطب. غير معقول! تخيّلت تلوّن الوجه بألوان مبالغ فيها، فالأحمر ليس ورديًّا بل قانٍ كأحمر الطلاء، والأزرق صريح كأزرق البحر في كتب الأطفال، والأصفر ساطع كلون الشمس في رسومهم. ضحكت للفكرة ونحن نغادر القصر ونترك ميدان عابدين خلفنا ليتجه كلٌّ إلى عمله).

نعود إلى وقفة الرابع من نوفمبر. سلّمنا صورة من البيان وصورة من نص المحكمة الإدارية العليا بشأن عدم قانونيّة وجود الحرس الجامعي، إلى ضبّاط الأمن الواقفين أمام باب قصر الزعفران. ثم حملنا أوراقنا وبدأنا جولتنا في الجامعة. بدأنا بكلية العلوم الأقرب إلى القصر، يحيط بنا مجموعة من الطلاب المساندين لنا، ويتبعنا بعض رجال الأمن بالملابس المدنية. انتقلنا من كلية العلوم إلى كلية الحقوق وعندما وصلنا إلى المساحة الفاصلة بين كلية الحقوق وكلية الآداب، ظهر أول ما ظهر شاب قصير عريض الكتفين، يرتدي تي شيرت أصفر. استوقفتني هيئته قبل أن يقترب، ربما لعرج واضح في مِشيتِه، (أثر على الأرجح، لإصابة قديمة بشلل الأطفال)، أو لأن عضلات الذراعين كانت منتفخة ومفتولة بشكل لافت، لا يتسق مع نحول الخصر وصغر الجزء الأسفل من الجسد. اقترب مني الشاب وانتزع بعض ما أحمله من أوراق وهو يصيح بصوت عال: إيه ده، إيه ده؟ منشورات؟! وأنا، ربما لأنني أرتدي ثوب الحداد على أخي ووالدتي، لا رصيد لديّ من العدوانية، أو لأن عرج الولد جعلني أُشفق عليه، قلت: يا ابني يا حبيبي، اطلب نسخة أعطيك واحدة، أنا

أقوم بتوزيعها. رمقني بنظرة حادّة، يقصد أن تكون مخيفَة، إذ كان يرفع حاجبيه المقوّسين ويزمّ شفتيه ويقطِّب جبينه. ثم راح يُمزِّق الأوراق التي أنتزعها مني وهو يواصل التحديق فيّ. ساعتها رأيت الدكتور عبد الجليل. ولا أذكر إن كان وبّخ الشاب مفتول العضلات لأنه رأى تطاوله عليّ، أم لأن الشاب كرر السلوك نفسه معه. سأله الدكتور عبد الجليل بصرامة إن كان طالبًا في الجامعة. قال إنه طالب في كلية الحقوق. فسأله عن بطاقته. وهنا ظهرت الدكتورة عايدة سيف الدولة وسمعتها تصيح: «ده غريب... صوّروه. صوّروه.» ولن أفهم إلا لاحقا أن غريب هو الذي قام مع زملاء له بضرب الطلاب بالجنازير والسلاح الأبيض قبل ذلك بأربعة أعوام في كلية التجارة. تجمهر الطلاب حولنا وساند غريب شاب آخر، وأخذا يصيحان ويتلفظان بألفاظ بذيئة ويحركان أذرعهم على امتدادها، باختصار محاولة للاستدراج إلى مشاجرة. ذهبت إلى ضابط الأمن الواقف بزيّه الرسمي على بعد خطوات، مشرفًا بهدوء على ما يجري. قلت له: هؤلاء بلطجية، تعدّوا على الأساتذة، وأنت تقف متفرجًا. ابتسم وقال: ألا تطالبون بمغادرتنا الجامعة، لماذا نتدخل؟! قال صحفي شاب للضابط إن البلطجيّة ضربوه وأشار إلى ذراعه. واصلت: إلى أن يُعلن رئيس الجامعة رسميًّا أن مهمَّتكم في تأمين الجامعة انتهت، أنتم مسئولون. ابتسم الضابط ابتسامة غريبة (تشفٍّ على الأرجح)، وتركنا ومضى مبتعدًا.

قررت أن من الأفضل أن ينتهي الموضوع عند هذا الحد، ربما

لأنني بشكلٍ تلقائيّ خشيت أن يتحول الأمر إلى عنف داخل الحرم يفتعله البلطجيّة. غادرنا باستثناء أستاذين منا شاهدا بقيّة الواقعة: أعلن البلطجيّة عن كامل وجودهم ـ كانوا سبعة، لم أرَ منهم سوى اثنين: صاحب التي شيرت الأصفر وآخر طويل يرتدي تي شيرت أزرق. راحوا يتحرّشون بالطلاب ويهددونهم بما يحملون من سلاح أبيض وسلاسل وقضبان حديديّة وأحزمة جلديّة يوظفونها سياطًا.

* * *

في نهاية السبعينيّات وإلى منتصف الثمانينيّات استوقفني طالب يتردّد في غير انتظام على محاضراتي. كان الشاب مختلفًا في هيئته عن معظم زملائه، فغالبية طلاب الفرقتين الثالثة والرابعة الذين أدرِّس لهم، في مطلع العشرينيّات أو دونها. كان ثلاثينيًّا أو ربما أكبر، نحيلًا صغير الحجم، شديد السُّمرة وشعره أملس، كأن أجداده أتوا من شبه القارة الهندية. يرتدي بدلة وربطة عنق، يعاني من مشاكل في التنفس فيحمل معه بخّاخة صغيرة، يستخدمها بين حين وآخر. لم يكن منتظمًا في الحضور، فلما سألته قال إنه مؤهلات عليا (أي أنه حاصل على شهادة جامعية سابقة على التحاقه بكليتنا)، ومنتسب (أي لا يتعيّن عليه الانتظام في حضور الدروس). يظهر في فترات الأحداث السياسيّة المهمة، حين ينشط الطلاب في التعبير عن أنفسهم. رجّحت أنه من موظفي الأمن وكتّاب التقارير، ثم راجعت نفسي لأن بعض الظن إثم. يمضي عام أو عامان وأحيانًا ثلاثة لا يظهر فيها، ثم أجده جالسًا في مقعد من مقاعد الصفّ الأول، ببخّاخته وقلمه وأوراقه،

يدوِّن بحرص ما أقوله. أيام زيارة السادات للكنيست الإسرائيلي في القدس المحتلة، أيام المظاهرات المندِّدة بالغارة الإسرائيلية على حمّام الشط في تونس، أيام اشتعلت الجامعات احتجاجًا على مقتل سليمان خاطر، وغيرها مما لا يحضرني الآن، ينتظم في الحضور.

أشفق عليه، فأي حياة تلك التي تجعل من صاحبها يمتهن الوشاية وكتابة التقارير؟ كان معتلَّ الصحة، يبدو هشًّا ورثًّا وفقيرًا.

ثم اختفى هذا الطالب. قلت ربما أنهوا خدماته أو كان ظني بلا أساس.

في مطلع التسعينيّات وكنت رئيسة قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس، اتصلت بي صديقة وقالت إن شخصًا كان زميلًا لها في الستينيّات في كلية الزراعة جامعة القاهرة، حدّثها تليفونيًّا، قال إنه يعرف أنها صديقتي، وإنه كان يدرُس في قسم اللغة الإنجليزية ثم طُرد من الكليّة لاستنفاده مرّات الرسوب. قال إنه كان مريضًا، والآن وقد شُفي يريد أن يعاد تسجيله في الجامعة. طلب منها المساعدة على تسهيل ذلك. سألتها عن اسمه، فلما أخبرتني شهقت: الشاب الأسمر النحيل ذو الشعر الأملس؟ نعم. كان زميلك في كلية الزراعة؟ نعم. في الستينيّات؟ نعم. كان يلازمني كظلي. شكله «غلبان». قدّرت أنه يشعر بالوحشة ويأتنس بوجودي. ضحِكَت: وربما كان مُغْرَمًا بي. ضحكْتُ: أو ربما كان مُكَلَّفًا بمتابعتك في الكليّة، ألم تقولي إنه كان زميلك في منتصف الستينيّات، أي بعد خروجك مباشرةً من المُعتقل؟ لم تضحك.

أنهينا المكالمة على وعد بلقاء قريب نتحدّث فيه بتفصيل أكبر في الموضوع.

بعد سنوات، في نهاية التسعينيّات، على ما أذكر، وجدت الشاب هنديّ الملامح يقف في الممر المؤدي إلى قاعات الدرس في الطابق الرابع بالكليّة. صافحني. هل ما زلت في الكليّة؟ نعم. كيف تم تسجيلك بعد استنفادك مرّات الرسوب؟ معي مؤهل آخر فالتحقت بدبلوم الترجمة. قلت: «حظا سعيدًا!» وانصرفت.

كان واضحًا أن الشاب يعمل في قسم الجامعة بمباحث أمن الدولة. والأرجح أنه كان عُمْلَةً نادرة، إذ كان مطلوبًا منه متابعة محاضرات تفرض طبيعة التخصّص أن تكون باللغة الإنجليزية.

تذكّرت الموضوع بتفاصيله وأنا عائدة من الكليّة ذلك الخميس الرابع من نوفمبر. تساءلت إن كان الفارق بين كاتب التقارير البائس، والبلطجي مفتول العضلات، مجرد فارق في نوع الوظيفة أم هو فارق بين زمنين وأسلوبين، القمع المستور والقمع المُعلن. الأول يلدغك كالحيّة دون جَلَبَة أو صوت، والثاني فاجرٌ في عدوانيته، يُطلق صيحاته في وجهك ويُحَرِّك ذراعيه على امتدادهما، يُرهبك بنظراته وصوته العالي قبل أن يخرج السكّين الذي يطعنك به. قلت ليس الكلام دقيقًا لأن التعذيب في المعتقلات كان قائمًا طوال الوقت، فاجرًا في علانيته وإن كان مستورًا بجدران السجون.

* * *

تلاحقت الأحداث. انتشر الخبر في الصحف والقنوات التلفزيونية، مُوَثَّقًا بصور مُلوَّنة للبلطجيّة المسجلين طلابًا، وفي أيديهم الجنازير والمطاوي. في يوم السبت السادس من نوفمبر أصدر الدكتور ماجد الديب رئيس الجامعة بيانًا، نُشر على الموقع الإلكتروني للجامعة، يحدّد عنوانه أنه رد «على ما تناولته بعض الصحف ووسائل الإعلام من ادّعاءات باطلة بالتعدّي على الطلاب واستخدام البلطجة في جامعة عين شمس». يدين البيان ما يسميه اقتحام الجامعة من قِبَل أساتذة «غرباء»، «قِلّة مُنْدَسَّة» بقيادة الدكتور عبد الجليل مصطفى، تعمل على «إحداث قلاقل»، وهو ما تصدّى له الطلبة الغيورون على «سُمعة وهَيبة» جامعتهم.

أضحك. لكن السخرية لم تكن صافية، كان يشوبها قدرٌ من الأسى، لا للكذب والتجنّي بل بسبب ركاكة المكتوب وضعف الحُجَّة والأخطاء اللغوية. أتمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله، لا يستطيعون كتابة بيان معقول باسم الجامعة! ثم أعود أضحك عند قراءة: «يتوافر لدى جامعة عين شمس ملفًّا وثائقيًّا مسجلًا بالصوت والصورة عن عملية الاقتحام». (ذكر وزير التعليم العبارة نفسها لاحقًا في حديث مع إحدى الصحف). أضحك لأنني أتذكّر أحد موظفي الأمن أو الإداريين العاملين في خدمته وهو يرافقنا أثناء تَحَرُّكِنا في الحرم، ويلتقط الصور بلا توقف، ثم الكاميرا الكبيرة، كاميرة فيديو على الأرجح، لمحتها من نافذة في الطابق الأول من كلية الآداب، ساعتها ضحكت ونبّهت إحدى الزميلات مشيرة في اتجاه النافذة، فاختفت

الكاميرا في غمضة عين. كوميديا تدخل في باب المسخرة والهزل: الصوت والصورة اللذان يشير لهما بيان رئيس الجامعة أدلّة دامغة على الجريمة: تَحَرُّك أساتذِة في حرم الجامعة!

بعد قراءة بيان رئيس جامعتنا، وبعد الضحك الذي أحسن أبو الطيب وصفه من ألف عام بأنه ضحكٌ كالبُكا، جلستُ لكتابة مقال. بدأته بالفقرة التالية:

«أعتقد أن على الدكتور ماجد الديب رئيس جامعة عين شمس والدكتور هاني هلال وزير التعليم العالي التقدّم باستقالتيهما، وبسرعة. وأعتقد أن على رئيس الوزراء، إن هما أحجما عن ذلك أو تأخّرا فيه أن يقيلهما. فما حدث في الرابع من نوفمبر الماضي فضيحة بكل المقاييس، ومستجد خطير في حياتنا السياسية والأكاديمية. وهنا لا بد من توضيح أنه لا جديد في استخدام البلطجيّة من جانب قوى الأمن، بل إنه أمر تكرر وعلى مدى عدة عقود. حدث في الجامعة من قبل، وحدث في الانتخابات، وحدث أيام أزمة القضاة، وفي غيرها، أما الجديد فهو انحياز المسئولين المكشوف للبلطجيّة. كانت السلطة تنفي دائمًا أنها على معرفة أو علاقة بهم، أو تلتزم الصمت، فيكون التواطؤ غير معلن».

كنت أكتب في المقال حين طلب مني زملائي في ٩ مارس كتابة رد على بيان رئيس الجامعة يصدر باسم المجموعة. فانصرفت عن المقال إلى كتابة البيان.

لخّصت مآخذنا في ستّ نقاط منها عدم أمانة رئيس الجامعة

في نقل ما حدث. والرد على وصف الأساتذة بالغُرَبَاء، والزعم بأن حديثهم مع الطلاب بلطجة فكرية، واعتبار البلطجيّة طلابًا غيورين على هيبة جامعتهم. ثم أشرت إلى الخلط في اعتبار حكم محكمة، الأصل فيه الإشهار، بالمنشورات (بما يشي به المصطلح من الحظر وعدم المشروعية)، واعتبار توزيع الحكم محاولة لتنفيذه، مغفلًا الفارق بين إتاحة الحكم لمن يهمّه الأمر ومسئولية تنفيذه. ثم أنهيت البيان بفقرتين يَعِنُّ لي الآن اقتباسهما:

«ينطلق بيان رئيس الجامعة من تصوّرٍ أمنيّ يرى أن لكل فرد سواء كان طالبًا أو أستاذًا حيِّزًا مُقَرَّرًا لا يحق له مغادرته، ويعتبر الخروج منه تعدِّيًا وتجاوزًا فيغدو من الغرباء المندسين لأنه جاء من خارج هذا الحيِّز. ولا ينمّ هذا التصوّر عن رؤية تقييدية تقسِّم المجتمع ومؤسساته إلى سجون صغيرة فحسب، بل، وهذا هو الأهم، ينسف فكرة الجامعة من أساسها. فالجامعة واسمها دال عليها، تجمع في رحابها طلاب العلم صغارًا وكبارًا، دارسين وأساتذة، يتردّدون على مكتباتها وقاعات درسها ويشاركون في مؤتمراتها، ويلتقون ببعضهم ليتناقشوا ويتحاوروا ويغتنوا حتى بما بينهم من اختلاف».

وأنهيت البيان بالمطالبة باعتذار الدكتور الديب عن البيان، «فهو يسيء لسمعة جامعة عين شمس بشكله ومضمونه، ويقلب الحقائق وينحاز إلى عدد لا يتجاوز أصابع اليدين من البلطجيّة أوكلت إليهم قوى أمنية ما على الأرجح، مهمّة الإرهاب في الحرم الجامعي. ثم على رئيس الجامعة أن يعتذر عن الأوصاف التي تضمنها بيانه فيما

يخص زملاءه من أساتذة جامعة القاهرة وعلى رأسهم أستاذنا الدكتور عبد الجليل مصطفى. كما نعتقد أن عليه أن يعتذر عن تسرّعه في نشر بيان باسمه لو راجعه بدقة لاكتشف أن ما فيه من أخطاء نحوية وأسلوبية ومنطقية وما يعكسه من رؤية للحياة الجامعية لا يليق بالجامعة العريقة التي يتحمل مسئولية إدارتها».

ما إن أرسلت مسودة البيان إلى زملائي في ٩ مارس لإقراره، حتى بدأت في كتابة مُذَكَّرَة لمجلس الكليّة الذي ينعقد في اليوم التالي. بدا لي أن عليّ أن أطلع زملائي وزميلاتي عبر القنوات الرسمية (مجلس الكليّة الذي يمثّل كافة أقسام الكليّة وأساتذتها)، بتفاصيل ما حدث من موقعي كشاهدة عيان، وما دام الأمر يخص جامعتهم، وزميلتين من زملائهم في الكليّة (الدكتورة هدى أباظة وكاتبة هذه السطور).

كتبت:

«الزميلات والزملاء الأفاضل أعضاء مجلس الكليّة،

تحية طيبة وبعد،

أودّ أن أحيطكم علمًا بمختصر مجريات ما حدث في الحرم الجامعي ظهر الرابع من نوفمبر ٢٠١٠ بين الساعة الواحدة والثالثة ظهرًا. وكنت شاهدًا على الشق الأول بل كنت طرفًا فيه؛ أما الشق اللاحق فلم أكن شاهد عيان وإن سمعت به وتأكّد ما سمعته من الصور التي التقطها الصحفيون وتعرّفي على بعض الأشخاص الذين شاهدتهم بعيني في الشق الأول».

قسَمت المُذَكّرَة إلى ثلاثة أقسام. أولها بعنوان «السياق»، قدمت فيه نبذة من أربعة أسطر عن وقفاتنا الاحتجاجية لتحقيق مطلب من مطالبنا الخاصة باستقلال الجامعة أو إنصاف مظلوم من الأساتذة أو الطلاب. ثانيها من ثمانية عشر سطرًا في عرض الواقعة. أما القسم الثالث وتحت عنوان «ملحوظات» فيضمّ أربع نقاط تحمل اثنتان منها مطلبين: مطلبًا باعتذار رئيس الجامعة، ومطلبًا بفتح تحقيق مع الطلاب/ البلطجيّة الذين تحرّشوا لفظًا بالأساتذة ولفظًا وفعلًا بالطلاب.

في الصباح طبعت المُذَكّرَة التي كتبتها في اليوم السابق ووقّعتها وذهبت إلى الجامعة.

دخلت الكليّة. نبّهت عامل المصعد أنني لا أقصد القسم بل أقصد مكتب العميد. دخلت إلى غرفة العميد الذي اعتاد أن يحيّيني بحرارة كلما التقيت به. ترك مكتبه وصافحني بودّ ثم انتحينا جانبًا في صالون الاستقبال إلى يسار مكتبه. قلت: لا بد أنك سمعت بما حدث في الجامعة يوم الخميس. سمعت. كتبتُ مُذَكّرَة عن الموضوع أرجو أن تعرضها باسمي على مجلس الكليّة. أعطيته المُذَكّرَة. أقل من دقيقة ثم أعادها إليّ؛ لا أدري إن كان قرأها كاملة أم اكتفى بإلقاء نظرة سريعة. لا أستطيع عرضها. لماذا؟ ستقدمها باسمي إلى المجلس. لم أجد مناسبًا أن أقطع الجلسة وأقحم نفسي على جدول الأعمال، ما دمت لست عضوة في المجلس هذا العام. جئتك بوصفك رئيس المجلس لتعرضها فيما يستجد من أعمال، وهي باسمي. قال بحسم ودون أن يبتسم: لا أستطيع.

لم يكن لديَّ محاضرات في ذلك اليوم. بإمكاني أن أتجه إلى سيارتي وأغادر عائدة إلى البيت. صعدت إلى الطابق الرابع ربما لأئتنس بوجهَي أم تامر وأحمد سعاة القسم الطيبَين، ومن أحب من زملائي وزميلاتي وطلابي. احتسيت فنجان القهوة. هدأت قليلًا ثم انصرفت.

الفصل الثالث

دراما مُرَكَّبَة

وسط هذه الدراما المتشابكة، الهزليّ منها والحزين، كانت تدور دراما أخرى، لا على خشبة المسرح أو في المشهد السياسي، بل في رأسي. والكلام هنا يا سيدتي القارئة وسيدي القارئ، ليس مجازًا، أعني الرأس الماديّ المكوّن من مخّ وأعصاب وأنسجة وعظم وجلد.

تورُّمٌ مزعج خلف أذني اليمنى، يبدأ بحجم حبّة لوز، ثم يكبر. نستأصله. يعاود الظهور بعد عامين أو ثلاثة. لا أعيره انتباهًا لعامين آخرين. وحين يصعب تجاهله (مثلًا في الصيف، لأنه يتبلّل بالعرق ويلهبه احتكاك ذراع النظارة به)، أذهب صاغرةً إلى الجرّاح. هذا هو الحال منذ ثلاثين عامًا. أستأصلته خمس مرات. بالتخدير الجزئيّ أو الكامل، بدخول المستشفى بضع ساعات، أو قضاء ليلة فيها أو عدة ليال. ليس سوى تليّف حميد، هذه هي الخلاصة المتكرّرة لتقارير الباثولوجي بعد تحليل الأنسجة، باستثناء تقرير الجراحة الخامسة

الذي عيّن التليّف بالاسم فهو شوانوما: ورم حميد، يتطلّب المتابعة. ولما كانت الجراحة الأخيرة أعقبتها حساسية غريبة سببها التخدير أو أمر آخر، وكادت تودي بحياتي، راوغتُ في التعامل مع هذا الورم حين عاود الظهور على استحياء ثم بوضوح في الأعوام التالية. أخذ يتمدّد في رأسي وينتفخ ويتكوّر حتى أصبح بحجم حبّة برتقال صغيرة. هل ذهبتِ إلى الطبيب؟ سأذهب. متى تذهبين إلى الطبيب؟ سأذهب. لماذا لم تذهبي إلى الطبيب؟ سأذهب. الرد المتطابق ردّي، أما الأسئلة فكانت تتكرّر من أفراد أسرتي ومن صديقاتي ومن مصفّف الشعر.

في يوم ٣٠ أغسطس قبل واقعة غريب بشهر وخمسة أيام، أصرّ زوجي على اصطحابي إلى الجرّاح. لم تُجْدِ أية محاولة للتأجيل أو التسويف. فحص الدكتور أسامة سليمان رأسي وطلب أن أذهب لعمل صورة للرأس بالرنين المغناطيسي. فورًا. غادرنا عيادته وذهبنا إلى المعمل. عدنا إليه بالنتائج مساء اليوم التالي. تطلّع إلى الصور وقال بحسم إن الأمر هذه المرة يختلف، وإن علينا أن نقوم بترُوكَت بايُوبْسي أي جراحة صغيرة لأخذ عَيِّنَة من الورم للتحقق من طبيعته، قبل الشروع في استئصاله. قلت: لا وقت لذلك الآن، طارق مريض (يعرف الدكتور أسامة أخي، وكانا رفيقَي طفولة). أصرّ. اضطررت للنطق بما لا أريد: «طارق يحتضر». لم يتوقف أمام عبارتي، كرّر الطلب.

وضعت الأمر برمّته جانبًا، لأن أخي كان حقيقةً يحتضر.

رحل طارق بعد ستة أيام. رحل في يوم عيد ميلاده السابع والستين.

(وطبعًا توقّفت عند التاريخ وكدت أقول لنفسي وإن لم أقل، شيئًا عن علاقتنا بهذا التاريخ القاتل. في يونية ١٩٦٧ أصيب طارق وهو شاب دون الرابعة والعشرين بانسكاب بلّلوري ألزمه الفراش أسابيع طويلة. وبصرف النظر عن أي رأيٍ طبيّ، ربطتُ بين مرضه وكَمَدِه على فقد الآلاف من أبناء جيله ومنهم أصحاب ومعارف له، نُقلوا إلى سيناء ولم يعودوا. تعزّزت قناعتي لاحقًا حين أصبت بالمرض نفسه في سبتمبر ١٩٨١ حين اعتقل السادات في حملته الشهيرة ١٥٣٦ معارضًا من معارضيه، كان بينهم معظم صديقاتي وأصدقائي. كنت ساعتها خارج البلاد مرافقة لزوجي، بعد مشاكل صحية اضطرتني لإجراء جراحتين متعاقبتين يفصل بينهما ثلاثة أسابيع.

انشغلت برحيل طارق ثم بمرض أمي. ثم وفاتها. وقرر تميم حين أتى لحضور عزاء خاله أن يأخذ معه صور الرنين المغناطيسي لعرضها على الدكتور سمير خلِيف، صديقه طبيب الأورام في المعهد القومي للصحّة في واشنطون. ثم عاد تميم بعد أسابيع لحضور عزاء جدّته. وكان يُلِحّ عليّ بضرورة السفر.

ستتصور يا سيدي القارئ أن هذه هي الدراما التي أتحدث عنها، ولكن الدراما لم تكن في معرفتنا بأن الورم مختلف، أو شكوكنا في طبيعته ولا في إصرار صديقنا الجرّاح على التعامل السريع معه، ولا إلحاح ابني وزوجي واجتماعهما عليّ لإقناعي بالسفر. لم تكن هذه الأمور سوى الهوامش أو البرولوج، وهو بلغة المسرح المدخل السابق مباشرةً للفصل الأول. لأن الدراما كما قلت، كانت تدور في

الدماغ، تنمو بشكل أهوج وتمارس جنونها، على طريقة «سِكِتْنا له فدخل بحماره». يحدث ذلك وأنا استقبل المعزّين، وأنا أشارك زملائي في توزيع حكم المحكمة الإدارية العليا في الجامعة، وأنا أكتب مسودة بيان ٩ مارس، وأنا أخرج مخذولةً من مكتب العميد لأنه كما قال، لا يستطيع أن يعرض المذكّرة على مجلس الكليّة، وأنا أدرِّس مقررَي الدراسات العليا، بهِمّة.

أخيرا قرّرت السفر. وكان عليّ قبل تنفيذ هذا القرار إنجاز مجموعة من المهام منها البسيط ومنها الصعب شديد الصعوبة، في أقل من عشرة أيام: الحصول على تقرير طبّي من المستشفى التخصّصي لجامعة عين شمس بعد أن يفحصني جرّاح من جراحي المستشفى، وهو ما نصحني به الدكتور محمد أبو الغار زميلي في مجموعة استقلال الجامعة، تحسُّبًا من أية تعقيدات قد تفتعلها إدارة الجامعة ورئيسها. ترتيب التقارير الطبية لإرفاقها بطلب إجازة مرضية أتقدّم به إلى إدارة الكليّة. العودة إلى غرفة نوم أمي مع خالتي الصغرى هالة وبنات أخي لفرز ملابس أمي والتصرّف فيها. العودة إلى الغرفة مرة ثانية لتوزيع حُلِيّ أمي، كما قررتُ، على حفيداتها الثلاث، بنات إخوتي، مع الالتزام بما أوصت به. الذهاب إلى البنك. شراء تذكرة السفر. جمع التقارير الطبّية القديمة والأقدم التي قد تفيد في تشخيص المرض. اختيار الملابس التي سأستخدمها وإعداد حقيبة السفر.

تقدمت إلى عميد الكليّة بتاريخ ٢١ نوفمبر، بطلب إجازة مرضية من ٢٨ نوفمبر إلى ٩ يناير، أي ستة أسابيع تضمنت أسبوعَي عطلة

نصف السنة. (ورغم نيّتي العودة بعد ثلاثة أسابيع، طلبت الأسابيع الستة من باب الاحتياط). أرفقت بالطلب الفحوص والتقارير بما فيها التقرير المختوم بخاتم المستشفى التخصصي لجامعة عين شمس. أعطيت الأوراق لسكرتيرة القسم وطلبت منها أن تسلّمها لمكتب العميد على «السَّرْكي»، أي بشكل رسمي. لم أكن راغبة في الذهاب إلى مكتب العميد. ولكنني بعد أقل من أسبوع ذهبت إلى مكتبه لأستفهم من سكرتيره عن أمر رسالة مسجّلة تحمل توقيع وكيل الكليّة، القائم بأعمال العميد (الذي كان سافر للحج برفقة وزير التعليم العالي). مفاد الرسالة أن وكيل كلية الحقوق يطلب لقائي في الأسبوع التالي. طلبت من سكرتير العميد أن يتّصل به. اتّصل وأعطاني السماعة. قلت له تريد أن تلتقي بي؟ لو أردت نلتقي اليوم، ما الموضوع أصلًا؟ الموعد محدَّد في الرسالة. لا يناسبني الموعد، تقدّمتُ للحصول على إجازة مرضية، سأكون سافرت. لن تتمكني من السفر. أذهلني الجواب. لماذا؟ لأنك مُقَدّمَة للتحقيق؛ لن يُسمح لك بالسفر. أعطيت السماعة لسكرتير العميد ليعيدها مكانها.

بعدها بيومين دقّ تليفوني المحمول: رقم العميد. عاد من الحج؟ لا بد أنه عاد. بعد السلام والكلام: رئيس الجامعة يريد أن يلتقي بك. لا أعتقد أنني سأتمكن من لقائه. سأسافر بعد غد. ولكن... دقيقة واحدة يا دكتور. قمت من مقعدي المواجه للسيدة التي تعدّ لي تذكرة السفر. سأعود فورًا. خرجت من باب مكتب السياحة إلى الشارع. واضح أن المكالمة ستطول، (لم تطُل). معك يا دكتور. ليس من

حقي كعميد أن أوقِّع على إجازة تتجاوز العشرة أيام، لا بد أن يوافق رئيس الجامعة، من الأفضل أن تلتقي به لكي يوافق على الإجازة. يا دكتور تقدمت بطلب إجازة مرضية، مرفق بالطلب صور لكل الفحوص والتقارير التي تؤكد حاجتي لهذه الإجازة، إن وافق رئيس الجامعة، شكرًا. إن لم يوافق، أتحمّل مسئولية سفري بدون إذنه. أغلقت المحمول ودفعت باب مكتب السياحة وعدت إلى المقعد الذي كنت أجلس عليه. انتهت السيدة من إعداد التذكرة على شركة إير فرانس ذهابًا وعودة: القاهرة ـ واشنطون دي سي مرورا بباريس، في الأول من ديسمبر. واشنطون دي سي ـ القاهرة من الطريق نفسه، في الثالث والعشرين من ديسمبر. أعطتني التذكرة وأعطيتها ثمنها نقدًا. قلت تأكّدي أنني لم أخطئ العدّ. لم أكن أريد أن ينقص الثمن عشرة أو عشرين جنيها تتحملها الموظّفة. عدّت الأوراق المالية، ثم ضحكت وهي تناولني رزمةً منها: إيه يا دكتورة، فيه زيادة ٧٥٠ جنيهًا. لا بد أن وجهي تورّد خجلًا. أخذت المبلغ الزائد. شكرتها وانصرفت.

قبل أيام كنت ضيّعت صور الأَشِعَّة. وكان عليّ أن أذهب إلى المعمل وأطلب نسخة جديدة وأعود مرة ثانية لاستلامها. أتميّز غيظًا وأنا أكرّر على نفسي: وكأنه تنقصك مهام إضافية في الأيام القليلة المزنوقة المتبقية على السفر! ثم كيف تسقط منك أوراق بنصف حجمك في غلاف من الورق المقوّى الملوّن بأحمر يجذب النظر على بعد أمتار؟! كنت ذهبت إلى المستشفى التخصّصي وعرضت

الصور على الطبيب. فحصني ثم حملت تقريره إلى مسئولٍ إداريّ ختمه لي بخاتم المستشفى. بعد ذهابي إلى الكليّة انتبهت أن الصور ليست معي. عدت إلى المستشفى. سألت وبحثت. لم أجدها. يبدو أنني وضعتها على ظهر السيارة كي أتمكّن من البحث في حقيبة يدي عن المفتاح. ثم ركبت السيارة، واتجهت إلى الكليّة. طارت صور الأَشِعَّة كأن لها أجنحة. سقطت، على الأرجح، في فناء المستشفى، أو داخل حرم الجامعة، أو في شارع الخليفة المأمون الفاصل بينهما.

منذ طفولتي وأنا أوصف بالمَطْيورة. في المرحلة الابتدائية كانت هذه الملحوظة تتكرر في الشهادة الشهرية، مضافًا إليها في الغالب أنني ثرثارة. أنسى أشيائي في المدرسة. أصطدم بهذا الشيء أو ذاك: باب، حائط، شجرة، عمود نور أو حفرة في الطريق أتعثّر فيها. وفي يوم سقطت هكذا فجأة وأنا أقف في فناء المدرسة مع زميلاتي. صِحْنَ: إيه اللي حصل؟ بهدوء أجبت: اتْكَعْبِلْت. اتْكَعْبِلتِ ف إيه؟ اتكعبلت في نفسي. انقلب الفزع إلى صخب وقهقهة، وذهبت العبارة والواقعة مثلًا. أما أن أترك شيئًا كأنه لا يخصّني وأذهب في أمان الله، فلا حصر لوقائعه: أنسى حقيبة كتبي أو سترتي الصوفية في أوتوبيس المدرسة. أضع محفظتي أمامي في مكتبة جامعة القاهرة أو مكتبة جامعة مَاسَاشُوسِتْس وتأخذني القراءة وحين أنتهي، أعيد الكتاب وأغادر. أترك محفظتي تراود من يستجيب لها. أنسى حقيبة يدي في القطار المتجه إلى البلدة التي يعقد فيها المؤتمر، فأجلس على مقعد خشبيّ على الرصيف في انتظار وصول القطار إلى المحطة التالية، وردّ ناظر المحطة إن كانوا

وجدوا الحقيبة في القطار. هذه الواقعة تحديدًا (ترك حقيبة يدي بما فيها من بطاقات وأوراق ونقود لم تتكرر سوى ثلاث مرات، مرتين في القاهرة ومرة في إنجلترا) العجيب، كانت النهايات، على طريقة الأفلام العربية القديمة، نهايات سعيدة، وإن لم يتوفّر في الأحداث (تمامًا كما في هذه الأفلام) أي منطق يقود إلى هذه النهايات.

آخر واقعة قبل سنوات قليلة: أسير في الشارع بهِمَّة. فجأة أجد نفسي أطير، أعي أنني فوق، أسبح في الفضاء. ثم في لمحة، أجد نفسي تحت، مستقرة على الأسفلت. قبل أن أتحسّس الكدمات، أقول: الحمد لله، قدّر ولطف، لا لأنني لم أنكسر، بل لأن الوقت ليل ولم ينتبه أحد من المارة القليلين للسيدة الستّينية وهي تطير ويتحوّل ثوبها إلى منطاد مؤقت، قبل أن ترتطم بالأرض. ولما كنت محظوظة، أو هذا ما يعِنُّ لي أن أعتقد، لم تنكسر ساقي أو مفصل الفخذ فيترتّب على هذه الثواني من الطيران الليليّ، ساعات تحت المصابيح مركّزة الضوء، بين يدَي جرّاح يركِّب الشرائح المعدنية والمسامير، تتبعها أيام من الإقامة في المستشفى وشهور أستعين فيها بعكاز أو مشّاية وسنوات، المتبقّية من عمري على الأرجح، يشوب مشيتي عرجٌ واضح أو يحتاج الانتباه لملاحظته.

طالت الفقرة الاستطراديّة وعليّ الآن العودة إلى الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر. نعم، كنت هشّة وكنت منهكة وكنت مضطربة.

قبل سفري بيوم واحد عاود العميد الاتصال بي: رئيس الجامعة مُصرّ أن يلتقي بكِ، أرجو أن تذهبي إليه. سأسافر غدًا، لا مجال

للذهاب. لكنه يريد أن يطمئن على وضعكِ الصحي ويناقش معكِ إمكانية إسهام الجامعة في تكاليف العلاج. أنهيت المكالمة. كنت غاضبة. لا أريد الآن استخدام تعبير العصا والجزرة لأنك يا قارئي العزيز قد لا تنتبه لكثرة استخدام هذا التعبير، أنه يفترض أننا أرانب، حيوانات صغيرة تُدْبِرُ مذعورةً أو تُقْبِلُ أيا كانت اليد الممتدة. يريد أن أذهب إلى مكتبه ليصرّح في جريدة ما: جاءت تعتذر لي. وقد يتقمّص دور الفارس الهُمام فيضيف بغبطة: أعطيتها إجازة وستتكفل بعلاجها، وكأنني لا أعمل في الجامعة من أربعين سنة، أدفع التأمين الصحي ولي حقوقي التي لا يمنّ عليّ بها ولا يدفعها من جيبه. لا، لم يكن مجرد شعور بالغضب بل بالإهانة.، كأنه بعرضه وسياق العرض، بصق في وجهي.

بعد شهر وأنا في واشنطون أجلس إلى مكتب تميم في بيته الصغير، وقعت على خبر منشور على بوابة جريدة الوفد الإلكترونية بتاريخ العاشر من ديسمبر ٢٠١٠ تحت عنوان «هاني هلال يُفرج عن رضوى عاشور»، ثم عنوان فرعي «رضوى عاشور في باريس للعلاج». أما نص الخبر: «تتوجه إلى باريس، اليوم الجمعة، الدكتورة رضوى عاشور أستاذ الأدب الإنجليزي والعضو النشط بحركة ٩ مارس للعلاج بالخارج، بعد موافقة الدكتور هاني هلال وزير التعليم العالي».

«وكان الدكتور ماجد الديب رئيس الجامعة وقَّع الخميس الشهادة الصفراء، التي تمنح للعاملين بالدولة إذنا بالسفر للخارج، والتي طلبتها الدكتورة رضوى منذ أسبوعين».

«وتعاني رضوى عاشور وهي الأديبة والشاعرة ذائعة الصيت من أمراض خطيرة استلزمت علاجها في الخارج عدة مرات العام الماضي. وكان الدكتور هلال قد أحال الدكتورة رضوى عاشور للتحقيق بتهمة إثارة الشغب في الجامعة».

لم أقرأ هذا الخبر في حينه. أذكر جيدًا أنني قرأته ورأسي ملفوف بالأضمدة، بعد الجراحة الأولى التي أُجْرِيَت لي في السابع عشر من ديسمبر. أضحكتني الأكاذيب في الخبر، وأضحكني أنهم بهذا القدر من الضعف الذي يضطرهم إلى الكذب. كنت غادرت مصر فجر الأول من ديسمبر. لم أطلب ورقةً صفراء ولا وقّع ماجد الديب على ورقةٍ صفراء، لأن الورقة الصفراء كانت ألغيت بالنسبة لأساتذة الجامعات منذ سنوات. لم أكن توجّهت إلى باريس (بل قرّر رجال الأمن ذلك لأن تذكرتي على الخطوط الجوية الفرنسية). لم يحدث أن سافرت عدة مرات للعلاج في العام السابق ولا في الأعوام السابقة. لست شاعرة ولم يسبق لي أن نشرت قصيدة واحدة. وبدا لي وصفي بالشاعرة أمرًا يثير التهكّم، فوزير التعليم العالي ورئيس الجامعة العريقة لا يميّزان بين الشاعر والروائي، ولا يعرفان ما تكتبه هذه الكاتبة الأشهر ربما، بين الأديبات العاملات في سلك التعليم الجامعي. لم يكن في الخبر سوى معلومة واحدة صحيحة: أنني أُحِلْتُ للتحقيق بتهمة إثارة الشغب. أما العنوان فلكلٍّ أن يستجيب له بما يشاء. أنا ضحكت. قد أعود للحديث عن الوزير الذي أفرج عني، إن سمح السياق، وقد لا أعود.

ما زلت في القاهرة رغم الفقرة السابقة التي قفزت فيها إلى الشهر التالي. رتّبت حقيبة السفر ثم مرّ بي أخي حاتم ليأخذني إلى المطار. كان الدكتور عبد الجليل مصطفى والأستاذ صلاح حبيب المحامي الذي تفضّل مشكورًا بالتعامل قانونيًّا مع الجامعة نيابة عني وعن زميلاتي، يقفان بباب صالة السفر لتوديعي. لحق بنا الدكتور أبو الغار الذي كان مسافرًا إلى البرازيل عبر باريس. في المطار انضمت إلينا زميلة بالكليّة تصادف سفرها على متن الطائرة نفسها، إلى بلد أوروبي ما.

أقلعت الطائرة.

الفصل الرابع

الطابق السابع أولا

غرفة صغيرة، لا تتجاوز مترين في متر ونصف. خلعت معطفي وكذلك فعل تميم. علقناهما على مشجب ما. دخل شاب آسيوي الملامح، سألني أسئلة محدّدة، هل أسمع جيدًا، هل أصاب بزغللة في النظر، هل أُعاني من صداع. أجيب بالنفي، يدوِّن إجاباتي. فحص رأسي. طلب صور الأَشِعَّة المسجّلة على قرص مُدْمَج حملته معي من القاهرة، أعطيته له، ثم غادر.

حين دخل الجرّاح لم أتعرّف عليه. كان صينيًّا وصغير السن، أو هكذا بدا لي بسبب نحوله وصغر حجمه. ولما كنت أعرف أن اسم الجراح وُلتر جين (أي اسم أمريكي أو بريطاني) قدّرت أن الرجل مساعد آخر. لم يكن. كان هو وُلتر جين جرّاح المخ والأعصاب الذي اقتُرح علينا لتمكّنه ومهارته في مجاله. قال دون أن يبتسم: اطّلعت على الصور. نحتاج إلى صور آشعة مقطعية. بعدها نجري الجراحة.

مُضحكة رضوى أو غبيّة، أو كما شاع عنها في طفولتها تسرح وتطير في الملكوت الذي يشغلها. كنت أفكّر في العودة إلى القاهرة (ربما لأن حاجة لا أعيها، تلحّ عليَّ بالقفز عن هذه اللحظة، والعودة إلى بيتي). سألته كم من الوقت نحتاج لإجراء ذلك؟ حجزت للعودة بعد ثلاثة أسابيع، ولديَّ إجازة من عملي بحد أقصى ستة أسابيع. حرّك رأسه خفيفًا يمنةً ويسرة، قال: «هذا الكلام غير واقعي». دخل طبيب أسمر، صافحنا، وقال إنه الدكتور نيوكِرْك، وإنه سيكون عضوًا في فريق الجراحة مع الدكتور جين. أما الدكتور رايلي، ثالث الجرّاحين، فلن ألتقي به ذلك اليوم.

حدّدوا لي مواعيد للأشعة المَقْطَعِيَّة. ذهبت. أعيد تعبئة الاستمارة التي سبق أن ملأتها في الطابق السابع، في قسم المخ والأعصاب. الاسم. تاريخ الميلاد. جهة العمل. الأمراض التي أصبت بها سابقًا، الأدوية التي أتعاطاها بانتظام، وأسئلة أخرى كثيرة. وبدلًا من كتابة رقم بطاقة التأمين، أكتب: «سِلْف-بيد» (أي: على نفقتي الشخصية). أدفع المطلوب ببطاقة ائتمان استخرجتها خصيصًا قبل رحلة العلاج.

في ذلك الأسبوع سأتردد عدة مرات على الطابق السابع حيث قسم جراحة المخ والأعصاب، وعلى قسم الرأس والعنق في الطابق الأول، وقسم الإشعاع في الطابق الأرضي من أجنحة ومبانٍ مختلفة من المستشفى. يصحبني تميم ونفاوض ببسالة لكي يقبلوا بعدم استئصال عظمٍ من الرأس لاحتمال إصابته. بدأنا بنيوكِرْك، دخلنا معه في سجالٍ طويل حول الموضوع. لم يفلح في إقناعنا. ولما

صعدنا إلى الطابق السابع للقاء وُلتر جين، أجلسونا في غرفة واسعة تُشرف على حدائق جامعة جورجتاون، وبها مقعدان وثيران جلسنا عليهما، وخزائن أدوية ومعدّات طبية. ظهر وُلتر جين. كان واضحًا من دخوله الغرفة واختياره للحديث معنا وهو واقف بالقرب من الباب متكئًا بساعده الأيسر نصف اتكاءة على إحدى خزائن الأدوية، أنه مشغول، أو ربما نقل له نيوكِرْك موقفنا فأراد أن يحسم الأمر بسرعة. بدأ بالعبارة التالية: «ذَبون مَسْت جو» (لا بد من إزالة العظمة). سأل تميم الأسرع مني في تجاوز المفاجأة: هل نحن على يقين أن العظم مصاب؟ لا. هل لدينا دليل قاطع أن عدم استئصال هذا الجزء فيه ما يهدّد الحياة؟ لا. تدخّلت في الحديث: أقنعنا الدكتور نيوكِرْك برأينا، ووافق. ماذا حدث؟ انتفض جين، أعلن: إذن أنا خارج الموضوع. نيوكِرْك سيقود الفريق. واندفع إلى خارج الغرفة.

لم نغادر القسم. جلسنا ننتظر في القاعة المتاخمة لغرف الكشف لدفع الفاتورة. نادتنا ممرّضة: دكتور جين يريد التحدّث إليكم. ما إن دخلنا إلى الممر المؤدّي إلى غرف الكشف حتى قابلنا الدكتور جين. ودار الحديث وثلاثتنا واقفون. كانت محاولته للتحكم في توتّره تجعله يبدو أكثر توترًا. قال: آمل ألا تذهبوا وتقولوا إن وُلتر جين أعرب عن غضبه. علا صوته قليلا :لست غاضبًا! هذا ما أردت قوله. وهرول مبتعدًا.

في اليوم التالي طلب الدكتور نيوكِرْك أن أذهب إليه. ذهبت. عاد إلى فتح موضوع استئصال العظم. فعدنا لعرض حججنا. ثم

وقد انتبهت أن هناك مرضى آخرين ينتظرونه، سألته سؤالًا أخيرا: هل تعتقد أن تشبّثي برأيي، سلوك أحمق ؟ قال وهو يغالب ابتسامة: نعم. سكت. كنت أدير الأمر في رأسي وأفكّر. ثم: حسنًا، رغم ذلك، أنا مصرّة على رأيي. صافحني وصافح تميم وطلب منا المرور بالسكرتيرة لتحديد موعد الجراحة. حدّدته في الثالثة بعد ظهر الجمعة السابع عشر من ديسمبر.

في المساء جلست للرد على رسالة من هدى بركات، كانت وصلتني قبل أيام. أخبرتها أنني في واشنطون لأن عندي «برتقالة في رأسي». حكيت لها عن الورم «الثابت والمبدئي» الذي استأصلته عدة مرات من قبل، ولكن هذه المرة «ربنا طرح فيه البركة فتفوّق على نفسه فتركته يأخذ راحته، فكبر بشكل يدعو للإعجاب». كتبت: «الجرّاحون هنا يبدءون باقتراح استئصال القلب والرأس والرئتين لأن ذلك أسلم، ويضمن ألا يصيب أيًّا منها شيء في المستقبل. أي والله بيت الرعب في مدينة الملاهي (...) ناقشنا الأطباء إلى أن وصلنا لقرار منطقي. وكان اقتراحهم الأول استئصال جزء من الجمجمة كإجراء وقائي. وأنا طلعت أركض في الشارع وأقول: إلا راسي. طبعا هذا ما دار في خيالي وأنا جالسة في منتهى الاحترام أتناقش بهدوء».

لم أكتب لصديقتي الكاتبة اللبنانية عن اللقاء الأول بطبيبة التجميل في مستشفى جورج واشنطون في اليوم التالي لوصولي. وكان يمكن لو كتبت أن أجد مادة للتهكّم من الجرّاحة ومن نفسي.

كانت الدكتورة جيجي البيومي التي لم أكن التقيت بها من قبل، تكرّمت وحجزت لي موعدًا مع جرّاح في مستشفى جورج واشنطون الذي تعمل فيه. ورغم موعدي مع الدكتور وُلتر جين المحدّد سلفًا في الثالث من ديسمبر، قلت: لا ضير في الاستماع إلى رأيين والمضاهاة بينهما. أوصلني تميم بسيارة أجرة إلى مستشفى جورج واشنطون، أراد أن يصعد معي. رفضت بحسم. قلت: ستتأخر على محاضرتك. ما إن أنتهي سأستقل سيارة أجرة وأعود إلى البيت. معي مفتاح. قد أصل قبلك.

كان الجرّاح لطيفًا، يشي اسمه وشكله أنه من أصول إيطالية. قال لي بعد أن اطّلع على محتوى القرص المُدْمَج حيث صور الرنين المغناطيسي التي أجريت لي في القاهرة: أعتقد أن بإمكاننا استئصال هذا الورم، بما يضمن عدم نموه مرة ثانية. لم يزد عن ذلك. ثم وجّهني إلى جرّاحة التجميل في طابق آخر. قبل أن تفحص رأسي، علّقت السيدة الشقراء بخِفّة أن شعري مصفّف بمهارة، تخفي الورم. وبدا لي أن أول القصيدة كُفْر، وأن عبارة السيدة تفتقد أي قدر من اللياقة. فحصت رأسي. قالت: أمامنا طريقان، إما أن نوسِّع فروة الرأس، وهذه عملية تتطلب شهورًا من المتابعة. راحت تفصّل في الكلام عن بالونات صغيرة يتم زرعها في الرأس. توقفت عن متابعتها. (بدا الكلام غريبًا، صادمًا تقريبًا، لأن الجرّاح لم يشر من قريب أو بعيد لجرح كبير يستدعي زرع جلد). وواصلَت: الطريق الآخر أن ندير فروة الرأس بالكامل ونجعل الغطاء الجلدي الذي سنزرعه في منطقة أخرى من

الرأس بما يتيح إخفاءها بباقي الشعر. شكرتها وصعدت إلى الطابق العلوي، دفعت الفواتير، اتصلت بجيجي، وجلست أنتظر. ظهرت جيجي فتعرّفت عليها ما إن خرجت من باب المصعد. لا لأنها تشبه أباها أو أمها اللذين أعرفهما منذ عقود، بل لأنه يسهل من ملامحها معرفة أنها مصرية. صافحتني واعتذرَت عن التأخير، لأن مريضة من مرضاها في حالة حرجة. تحدثنا قليلًا ثم استأذنت كي لا أؤخرها عن مهامها. هبطت بالمصعد إلى الطابق الأرضي. قبل أن أغادر، وقفت عند المدخل لأتصل بمُريد في عمّان. كان الهواء باردًا وبدا لي التليفون الأمريكي المحمول الذي اشتريته في الصباح (لا تحصل على شريحة إلا بالتليفون) معضلة لم أتمكّن من حلها إلا بعد عدة محاولات استغرقتني ما يقرب من ثلث الساعة. أخيرًا نجحت في الاتصال بمُريد وكان ينتظر. قلت له الجرّاح قال كذا. جرّاحة التجميل قالت كذا. سأذهب غدًا إلى وُلتر جين ونرى. لم أنقل اضطرابي، أو هذا ما تصورته. أوقفت سيارة أجرة وقلت له العنوان.

لم أعترف لنفسي يوم التقيت بالجرّاحة الشقراء في مستشفى جورج واشنطون، ولا بعد معركة العظمة مع جين ونيوكِرْك أنني كنت خائفة. ربما لم أكن خائفة. ولكنني إذ أُمعن النظر فيما كتبته لصديقتي الكاتبة اللبنانية عن «الورم الثابت والمبدئي»، والوصف الساخر للجرّاحين الذين يقترحون استئصال القلب والرأس من باب الاحتياط، أنتبه أن هذه السخرية كانت تعبيرًا عن حاجة للدفاع عن النفس. درعًا من نوع ما إزاء خطر قررت أن أفضل أسلوب لمواجهته

هو التصغير من شأنه وتجاهل خطورته. حتى الورقة المطبوعة التي وقّعت عليها عند إجراء الفحوصات في اليوم السابق للجراحة، حولتها لموضوع للفكاهة الصاخبة. كانت الورقة إقرارًا مني بأن التخدير قد يسبب لي الشلل أو الموت، وأنني، لا المستشفى، أتحمل المُتَرَتِّبات. أضحك: كيف أتحمّلها وأنا ميتة!

ولكنني أرجِّح أنني كنت خائفة وإن لم أُقِرّ بذلك لا للآخرين ولا لنفسي.

ولذلك فإنني يوم الجمعة في حوالي الواحدة ظهرًا، حين نودي عليّ في غرفة انتظار العمليات وطُلب مني أن أتبع الممرّضة إلى غرفة التجهيز، ودّعت تميم (لم يكن مُريد وصل إلى واشنطون بعد)، والدكتور أشرف البيومي والدكتورة سهير مرسي اللذَيْن كانا في واشنطون، وجاءا إلى المستشفى ليكونا مع تميم، ودّعتهم بابتسامة وقبّلت تميم وسرت بهِمَّة (مضحكة؟) خلف الممرّضة إلى غرفة الإعداد للعمليات: قاعة واسعة فيها أسِرَّة متعددة يفصل بينها ستائر قماشية، ومكاتب لعدد من الممرّضات والممرّضين ودورة مياه. سأخلع كل ملابسي وأرتدي الثوب المعقّم الذي أعطوه لي، وجوربًا جديدًا سميكًا أصفر اللون، سيعلّقون حول رسغي شريطًا من البلاستيك عليه اسمي وتاريخ ميلادي. سيأتي الجرّاحون ومساعدوهم وطبيب التخدير ومساعدوه. مَن لا أعرفه منهم يعرِّفُني بنفسه، ومَن أعرف يسلِّم عليَّ ويسأل إن كنت أريد شيئًا. سيسمحون لتميم بأن يلحق بي ويرافقني وهم يثبِّتون لي «الكانولا» في يدي.

أعطوني الحقن المقرّرة، وأظن أن في إحداها مصلًا مخدِّرًا. سأنتظر بهدوء، أبتسم لكل من يتوجّه إليَّ بالحديث وأجيب عليه، أتبادل الكلام بصوت خافت مع تميم حتى يحين الوقت. يدفعون بالسرير ذي العجل الذي أرقد عليه، في ممرّات طويلة. أشعر بضيق لفكرة أنني لا أمشي على قدميّ، ولكنني لا أتوقف عند الفكرة، لا أتمكن من متابعة أي فكرة. ظلوا يدفعون بالسرير إلى أن وصلوا إلى باب معيّن انفتح على قاعة فسيحة وباردة. إذن نحن في مسرح العمليات (هذا هو اسم القاعة). قبل أن أجول بعينيّ لاستكشاف تفاصيلها، كانوا وصلوا بالسرير إلى مائدة الجراحة فأوقفوه ملاصقًا لها ثم نقلني عدد من الممرّضين، رجال أو نساء لا أذكر، سحبوا الملاءة بي فانزلقتُ من السرير إلى المائدة. تساءلت: ماذا بعد؟ هل يدخل الآن طبيب التخدير والجرّاحون؟ قبل أن أفكِّر في السؤال كنت غبت عن الوعي.

لن أذكر الخروج من مسرح العمليات ولا السرير الذي يدفعونه بي في رحلة العودة. سأعرف عند مغادرتي المستشفى أن الغرفة في طابق علوي يستدعي ركوب مصعد، وكان مسرح العمليات في الطابق الأرضي أو الأول. سأفتح عينيّ على وجه تميم، يبتسم ويقول: مبروك، الورم حميد. ربما نمت حتى الصباح. ربما كنت أصحو وأغفو وأعود أصحو. أنتبه لممرّضةٍ ما تعطيني دواءً أو حقنةً ما، بعد أن تسألني عن اسمي وتاريخ ميلادي، أو لطبيب يُعَرِّفني بنفسه. في الصباح حاولت استدعاء ممرّضة لتساعدني على قضاء حاجتي.

انزلق مني الجرس وسقط على الأرض. انتبهت إلى عجزي التام عن استعادته أو رفع صوتي لتسمعه أيٌّ من الممرّضات.

حين أتت الممرّضة بعد نصف ساعة أو ساعة، كنت بللت فراشي؛ كان هذا هو أقسى ما مرّ بي منذ دخلت المستشفى ظُهر اليوم السابق. غيّرت لي الممرّضة الملاءة وقبل أن تستبدل بثوب المستشفى المُبَلَّل ثوبًا آخر، أشرت عليها بقميص نوم أبيض حملته معي. ولما لامس الثوب جسمي شملتني سكينة غريبة. كان القميص لأمي، قطنيًّا أبيض طويلًا وبسيطًا وجميلًا. هل أتى لي القميص بأمي فانكسَرَتْ تلك الغربة الغالبة التي أتفنّن في تجاهل قسوتها؟ ربما.

في المرة التالية حين أردت التبوّل، لم أستدع الممرّضة. تحاملتُ على نفسي. اعتدلت جالسة في السرير ثم قمت. مشيت ببطء، مستندة إلى السرير فالحائط فباب دورة المياه فالحوض، ثم المرحاض. عدت بالطريقة نفسها، دون مساعدة. ساعتها عرفت أن هناك سيدة أخرى في الغرفة تنام على سرير تفصله عن سريري، ستارة.

في المساء قال لي تميم: الطبيب يقول إن بإمكانك الخروج الليلة، ما رأيك، أليس من الأفضل أن ننتظر حتى الغد؟ أُفَضِّل العودة إلى البيت. هل تستطيعين ذلك؟ أستطيع.

في العاشرة أو الحادية عشرة ليلًا غيّروا لي ملابسي. أجلسوني على كرسيّ متحرّك ودفعني أحد الممرّضين إلى المصعد، ثم عبر ممرات طويلة إلى مَخرج ما من مخارج المستشفى. كان تميم طلب سيارة أجرة. حملتنا السيارة إلى ٢٢٠١ شارع وِسْكونْسِن. صعدنا إلى

الطابق الخامس. من باب المصعد الذي تواجهه مرآة لم أتطلّع فيها، انعطفنا يسارًا ثم يمينًا في ممرّ أشبه بممرّات الفنادق، أرضيته مغطّاة بالسجاد. عند الباب رقم ٥٠١، توقّفنا. أدار تميم المفتاح فانفتح على شقته: حمد الله على السلامة.

الفصل الخامس

تونس

إذا الشعب يومًا

لم أعلم بما يجري في تونس، لا يوم الجمعة ولا يوم السبت. يوم الأحد، اليوم التالي لخروجي من المستشفى. سيقول لي تميم عبارة مقتضبة: هناك مظاهرات حاشدة في تونس. لم يزد، ربما لأنه لم يرغب في نقل أية تفاصيل بسبب وضعي الصحي.

وسننشغل في الأيام الثلاثة التالية بأمر مُريد الذي كان في طريقه إلينا، بعد حصوله على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. سافر من عمّان إلى القاهرة صباح الجمعة، ثم غادر القاهرة صباح الأحد متجهًا إلى واشنطون على الخطوط الجوية الفرنسية، (أراد أن تكون تذكرته على الشركة نفسها حتى نتمكن من العودة معًا). لم تتمكن الطائرة من الهبوط في باريس بسبب العواصف الثلجية. اتجهت إلى مطار ليون. لم تتمكن من النزول. قصدت

مطار نيس. هبطت فيه. لم يُسمح للركاب بمغادرتها. بقوا على متنها إلى أن أقلعت في رحلة جديدة إلى باريس. ولأن الثلوج كانت عاتية في المنطقة كلها لا في باريس وحدها، ولأن العديد ممن وصلوا المطار لا يقصدون باريس ولا فرنسا بل ينتظرون السفر إلى أماكن أخرى، ارتبكت الرحلات واختلّت الجداول. بقي مُريد، بدلًا من ساعات الترانزيت الثلاث أو الأربع المقررة له في مطار شارل ديجول، ليلتين كيوم الحشر. طوابير لا تنتهي لمسافرين فاتتهم طائراتهم يريدون التفاهم مع موظفي شركات الطيران لاستبدال رحلاتهم. صخب وجدال ومشادات، وأمهات تحوّل إنهاكهن إلى سلوك عصبي مع صغارهن، فيزداد الصغار توتّرًا ويتحول التوتّر إلى نكد وبكاء يجعل الأمهات أكثر عصبيّة. ومسافرون هدّهم التعب فاستسلموا للنوم على المتوفّر من المقاعد أو افترشوا الأرض وغطوا أنفسهم بستراتهم أو بالأغطية الصوفية الكحلية التي وزعتها عليهم شركة إير فرانس.

وأخيرًا وصل مُريد إلى واشنطون. قال بعد أن استقر بيننا واحتسى القهوة وتحدثنا باقتضاب في أمر الرحلتين: العِلاجِيَّة والطائرة: انزل يا تميم، اشترِ لأبيك ملابس داخلية حتى تتحملوا الجلوس معه. لم تصل حقيبة مُريد، ولن تصل قبل ثلاثة أيام. ذهب تميم بهِمَّة لشراء المطلوب. وكان، على غير الأيام الماضية، في حالة مزاجية طيبة. كان قلقا على أبيه يحاول الاتصال به تليفونيًّا بلا انقطاع، ويزداد توترًا لأن أباه (السابح دون علمه، في الفضاء من مطار إلى آخر)، لا يردّ على

مكالماته. أطالبه أن يهدأ وهو طلب مضحك لأنه غير قابل للتنفيذ.

عاد تميم من مُهِمَّتِهِ مُحَمَّلًا بالأكياس. فتح أولها وأعطى مُريد الملابس الداخلية التي طلبها. ثم بدأ في فتح الأكياس الكبيرة وما في داخلها من علب. سرير من المطاط مطوي في إحدى العلب. علبة أخرى بها لحاف. ثالثة بها وسادة، ثم كيس أخير به ملاءة وغطاء للوسادة. ننهمك في نفخ السرير وترتيب المفروشات عليه. (يصير سرير تميم إلى أن تنتهي إقامتنا في واشنطون)، نضعه في غرفة النوم محاذيًا للحائط المواجه للسرير الكبير. نتشارك ثلاثتنا في غرفة النوم على مدى الشهور الخمسة التالية، لأننا من بلاد طيّبة يقول المثل الشعبي فيها: «لقمة هنيّة تكفِّي مِيَّة». ننام في غرفة النوم. ومن يريد منا السهر طويلًا أو الاستيقاظ مبكِّرًا ليقرأ أو يكتب أو يشاهد التلفزيون، فبإمكانه أن يغلق الباب بهدوء على النائمين. يعد قهوته في المطبخ، ويجلس إلى المكتب أو على أحد المقاعد أمام التلفزيون في الصالة.

* * *

لا أفهم الصُّدَف. أتأملها وأفشل في فهمها. ولا أعني الصدفة كظاهرة، بل تصادُف تواريخ أمرين دالَّيْن، أو تصادف حدوث أمر حزين مع آخر سعيد (أو العكس) في اليوم نفسه من ذات السنة أو بعدها بسنوات، كأن أفقد والدي يوم عيد زواجي، وأن يتعرّض صديقنا رسام الكاريكاتور ناجي العلي للاغتيال في التاريخ نفسه، وأن يرحل طارق في يوم عيد ميلاده السابع والستين. كلٌّ منها صدفة لا أفهمها.

تصادف إذن أن أكون في مسرح العمليات بين أيدي جراحَيْن

يُعملان مشارطهما ومعارفهما في رأسي، وتونس تشتعل بعد أن أحرق البوعزيزي نفسه. لا علاقة بين الأمرين، ولكنني أربط بينهما بسبب التاريخ، ولأن كلًّا من الحدثين يخصُّني بشكل مباشر، ويؤثر ربما في فعل الحياة وشكل استمرارها. ثم تصادف أنني كنت، وأهل تونس يخرجون إلى الشوارع ويهتفون «الشعب يريد إسقاط النظام»، في بلد بعيد يصعب أن تجد فيه قناة إخبارية تواكب تفاصيل ما يحدث في بلادك، أكرر على نفسي: لو لم آت إلى واشنطون في أول ديسمبر، لو لم يحدد الطبيب يوم السابع عشر من ديسمبر موعدًا للجراحة، لكنت في بيتي في القاهرة أتابع تفاصيل الخبر لحظة بلحظة، أتنقّل بين عشرات القنوات العربية وغير العربية، أتحدث مع أصحابي بشأن ما يجري في تونس وألمس لمس اليدين أمرًا ما يتشكّل ساعةً بساعة في شوارع القاهرة، ولكن الصدفة التي لا أفهمها، ستتحكم في قدر متابعتي لثورة تونس.

لن أرى صورة البوعزيزي وهو يشعل النار في نفسه إلا بعد أسابيع في تسجيل منشور على اليوتيوب. وعبر اليوتيوب أيضا سأشاهد الكهل الذي يقول: هذه فرصتكم أيها الشباب التونسي. تستطيعون أن تقدموا إلى تونس ما لم نقدِّم لها نحن؛ لأننا ـ هنا يتوقف الرجل بُرهَةً عن الكلام وتمتد يده، تلمس شعره، تتحرك من مؤخرة الرأس إلى مقدمتها. لأننا هرِمْنَـــــا. يشدِّد على مخارج الألفاظ والمد في نهاية العبارة، كأنما يمنحه هذا التشديد فرصة لمغالبة الغصة في حلقه أو دمعًا محبوسًا، أو رعشةً تتفلت

في وجهه وصوته. يلتقط النَّفَس. تتحرك يدُه مرةً ثانية على شعره الأبيض، يكرِّر: «هَرِمْنَا من أجل هذه اللحظة التاريخية». كان وجه الرجل وشعره وكلامه يرُدُّ لي صورتي وينطق بلساني، أنا رضوى بنت مَيَّة ومصطفى، المرأة الستينية التي هرمت من أجل لحظة من هذا النوع. الغريب أنني لم أبكِ. لن أبكي إلا لاحقًا وأنا أشاهد الشريط الذي نقلته الفضائيات يوم ١٤ يناير مباشرة، وشاهدته في الليلة نفسها أو في اليوم التالي، على اليوتيوب. سأعود للحديث عن هذا الشريط في نهاية الفصل. أبكاني الشريط فبكيت، رغم أن البكاء كان ترفًا لا أملكه في تلك الأيام.

جاء تقرير الباثولوجي المفصّل بعد تحليل عيِّنات من الورم وهوامشه، مختلفًا عن التقرير الناتج عن تحليل العيِّنات الذي تم أثناء الجراحة، وهو ما يُطلق عليه تحليل الـ«frozen section». وتأكّدت النتائج بتحليلٍ إضافيّ تم في معهد السرطان التابع للمعهد القومي للصحة. لم يكن الورم حميدًا. كان ورمًا خبيثًا وفي مرحلة متقدمة، وكان منتشرًا حتى في الهوامش التي استؤصلت من باب الحرص والتأمين. ولأنني رغم جهلي بالطب ومسالكه، قارئة وباحثة بحكم التخصُّص والوظيفة، رحت أقرأ عن هذه الشوانوما الخبيثة التي استقرت في جسمي بلا إذن ولا تنبيه.

سوف أقرأ وأنا جالسة على أحد المقعدين المريحين في الصالة (كان في الصالة أريكة ومقعدان اشتراهم تميم مع المكتب والمكتبة الصغيرة التي يضع التلفزيون على سطحها، وهو يؤسس بيته، وركّبهم

بنفسه. كانت أجزاء الأثاث البسيط مكوّنة من قطع خشبية تُسلَّم إلى الشاري في صناديق مغلقة فيفتحها ويقوم بتركيبها). أجلس على المقعد الأقرب لباب الشرفة. أقرأ على لَوْحِي الإلكتروني، المادة المتوفّرة عن تلك الشوانوما المُتَحَوِّلَة والتي تصيب غشاء الأعصاب، ويشار إليها علميًّا بورم غِمْد العَصَب الخبيث (MPNST). لم أكتف بالمادة البسيطة التي تعرّف بالمرض، بل رحت أقرأ بعض الأبحاث المكتوبة عنه، أجتهد في فهم ما يمكنني فهمه، وأتجاوز عن تفاصيل كثيرة لا أفهمها. أتنقّل بين أبحاث بعضها قديم أي منشور قبل سنوات، وبعضها الآخر منشور قبل أسابيع من اطّلاعي عليه.

إذن ورمٌ عدوانيّ شرس. قد يتمدد إلى النخاع الشوكي أو الرئة ويسبّب الوفاة. ورمٌ نادر عادة ما يصيب الأطراف، أما الإصابة في الرأس والعنق فهي أكثر نُدرة. وتبعًا لدراسة من الدراسات، لا يصاب به سوى شخص واحد بين كل عشرة آلاف، وغالبًا ما يكون تحوُّلًا من شوانوما حميدة. ومن واقع عيِّنة قوامها اثنان وثلاثون مصابًا، خَلُصَت الدراسة أن أعمار المصابين به تتفاوت بين الخامسة والخامسة والسبعين، وإن كان معظمهم في الخمسينيات أو الستينيات من أعمارهم. النسبة الغالبة بينهم (أكثر من ٧٠٪)، من الإناث. واتضح من ذات العَيِّنَة أن ٦٦٪ من المصابين فقدوا حياتهم بسببه، أما النسبة الباقية فقد أمكن شفاؤها باستئصال الورم والعلاج اللاحق بالإشعاع ثم المتابعة الطبية. ويتفق معظم الباحثين أن العلاج الكيماوي محدود الأثر أو غير مجدٍ في حالة هذا المرض.

أقرأ هذه الدراسات ليلًا ولا أشير لها، كأنني أطالع مادة محظورة. لا أرغب في إثارة مخاوف إضافية لدى مُريد وتميم. ويبدو لي الآن أن سلوكي كان طريفًا، أو ربما مضحكًا. لم يرد بخاطري أنهما سيبحثان مثلي عن هذا المرض ويقرآن عنه ولا يشيران لذلك، حماية لي من مخاوف إضافية.

القراءة المُخْتَلَسَة كانت في الليل، أما في النهار فقد كانت المخاوف مُعلنة وموضوعًا للتداول، لأن علينا أن نذهب إلى المستشفى ونتحدث مع الجرّاحين، ونعود إلى البيت ونراسل الأهل والأصدقاء، الأطباء والجرّاحين منهم، نستشيرهم في أحاديث تليفونية أو عبر المرسال الإلكتروني. وكان علينا أن نفكّر فيما ستتكلفه الجراحة القادمة وجلسات الأَشِعَّة التي تعقبها. وناقشنا إمكانية الانتقال إلى أوروبا لإتمام العلاج، اختصارًا للنفقات.

بعد ظهور نتائج تحليل الباثولوجي، قال الدكتور نيوكِرْك إنه ستُجرى لي جراحة ثانية، أكبر، يتم فيها استئصال مزيد من الهوامش المحيطة بالورم والعظم المتاخم له. قلت: كان قراري أحمق، أليس كذلك؟ لم يعلِّق. واصل: قد نضطر لاستئصال جزء من الديورا (أي غشاء من أغشية المخ الثلاثة، المعروف اصطلاحيًّا بالأم الجافية). عليك أن تذهبي الآن إلى الطابق السابع وتحجزي موعدًا مع الدكتور وُلتر جين لأنه هو الذي سيقوم باستئصال العظم والغشاء.

انتقلنا من الطابق الأول من مبنى جورمان إلى الطابق السابع بمركز الباسكِريّا، وجلسنا في انتظار دورنا للقاء الدكتور وُلتر جين. قبل أن

ينبس الدكتور جين بأي كلام، قلت: أدين لك بالاعتذار. كنتَ على حق. لا يشفع لي في ذلك إلا أنني دفعت ثمن قراري. تورّد وجهه، وسارع بتغيير دفّة الكلام إلى التفاصيل الخاصة بالجراحة القادمة. رأيت بوضوح لا لمحًا، الإنسان المختبئ وراء الوجه الصارم. وحين تأملت الأمر بعد عودتي إلى البيت وعرفت من موقع المستشفى على الشبكة الإلكترونية أنه صغير السن، رغم كونه أستاذًا (تخرج من كلية الطب عام ١٩٩٣)، قدّرتُ أن لتوتره علاقة بصغر سنه. ثم عدت أُرَجِّح أن الأمر يتعلق بكونه صينيًّا (لا أدري إن كان وصل الولايات المتحدة للدراسة ثم بقي فيها، أم أنه من أبناء المهاجرين). المؤكد أنه يعرف طبيعة العلاقات العِرْقِيَّة في المجتمع الذي يعيش فيه، سواء كان منتبهًا لها أو لم يكن. ولكن لماذا وُلتر جين؟ خطوة على طريق الاندماج أم لإثبات الجدارة؟ (كأن الإنسان في بدء الخليقة كان يحمل اسمًا أنجلو-ساكسونيًّا تأكيدًا لإنسانيته). سمّى الشاب الصينيّ النابه نفسه (أو سماه أبوه) وُلتر جين فلم تسقط المفارقة بل تأكّدت. شعرت بتعاطف كبير معه، وفهمت لماذا استشاط غضبًا عندما رفضت نصيحته. ربما ظن أنني لا أثق فيه. ربما تخيّل أن صغر سنه أو عرقه الآسيوي لهما علاقة بالأمر. قلت آلمته. ثم قلت كان عليه أن يفهم أن العِرْق خارج الموضوع، لأن نيوكِرْك أسمر، من الأفارقة الأمريكيين. استدركت: الأفارقة الأمريكيون تجذّروا في المكان، لا يشغل أبناء طبقتهم الوسطى أمر الغُربة، يتجاهلونها كأنها صفحة من الماضي انطوت، وإن أرّقتهم الشكوك يسقطونها: هذا زمن آخر والدليل أن رئيس أركان الجيش ووزيرة الخارجية كانا منا، ورئيس

الدولة الآن منا. أما المهاجرون وأبناء المهاجرين، والجرّاح الصينيّ منهم، فموضوع آخر.

بعد ثلاثة أيام عدت إلى الدكتور نيوكِرْك للحديث بشأن الجراحة. قال بوضوح إن هناك احتمالًا أن يصاب المخ بعطب يؤدي إلى جلطة أو سكتة قلبية أو شلل أو الوفاة. وقد يحدث نزيف، وقد نضطر إلى استئصال جزء من العصب (ذكر الاسم وإن لم ألتقطه)، أشار إلى جانب الوجه، مما قد يتسبب في ارتخاء في عضلات الوجه ويؤثر على المضغ والكلام. كان ثلاثتنا، مُريد وتميم وأنا، ننصت إليه. ربما تدرّبنا (أنا وتميم) أثناء الإعداد للجراحة الأولى على هذا الأسلوب الأمريكي في التنبيه على كل الاحتمالات، حتى غير المتوقّع منها. أتطلّع إلى وجه مُريد. أتمنى لو ينهي نيوكِرْك كلامه بعبارة ما، تفيد أن هذه احتمالات بعيدة والأرجح أنها لن تحدث، وإن كان عليه أن يُنبِّه لها تمامًا كما يُنبَّه قبل أي جراحة أن التخدير يمكن أن يسبب الوفاة. لم يفعل.

طلب منا أن نمر على السكرتيرة لتحديد موعد العملية. قالت السكرتيرة إنها ستتصل لإعلامنا به. بعد بضعة أيام، حدّدت لنا الموعد: في السابع عشر من فبراير. تفاوضت معها على تقديمه، فقدمته إلى التاسع من فبراير، قالت: ليس لدينا أي موعد سابق يمكن التوفيق فيه بين جداول الجرّاحين الثلاثة.

في الأيام العشرة التالية كان تميم، رغم البرد القارس، يُصِرُّ أن يأخذنا في جولات سياحية بالمدينة، إلى الكابيتول هِل، والبيت

الأبيض ومزارات لينكلون وجيفرسون والمسلة المصرية التي أرادها واشنطون، مؤسس المدينة، رمزا لمشروعه الماسوني. يشرح لنا بعض تفاصيل المكان. وكانت شروحات تميم المغرم بالتاريخ والآثار، شروحات ممتعة ومفيدة. يأخذنا إلى الناشيونال مول: الشارع الطويل الممتد بين مبنى الكابيتول والنصب التذكاري للينكولن. وهو شارع عريض تَحُفُّه من الجانبين مبانٍ ضخمة وقديمة فيها أهم متاحف المدينة. ذهبنا إلى متاحف مختلفة. قضينا نهارًا في بعضها، ولم نغادرها إلا في الخامسة مساءً عند إغلاق المتحف. تجوّلنا في بعضها الآخر ساعة أو ساعتين ثم قررنا المغادرة. أذكر أنني تلقيت مكالمات هاتفية من بعض صديقاتي وأنا في هذا المتحف أو ذاك. أقول همسًا: لحظة. ثم أخرج من قاعة العرض وأنتحي جانبًا من ممرّ وأشرح أنني في متحف كذا. شاهدت لوحات بديعة لديجا، في هذا المتحف مجموعة مدهشة من أعماله، قاعتان كاملتان مُفْرَدَتان للوحاته وبعض نماذج للباليرنات التي رسمها، مجسّمات كالتماثيل صنعها بيديه، وألبسها ملابس الراقصات وأخفافهن الحريرية. أو: أنا بخير، أشاهد الآن معرضًا خاصًّا برسوم الشاهنامة، منمنمات آسرة تصوِّر أحداث الشهنامة وشخصياتها. أو: أنا في حديقة النباتات، إنها حديقة صغيرة، ولكنها فذّة التنظيم، بها نباتات لم أر مثلها من قبل. أنطلق في الحديث بتلقائية، ثم أنتبه للمفارقة بين القلق البادي في الصوت رغم محاولة مداراته، وكلامي عن متحف ولوحة وزرع في معرض نباتات. لا أدري شيئًا عن أثر المفارقة على السائل في الجانب الآخر من خط الهاتف، أما أنا فأشعر بشيء من الحرج في

نهاية المكالمة أو بعدها مباشرة، حين أنتبه. ثم أتوقف، أعني أنني لا أفكر في الأمر، لأن التفكير فيه قد يفتح عليّ بابًا آخر أحاول أن أبقيه موصدًا، لا لأنني اخترت البلادة أو صرف النظر أو خداع النفس، بل لأنني وأنا محاصرة بين جراحة تمّت وجراحة على وشك، ومستقبل معلّق على احتمالات متفاوتة قد يكون الموت أبسطها، لا أملك سوى تسليم أمري إلى الله ومواصلة الحياة بعادية، لأنني لست من جنس الأرانب ولا الفئران، بل مخلوق آدمي طوَّر على مدى آلاف السنين شيئًا ثمينًا اسمه الكبرياء.

أغطي رأسي بقُبَّعَة صوفية أو منديل كبير يخفي الضماد المثبت على الجرح. وأخرج مع تميم ومُريد في تلك الجولات السياحية التي غالبًا ما تنتهي بالعشاء في مطعم. يعتبرنا تميم ضيوفًا، وهو كريم بطبعه، ومُضيف رفيع المستوى. يأخذنا في عطلة نهاية الأسبوع إلى مطعم برازيلي مرة، وتايلندي مرة، ومكسيكي مرة ثالثة. وفي كل مرة يُصِرُّ أنه الداعي، حتى صار الشجار بشأن دفع الفاتورة بندًا مقررًا آخر الوجبة.

أو يذهب تميم إلى جامعته ونبقى أنا ومُريد في البيت. نتابع الأخبار أو نقرأ، أو ننزل إلى محلٍّ قريب نشتري ما نحتاجه لإعداد الطعام. أقف في المطبخ، أعد وجبة عشاء نتشارك فيها عندما يعود تميم. نجلس إلى المائدة الزجاجية في المطبخ نأكل ونثرثر أو نستمع لما يحمله تميم من مستجدات في القسم أو أخبار نقلها له سين أو صاد من أصدقائه الأساتذة أو الطلاب في القسم.

وأحيانًا يتطلع تميم من الباب الزجاجيّ للشرفة، يصيح: أهه! نهرول إليه، فنرى عبر الزجاج وعلًا شجريَّ القرون يتحرك في الغابة التي لا يفصلها عنا سوى ساحة خلفية، تصطف فيها بعض السيارات، وشارع. نتابع الوعل وهو يتحرك ببطء بين الثلوج. يؤكد تميم أنها ثلاثة وعول، ننتظر آملين في رؤية الوعلين الآخرين، فنراهما أو لا نراهما.

في ليلة من تلك الليالي، سيزورنا العيد. سنحتفي به بصخب فنهلل ونثرثر ونضحك طويلًا على طريقة من يضحك أخيرًا. وتتحول الشقة الصغيرة المغتربة إلى ساحة مهرجان.

سقط بن علي.

في تلك الليلة على ما أذكر، أو ربما في الليلة التالية سأشاهد شريط الرجل الليلي في شارع الحبيب بورقيبة الذي أشرت له في أول الفصل. الوقت ليل والشارع شبه مهجور. يظهر رجل يرتدي ملابس رياضية، يصيح ممسوسًا كأنبياء العهد القديم رغم سيره في قلب العاصمة، لا في القفر أو الفلوات: «بن علي هرب. هرب الكلب. ما عدش نخافوا من حد. اتحررنا. (...) يا توانسة، يا توانسة يا مهاجرين، يا توانسة في الحجوزات، يا توانسة ياللي عذّبوكم. يا توانسة ياللي قهروكم، يا توانسة ياللي غبنوكم. اتنفسوا الحرية ما عدش خوف. المجرم هرب. (...) بن علي هرب. بن علي هرب من الشعب التونسي. السارق هرب. السفاح القاتل هرب. الشعب التونسي حر. المجد للشهداء. العظمة لتونس ...».

كنت أشاهد الشريط وأعود لمشاهدته مرة أخرى وثالثة ورابعة.

أغالب البكاء في كل مرة، وفي كل مرة عند نهاية الشريط حين أسمع أصوات النساء في الخلفية والتي لا يُظهر الشريط صورهن، أبكي، في الأول صوت امرأة تقول بالفرنسية: «Comme il est courageux»، (كم هو شجاع)، وفي الخلفية صوت نشيج امرأة ثانية. تجيب على الهاتف بالتونسية الدارجة ثم تقول لمن تحدّثه: إسمع. ثم فجأة تقطع النحيبَ زغرودةٌ من شرفة ما من الشرفات، تجاوبها زغرودةٌ أخرى، ثم تندلع الزغاريد.

الفصل السادس

مصر التي...

اختلفت توقّعاتنا بشأن مظاهرات اليوم التالي. مظاهرات محدودة العدد أم كبيرة تفوق المعتاد من أشكال التعبير عن الاعتراض؟ الشباب في مصر أسموا اليوم «يوم الغضب». وبعض المواقع أشارت إلى ثورة. وبدا غريبًا أنها ثورة أُعلن موعدها على الملأ ونُشر على المواقع الإلكترونية مسبقًا مع دعوة للناس للمشاركة. (سيحكي لي الدكتور جلال أمين لاحقًا أنه كان يوقّع كتابًا له في إحدى المكتبات، وسبق التوقيع كما جرت العادة، حوار مع المؤلف. فإذا بفتاة تطلب الكلمة وتسأل: هل ستشارك في الثورة غدا؟).

مُريد وتميم قَلِقان من آمال عريضة لا يتمخّض عنها سوى خروج بضعة آلاف. وأنا لا أدري. صادقةً لم أكن قادرة على توقّع أي شيء. ثورة؟ ممكن، بضعة آلاف ومواجهة مع الأمن؟ احتمال. بضع مئات تهتف لبعض الوقت ثم تنصرف لأن جموع الناس لم تضُم عليها

الصفوف؟ أمرٌ وارد. بدت لي كل الاحتمالات مفتوحة. والغريب أنني لم أتذكّر ما قالته لي سعاد ليلة سفري. ولو تذكّرت ما قالته لساعدني موقفها على ترجيح احتمال من الاحتمالات الثلاثة.

حين دخلت إلى فراشي ليلة ٢٤ يناير لم أكن أفكّر فيما يحدث غدًا بل فيما حدث في مثل ذلك اليوم قبل تسعة وخمسين عاما، ليصبح اليوم بعدها عيدا للشرطة: استشهاد رجال الشرطة المصريين في الإسماعيلية على يد قوات الاحتلال البريطاني يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢، ثم اندلاع مظاهرات عارمة في القاهرة في اليوم التالي، ردًّا على المجزرة، تطورت فيما بعد إلى ما سُمِّيَ بحريق القاهرة. لم أصدِّق أبدًا أن الحريق كان من تخطيط الإنجليز أو الملك، كما يقول العديد من المؤرخين، وكما شاع في الرواية المعتمدة للحدث. كنت موقنة أن الحريق ثورة شعبية حقيقية، تم احتواؤها بسرعة وبِسُبُل متعددة منها تقديم موعد قيام الضبّاط الأحرار لحركتهم التي عُرفت لاحقًا بثورة يولية ١٩٥٢. شغلني الأمر طويلًا، ورجعت لوثائق وشهادات أكّدت لي رأيي الذي عبّرت عنه في رواية لي صدرت عام (٢٠٠٣)، أسميتها «قطعة من أوروبا».

في فراشي، في شقة تميم الواقعة في شارع وِسْكونْسِن في واشنطون، استغرقني التفكير في الماضي، لأن المستقبل يشغلني وأشعر بعجز عن توقّع مجرياته. ولا أعني بالمستقبل هنا المستقبل البعيد أو المستقبل بعد بضعة أسابيع أو شهور، بل المستقبل الفوريّ الذي لا يفصلني عنه سوى نوم ليلة.

فرق التوقيت بين القاهرة وواشنطون سبع ساعات. عادة ما يستيقظ مُريد أولًا. في السادسة أو السابعة صباحًا يحتسي قهوته ويجلس إلى الكمبيوتر لقراءة الصحف في طبعاتها الإلكترونية ومتابعة الأخبار من مختلف المواقع.

وعادةً ما أستيقظ بعده، بساعة أو ساعتين أو ثلاث. وكذلك تميم الذي يحاضر بعد الظهر غالبًا لأن طلّابه من طلّاب الدراسات العليا، لا يستيقظ مبكرًا إلا لو كان لديه اجتماع في القسم أو مناقشة لبحث دارس من الدارسين.

حين غادرت فراشي، وجدت تميم مستيقظًا. كان يجلس بجوار أبيه، كلٌّ أمام كمبيوتره. صاحا في صوت واحد مُتَهَلِّل: حصل!

مظاهرات كبيرة في القاهرة والجيزة والسويس والإسماعيلية والإسكندرية والمنصورة وطنطا وأسوان. مئات الآلاف. المتظاهرون اخترقوا حاجز الأمن واحتلوا ميدان التحرير.

أغسل وجهي وأفرُك أسناني وأُعِدُّ لنفسي كوب قهوة وأشاركهم متابعة ما يحدث.

فاجأت مُريد وتميم بالعبارة التالية: لم أقرأ كلام سعاد كما يجب. نظرا إليّ باستغراب. قال مُريد: رضوى الله يخلّيك، كفّي عن هذه العادة. تُفَكِّرين في شيء ثم تكملينه بالكلام، كأننا كنا نتابع أوله وهو يدور في رأسك. ثم من هي سعاد؟ سعاد التي كانت تساعدنا في البيت قبل عامين ثم انتقلت إلى عمل آخر. ليلة سفري جاءت لتعزّيني وتعيد

لي مفتاح البيت الذي بقي معها حتى بعد أن توقّفت عن التردّد علينا. قالت لي وهي تحكي عن مظاهرات العامريّة في الهرم: الأقباط طلعوا أجدع منا، هاجموا مديرية الأمن وضربوا العساكر. كان يجب أن أنتبه أنه ما دام هذا هو الشعور في الأحياء الشعبية فإن دعوة الشباب إلى ثورة ستجد استجابة من الشارع.

في السادسة أو السابعة مساء بتوقيت واشنطون (أي بعد منتصف الليل بساعتين أو ثلاث في القاهرة)، سنتابع عبر الكمبيوتر تسجيلات لهجوم قوات الأمن على ميدان التحرير وضرب المتظاهرين بخراطيم الماء والغاز المُسَيِّل للدموع، وهتاف متظاهرين حول نار أشعلوها عند مدخل شارع القصر العيني من جهة الميدان، ليتدفئوا بها على الأرجح، وهم يهتفون: الشعب يريد إسقاط النظام. (سنعرف لاحقًا أن هؤلاء الشباب هم الألتراس، ولم أكن أعرف أي شيء عنهم من قبل، لأنني لا أتابع مباريات كرة القدم أو أخبارها).

أويت إلى فراشي بسؤال جديد. هل ينتهي الأمر بعد يوم أو يومين من الاحتجاج، على طريقة حريق القاهرة في ٢٦ يناير ٥٢ أو هبّة يناير ٧٧؟ لا بد من الانتظار للغد. ليلة أخرى من النوم المتقطّع. بعدها صباح الخير وكوب القهوة والأخبار. المظاهرات مستمرّة. هل هي فعلا ثورة؟ يا رب.

ستشكل الثورة بمجرياتها، وأسماء شهدائها، وردود فعل النظام عليها والمواقف الدولية منها، جدولنا اليومي منذ الخامس والعشرين من يناير حتى فجر التاسع من فبراير.

نتابع الأخبار عبر الكمبيوتر. والقنوات المتاحة: السي إن إن، فرانس ٢٤، نصف ساعة من السابعة إلى السابعة والنصف مساءً من إرسال الجزيرة باللغة الإنجليزية. ألا يمكننا يا تميم الاشتراك في كابل يتيح لنا متابعة القنوات العربية؟ حاولت يا أمي، اتضح أنه غير مسموح لي أن أضع طبق الإرسال في الشرفة لأنه، في قولهم، يشوّه شكل العمارة. نتصل بالأهل والأصدقاء فنعرف مزيدًا من التفاصيل. تميم يبدأ في كتابة قصيدة بالعامية المصرية يوم ٢٥ ليلًا، يكملها وينقِّحُها في اليوم التالي. ثم في اليوم الذي يليه؛ يوم الخميس ٢٧، يقرؤها على قناة الجزيرة مباشر من مكتبها في واشنطون. قبل أن يغادر البيت، قلت له: يا تميم احذف الأبيات الثلاثة التي تقول فيها: «واللي هايُقْعُد في بيتُه بعدها خاين/ إللي هايقعد كأنه سَلِّم التانيين/ للأمن بِإِدِيه وِقَالْ لُه هُمَّه ساكنين فين». صعب أن تدين الناس بهذه السهولة. رفض حذف الأبيات. اتجه إلى مكتب الجزيرة وقرأ القصيدة كما أراد.

الغريب أنني حين عدت إلى القاهرة علمت من أكثر من صديق وصديقة أن هذه الأبيات تحديدًا جعلتهم وجعلت آخرين من معارفهم يحسمون أمرهم وينزلون إلى الميدان. وكانت هذه المعلومة درسًا جديدًا يُنَبِّهُنِي أنني امرأة ستّينيّة، لا تملك بالضرورة حكمة شباب يشاركون في الثورة، بعضهم في سن أولادها وبعضهم الآخر يمكن أن يكون من أحفادها.

يقول تميم في مطلع قصيدته:

يا مصر هانتْ وبانتْ كلَّها كامْ يُومْ

نهارنَا نادِيْ ونَهار النَّدْلِ مُشْ بَاينْ

الدولة مَا فْضِلْشِ مِنْهَا إلا حَبَّة شُومْ

لو مُشْ مِصَدَّقْ تَعَالَ عَ الميْدَانْ عايِن

يا ناسْ مَا فِيشْ حَاكِم إلا من خيال محكوم

واللي هايُقْعُد في بيتُه بعدها خاين

ثم يقول في مقطع آخر:

نهارنا نادي وِبإدِينا على فِكرةْ

الصبح عنده فضول راح نعمِل إيه بُكْرَة

إيده على الباب وخايف يلمِسِ الأُكْرَة

أُدْخُل يا أُسْتَاذ بِراحْتَكْ وِالبَلَدْ حُرَّة

إحنا زِهِقْنا نِشُوفِ الصُّبحِ مِن بَرَّة

... ...

يبدو أن قصيدة تميم التي بثّتها قناة الجزيرة أذيعت عدة مرات على شاشات نُصبت في ميدان التحرير. وفي المكان نفسه، غنّاها مصطفى سعيد بعد أن قام بتلحينها. استمعنا للأغنية في برنامج للبي بي سي العربية، شاهدناه مسجّلًا على اليوتيوب. أعرف الشاب. الأرجح أنه

كان يزورني في مكتبي في الكليّة. أقول لتميم: آلف وجهه وإيقاع صوته، أعرفه جيدًا وعن قرب. لاحقًا سيقول لي مصطفى في حديثٍ تليفونيّ، إنني درَّست له عامين وإنه خرّيج من خرّيجي القسم. ذكّرني بوقائع معينة فتذكرت. ضحكت وضحك.

تأملت لقاء تميم ومصطفى فشعرت بما يصعب عليّ وصفه: ارتياح أو دهشة أو ثقة أو سكينة ضافية تشملها كلها. لاحقًا سأعيش هذه المشاعر مجددًا وأنا أستمع لقصيدة الشاعر الشاب مصطفى إبراهيم عن الشهيد:

فلان الفلاني اللي كان يومْها جنبي، ساعة لما بدءوا في ضرب الرصاص

فلان الفلاني اللي معرفش اسمُه، فدايمًا باقول يا ابن عمي وخلاص

فلان اللي ساب لي بقية سندويتشه، ساعة لما شافني باغنّي وجعان

(...)

فلان اللي غرقلي خلّ الكوفية وشالني ساعة لما جت طلقة فِيَّه

فلان اللي مات بتلزم له دِيّة من ابن الفلان اللي كَلّ لحمه حاف.

كانت القصيدة مسجّلة ومغناة في فيديو كليب اجتمعت فيه الموهبة في الشعر واللحن والغناء والإخراج. حين رأيت شريط الأغنية، دُهشت لأن محمد عنتر المُلَحِّن والذي كان يعزف على الناي، هو محمد عنتر الذي درَّست له سنتين أو ثلاثًا في قسم اللغة الإنجليزية (لديَّ ذاكرة بصرية أقوى من ذاكرتي السمعية، أتذكّر الوجه لسنين، وأنسى الاسم

بعد خمس دقائق). ثم دهشة جديدة حين علمت أن محمد عنتر شقيق مصطفى سعيد الأكبر.

درس آخر من دروس الثورة أتمثّل فيه حركة الزمن والأجيال وتبدّل الأدوار. درس بدأ بنوّارة نجم التي درَّست لها لعدة سنوات، مرورا بالأخوين الكفيفين مصطفى سعيد ومحمد عنتر، وليس انتهاء بسلمى سعيد التي درَّسْتُ لها أيضًا، لأن شباب وبنات من دفعات أحدث كانوا يشاركون في الثورة، سألتقي بهم بعد عودتي إلى مصر، في التحرير، وخارجه.

أتوقّف عند الفقرة السابقة وأفكّر في حذفها، أخشى أن يلتبس الأمر على القارئ ويظن أنني ألمّح بشكل أو بآخر لتلك الحُجَّة الممجوجة التي ينطق بها بعض من يقاربونني العمر حين يصرّحون أو يلمّحون أنهم المرجع والأصل الذي تفرّع عنه هؤلاء الشباب. ليس هذا ما أريد قوله. لا يشغلني موقعي من الإعراب في ثورة لم أخطِّط لها، ولم أشارك فيها بشكل مباشر بل غبت اضطرارًا عن كل نشاطاتها في شهورها الأربعة الأولى، وحين شاركت كانت المشاركة خافتة وهامشية لأنني لم أتعاف تماما من مرضي، ولأنني ستّينية، قدراتي على الكرّ والفرّ محدودة، ولأن أداتي الأجدى والأكثر نفعًا (أعني الكتابة)، بدت لي غير ممكنة، لأنني هيّابة، لا أثق في قدرتي على إضافة جديد من خلالها، والأهم أنني كنت أتوجّس من فكرة القفز أمام أولئك الشباب وإعاقتهم أو إرباكهم، وإن حسنت النوايا، برؤية قاصرة أو توجيهات تنتمي لجيل سابق وتجربة مغايرة. ما يشغلني هو تأمّل دفق الحياة من زمن إلى زمن،

ومن جيل إلى جيل تالٍ، يهدر بقانونه الخاص، ويكتسب صفاء وقوة كلما حرص على استقلاله.

حاولت الكتابة أكثر من مرة، وعلى الكبيوتر أكثر من مسودة لمقالات أتممتها أو بدأتها في تلك الفترة، ولم أكملها. أولها مقال بعنوان «مبارك يحرق مصر قبل أن يرحل» مكتوب يوم السبت التاسع والعشرين من يناير. ورغم الانتهاء من المقال ومراجعته، لم أرسله للنشر. بدأت مقالات أخرى لاحقًا. لم تكن أوفر حظًّا. بعد عام كامل، في أعقاب مذبحة استاد بور سعيد، كتبت عن الألتراس. لم أتمّ المقال.

نعم، كنت خائفة من الكتابة، أو خائفة من اكتشاف أنني غير قادرة عليها، أو ربما كان جسدي الأحدّ ذاكرةً من وعيي، مضطربًا ما زال من تلك المشارط التي راحت تُقَطِّع فيه من هنا وهناك، فبقي منكمشًا كحيوان مذعور، يتطلع بعينين واسعتين، لا يغادر الزاوية التي يقبع فيها. لست متأكدة من أيٍّ من هذه الاحتمالات. وربما ببساطة أنني لم أكن تعافيت جسديًّا بعد، وإن كانت قدراتي الذهنية على حالها، فكانت المقالات أضعف مما يقبل به عقلي الأكثر استيعابًا للحدث، باختصار أكتب ما لا يُرضيني، وما يُرضيني يفوق قدرتي على الكتابة في تلك اللحظة.

موعد الجراحة المؤجّل إلى التاسع من فبراير، بدا لي فجأةً من محاسن الأقدار والصُّدَف. بإمكاني متابعة ما يحدث في مصر وأنا في كامل لياقتي، أتابعه من بيتي الذي هو بيت تميم، لا من سرير في مستشفى، بجسدٍ معطوب ووعيٍ متقطع.

تميم يريد السفر إلى مصر. يُلِح. وعملك؟ سأعوّض الطلاب. وإن لم تقبل الإدارة؟ تقبل أو لا تقبل، سأترك الجامعة على أي حال في نهاية هذا العام الدراسي، يكفيني ثلاثة أعوام من هذه الغربة القاتلة. وأمك؟ سأعود قبل الجراحة ولو بساعات.

حاجته للتواجد في الميدان في كفّة، وكلامنا في الكفّة الثانية. الكفّة الأولى أرجح. ثم ذات صباح: ما رأيك يا ماما، نسافر إلى مصر معًا ونعود قبل التاسع من فبراير؟ دقيقة صمت ثم: تميم هل أذهب إلى مصر سياحة، أُلقي نظرةً على الثورة وأغادر؟ لو ذهبت سأبقى، وليكن ما يكون. وفي يوم تالٍ: ماما، بابا، اشتريت التذكرة. سأسافر.

لاحقا سأعرف من مريد وتميم أنه أجّل السفر بناء على رغبة أبيه. يحكي تميم: قال لي أبي: أرجوك، ابق. أجبته: ما عاش من يجعلك ترجو. حاضر، سأبقى. لم يَرُدّ تميم طلب أبيه. لم يسافر. لكنه كان غاضبًا. لم نكن بحاجة لتخمين مدى سخطه. يعلنه بين حين وآخر بعبارة مُكَرَّرَة: لن أنسى ذلك ما حييت. لا أدري إن كان هذا السخط يرجع أساسًا لأنه استكثر واستصعب أن يخذل أباه وهو يطلب العون منه، أم لأن موضوع السفر غدا جامعًا لكل منغّصاته ومخاوفه: مرض أمه، غربته ومنفاه وهما يتأكدان ببُعده عن حدث يَخُصّه ويشارك فيه كل أصحابه. حتى أصحابه العاملون خارج مصر كانوا خَلَّفوا أشغالهم وطاروا فعلًا لا مجازًا إلى ميدان التحرير.

عزة خليل، صديقتنا وابنة صديقَيْنا محسنة توفيق وأحمد خليل،

طبيبة تعيش مع أسرتها في الدانمارك منذ سنوات. أتواصل معها عبر مراسيل الإنترنت. أستشيرها وأستشير زوجها أكمل صفوت المتخصّص في أورام الأنسجة، في أوضاعي الصحية. تقول لي عزة: لا أستطيع النوم يا خالتي. أذهب إلى عملي مهدودة لأنني لم أنم. لعزة بنتان أكبرهما على وشك إتمام دراستها الثانوية، لكنها مؤرقة مثل تميم تريد أن تكون في الميدان. وفي يوم: لن أستطيع الاستمرار بهذا الشكل. طلبت إجازة من مديري في المستشفى. سأسافر غدا إلى القاهرة.

وصلت عزة إلى ميدان التحرير في الثاني من فبراير، والميدان مشتعل بمعركة الجمل. ستبقى عزة عشرة أيام في التحرير مسئولة عن المستشفى الميداني رقم ٦ القائم عند ميدان عبد المنعم رياض، أمام المتحف المصري. تمارس عملها كطبيبة وتشاهد تجاوزات الجيش من موقعها على أطراف الميدان. وفي يوم وجدتُ أحمد خليل والد عزة على مرسال الإنترنت وتحدّثنا. سألته عن عزة. قال: لم أرها، ذهبت من المطار إلى الميدان ثم بعد انتهاء إجازتها غادرت الميدان إلى المطار، لم تأت إلى البيت. ساعتها قلت لنفسي عزة أكبر من تميم بعشر سنوات أو أكثر، لم تستطع إلا أن تترك عملها وزوجها وبيتها وتسافر إلى مصر. قسونا على تميم. وربما لم نتمثّل عمق محنته لتواجده خارج مصر في تلك الأيام إلا حين كتب قصيدته «يا شعب مصر» والتي ترد في ختامها هذه الأبيات:

لَمَّا تِشُوفِ الشَّهِيدْ تِبْقَى السَّلامَةْ خَجَلْ

وِتِبْقَى عَايِزْ تِقُولْ لُه يَا أَخِي آسِفْ

طَبْ قُولْ لِيْ بَسِّ اعْمِلِ ايه، لَو يَعْنِي فِيهَا عَمَلْ

اللقْمَةْ دِي لَكْ نَصِيبْ فِيها بَاشِيلْهُولَكْ

وَاشِيلْ نَصِيبَكْ مِنِ القَعْدَةْ وْكَاسَاتِ الشَّايْ

لَكِنْ نَصِيبَكْ فِي أَنْفَاسِي أَشِيلُهْ ازَّاي

وِازَّاي أَشِيلْ لَكْ نَصِيبَكْ مِنْ فَرَحْنَا الجَايْ

سَاعَاتْ أَلاقِينِي بَاطْلُبْ خَطِّ مَحْمُولَكْ

بَاعْمِلْ فِيْ نَفْسِي كِدَه لِيه، لِسَّه مِشْ عَارِف

وَارُوحْ عَلَى القَهْوَة أَسْأَلْ: «هُوَّه جِه وِسَأَلْ؟»

مِنْ قَالْ لَكِ المُوتْ طَبِيعِي يِبْقَى مِشْ شَايِفْ

المُوتْ دَهْ شِيْء مِشْ طَبِيعِي المُوتْ دَهْ أَصْلُه خَلَلْ

الأَصْلِ فينا الخُلُودْ وِهَيِيجِي يُومْ نِلْقَاهْ

مَا تِحسِبُوش الشَّهِيدْ إِدَّاكو بَسِّ حَيَاةْ

مَا مَوِّتُوش هُوَّ وَحْدُهْ اللِيْ بْرصَاصَةْ رَمَاهْ

دَه طَخِّ إِبْنُهْ اللِيْ لِسَّة مَا اتْوَلَدْشِ مَعَاهْ

وِطَخِّ أَوْلادْ وِلادُه لآخِرِ الأَيَّامْ

مَوِّتْ مَعَاه بَشَرِيَّة كَامْلَة مُحْتَمَلَة

وِعِدُّوا كَانْ فِيها كَامْ شَاعِرْ وِكَامْ رَسَّامْ

وِكَامْ طَبِيبْ عَبْقَرِي بِينِ الأَطِبَّة إِمَامْ

وِفَيْلَسُوفْ لُهْ عَلَى حُكْمِ اللَّيالي كَلامْ

وِبِنْتِ نَظْرِتْهَا تِشْفِي القَلْبِ مِنْ دَاؤُه

فِيه شَعْبِ كَامِلْ رَحَلْ مَا عْرِفْشِ أَسْمَاؤُه

فِي جِسْمِ كُلِّ شَهِيدْ فِيه مَصْرِ مُكْتَمِلَة

فَخَلُّوا مَصْرِ اللي فَاضْلَة تْعِيشْ كَمَا شَاءُوا

بعد خروجي من المستشفى بثلاثة أسابيع حمل تميم قصيدته وسافر إلى القاهرة.

الفصل السابع

أحيانًا أشعر كطفل...

يقول مُريد إن أول ما نطقت به عندما أفقت من التخدير هو السؤال: ضربوا العيال؟ لا أذكر ذلك. لا أذكر متى أفقت، ولا متى أعادوني من غرفة العناية المُرَكَّزَة إلى مسرح العمليات لإجراء جراحة أخرى. لا أذكر، لأنني كنت في الفترة الفاصلة بين الما قبل والما بعد. ينتهي الـ«ما قبل» ظهر الأربعاء التاسع من فبراير حين تبعت الممرّضة مشيًا على قدميّ إلى قاعة التجهيز للعمليات، التي غادرتها بعد حوالي ساعة في ثوب معقّم، وفي وضع أفقي على سرير بعجل يدرج في الممرات، يدفعه عامل طبي قاصدًا مسرح العمليات. أدخله، وبعد دقيقة أو أقل، ينقطع الشريط. كأن أحدهم قصّه بمقصّ، تُظلم الدنيا أو تَبْيَض أو تتحول إلى لا شيء، صفحة فراغ بين الما قبل والما بعد، تنعدم فيها الدنيا لانعدام الوعي بها. وحتى عندما أفيق مستعيدةً السمع والبصر، وأستردُّ تدريجيًّا وعيي بالموجودات حولي وداخلي. لا تستقرّ الأمور مرة واحدة، بل تبقى لفترة متقطِّعة، كأنها تيار كهربائي مرتعش يحتاج تثبيتًا.

في تلك الفترة التي لا أعلم كم امتدت، أعني الفترة الأشبه بمصباح يرتعش ضوؤه، التقيت بميشيل. لن أذكر ما قبلها أو ما بعدها، ولكنني أذكرها: متوسطة العمر، سمراء، مليحة الوجه، وفي جسمها بعض امتلاء. أذكر شكل الأعواد الخشبية الدقيقة التي تنتهي بمكعبات صغيرة من إسفنج أخضر مبلل، ترفعها بين حين وآخر وتمر بها على شفتيّ لترطبهما. طلبت منها أن تسمح لي أن أضع الإسفنجة في فمي. لم أتوقع أن تسمح لي لأنني أعرف أنهم لا يسمحون بشرب أي قدر من الماء بعد الجراحة مباشرة. سمحت. ساعتها سألتها إن كانت تعرف تلك الأغنية الشعبية الجماعية السوداء:

Sometimes I feel like a motherless child

A long ways from home

Sometimes I feel like I'm almost gone

A long ways from home

(أحيانًا أشعر كطفلٍ لا أمّ له، بعيدًا جدًّا عن بيتي/ أحيانًا أشعر كأنني ذهبت، بعيدًا جدًّا عن بيتي). بعدها لم أعد أذكر أي شيء. لا كم من الوقت بقيت في رعاية ميشيل، في العناية المُرَكَّزَة، ولا متى أتى الأطباء مهرولين لأن هناك مشكلة تستدعي إجراء جراحة جديدة، ولا متى غادر مُريد وتميم إلى البيت ليلًا أو متى عادا بعد بضع ساعات مفزوعَيْن، ولا وقفتهما وهما يتابعان السرير الذي يحملني مجدّدًا إلى مسرح العمليات.

إذن لن يعود التيار إلا حين نصبح في الما بعد. أعني مساء الخميس العاشر من فبراير. سأنتبه أنني على سريرٍ ما يدرج في مكان ما. سأرى وجه مُريد. سأرى وجه تميم. لن أعي مدى شحوب وجهيهما، لن أستوعب ما يقولان، أو ربما استوعبت ولم أعد أذكر. ثم أنتبه أنني مستقرّة على سرير في غرفة ما (سأقضي فيها الليلتين التاليتين). أذكر وجود شخص سيُعرِّف نفسه بأنه بول، وأنه سيقوم برعايتي. طويل، أقرب للنحول، شعره أشيب، يُعَلِّقُ في خاصرته كومة كبيرة من المفاتيح، تُضفي عليه أهميّة. وربما كانت مشيته وحركته هي التي تعطي هذا الانطباع. أتمنى شيئًا واحدًا: أن تؤجل العملية الثالثة (أو الرابعة إن حسبنا جراحة السابع عشر من ديسمبر) إلى يوم الأحد بدلًا من السبت، أملًا في فسحة يوم إضافي، يوم واحد.

أُجريت لي جراحتان في يومين متعاقبين، استغرقت كل منهما ما بين تسع وعشر ساعات. في الأولى أتم وُلتر جين مهمته بسلام فاستأصل المطلوب استئصاله من عظم الجمجمة، وجزء من الأم الجافية (وهو غشاء من أغشية المخ الثلاثة). واستأصل نيوكِرْك المطلوب استئصاله من أنسجة مصابة وهوامش إضافية. أما الجرّاح الثالث وهو جرّاح التجميل، فكان عليه إغلاق الرأس بعد تأمينه بالضروري من الأنسجة المستأصلة من مكان آخر من الجسم.

يقول مُريد إنه غادر المستشفى مع تميم بعد أن أفقت من التخدير عقب تلك الجراحة، كانت الساعة تقارب منتصف الليل. في الخامسة فجرًا اتصلوا بهم من المستشفى وأعلموهم أن الجراحة فشلت

وأنهم سيُجرون لي جراحة أخرى. في المستشفى، سَمِعَا من الأطباء التفاصيل ووافقا على إجراء العملية. بعدها نُقلتُ من العناية المُرَكَّزَة إلى مسرح العمليات. لا أذكر شيئًا من ذلك. ولن أعرف إلا لاحقًا بأمر الارتباك العظيم الذي أصاب مُريد وتميم والجرّاح وفريقه، بعد مغادرتي غرفة العمليات، لأن هذه الجراحة فشلت كسابقتها. توقف تدفّق الدم في الأنسجة المنقولة إلى الرأس، مما يعني موت تلك الأنسجة فيبقى الجزء الذي تم فتحه واستئصال ما استؤصل من لحمه وعظمه مكشوفًا، أي يصبح المخ ذاته بلا غطاء يحميه ويؤمِّنُه.

أنام وأصحو. يأتي أطباء ومساعدو أطباء وممرّضون، يسألون أو يفحصون أو يعطونني أدوية ما أو حقنًا. لا بد أن بعضها مسكنٌ قويّ. لا أشعر بالألم. وربما مشاعري مخدّرة. عندما قال لي مُريد أو تميم بصخب نسبيّ: مبروك، مبارك سقط، عمر سليمان أعلن الآن أن مبارك تنحّى عن الحكم، الملايين ترقص وتُهَلِّل في الشوارع، مصر في عيد، لم يكن في قدرتي لا القفز من السرير ولا التهليل ولا الضحك، ولا حتى المشاركة بالكلام. ابتسمت.

كنت محظوظة. تحقق دعائي. لم أرجع إلى مسرح العمليات إلا يوم الأحد. حملني السرير الدرّاج من غرفتي بالمستشفى إلى غرفة التجهيز للعمليات، لا أظنها الغرفة نفسها التي ذهبتُ إليها ثلاث مرات من قبل. أجلسوني على سرير ضخم نصف مرفوع. لم أشهد مرضى سواي في القاعة، رغم اتساعها (ربما لأنه يوم أحد، وجرت العادة ألا تُجرى فيه جراحات). لم أر إلا عددًا قليلًا من الأطباء

ومساعديهم وممرّضين في معاطفهم البيضاء. أتطلّع إليهم. أراقب حركتهم. لا أدري إن كنت قلقة أو خائفة أو واهنة أو أشعر بشيء، أي شيء. فقط عينان تراقبان وجسد ينتظر. أعطوني حقنًا. لا أذكر دخولي إلى مسرح العمليات. لا أذكر وجه الجرّاح الإسكتلندي الذي أجرى لي الجراحة. لا بد أنه جاء حسب التقاليد المرعيّة، ليسلم عليّ قبل العمليّة. لكنني لا أذكره.

هذا الجرّاح الإسكتلندي الذي لجأوا إليه حين فشلت محاولتان لزرع نسيج في رأسي، قال لمُريد وهو يضحك: زميلي الشاب (يعني جراح التجميل الذي لم يوفّق في الجراحتين السابقتين) قام بهذا النوع من العمليات مائة مرة فقط،، أما أنا فأجريتها ما يزيد على ستمائة مرة. لا أعرف إن كان يمزح في محاولة لطمأنة زوج السيدة المُهَدَّدة حياتها، أم كان جادًّا. وصل الجراح الإسكتلندي صباح يوم العملية والتقي بمُريد وتميم. بدا بشوش الوجه ونبههما وهو يضحك إلى قبّعته الصغيرة الأقرب إلى طاقية ارتداها خصيصًا للمناسبة، وكان عليها رسوم فرعونية.

للمرة الثالثة خلال خمسة أيام، كان على مُريد وتميم أن يعيشا ذات التفاصيل. يجلسا معًا في غرفة الانتظار في الطابق الأول بمبنى السي سي سي (وهو اختصار لاسم مركز العناية المُكَثّفة). بعد ساعتين، ثم كل ساعة بعدهما، يأتي ممرّض أو ممرّضة ما لطمأنتهما على الوضع: المريضة على ما يرام. الجراحة مستمرة. بعد تسع ساعات أعلموهما أن الجراحة تمت بنجاح. نقلوا السيدة المهدّدة حياتها؛ رضوى بنت مية ومصطفى، التي لفّوا رسغها كما في كل الجراحات السابقة،

بشريط كتب عليه اسمها وتاريخ ميلادها، إلى غرفة العناية المُرَكَّزَة.

أذكر القاعة. أذكر بابًا ما إلى يساري، وبجواره نافذة زجاجية عريضة تفصلني عن قاعة أخرى شبه خاوية، يمر بها بعض الممرّضين أحيانًا. أذكر سيدة متقدمة في السن شديدة العناية بزينتها وملبسها وشعرها، يهتز كتفاها وجذعها خفيفًا يمنةً ويسرة، مع وقع خطواتها. أعتقد أنها مسئولة إدارية عن المكان. اسمها جولي أندروز. ولأن الاسم لممثلة شهيرة، لم أنس الاسم. أذكر ممرّضة شابة شعرها أشقر، وطبيبة تقاربها العمر، شعرها أسود طويل تتركه مرسلًا حتى نصف ظهرها بشكل غير مألوف في مستشفى. أذكرهما بوضوح لأنهما شاركتا في مشهد روّعني، استجبت له بصياح هِستيريّ. الغريب أو الطريف أو المضحك أن الأمر كان يتعلق بحقنة. (عادة ما تكون محاولة إدخال إبرة لسحب الدم مني، أو لإعطائي حقنَة في الوريد أو تركيب كانولا أمرًا صعبًا بسبب دقة العروق التي تختفي أو «تهرب» كما يقولون. تفشل المحاولة لغرس الإبرة في وريد بباطن المرفق، فيعاودون الكَرّة فتفشل، فيلجأون لأحد الأوردة في الرسغ أو في ظاهر اليد. وأحيانًا تكون الممرّضة شديدة المهارة فتفلح بطريقة ما في التقاط العرق بسهولة. وقد يكون الممرّض ذا خبرة فيستهين بكلامي ويبتسم باستخفاف مستتر، فيغرس الإبرة، مرة ومرتين ولا ينجح إلا في المرة الثالثة أو الرابعة. (أذكر ممرّضة في بودابست أدخلت الإبرة في المكان الخطأ وبحثت على ما يبدو عن العرق بالإبرة، فخلّفت المحاولة بقعًا زرقاء داكنة في ذراعي لم تزُل إلا بعد أسبوع أو أسبوعين). نعود إلى العناية المُرَكَّزَة في مستشفى جورجتاون. أرادوا إعطائي هذه الحقنة أو سحب دم للتحليل. كنت منهكة غير قادرة

على تحمّل المزيد من أي شيء. قلت بأدب: لو سمحتم هناك ممرّضة اسمها سوبوندو شديدة المهارة. عندما كنت في الطابق العلوي قبل العملية، كانت تتمكن بسهولة شديدة من إعطائي كافة الحقن بلا أي ألم. ربما، والله أعلم، استفزّهما كلامي لأنني أفضّل ممرّضة عادية على ممرّضات العناية المُرَكَّزَة الأعلى رتبة على ما يبدو. أصرّتا. قلت أريد التحدث مع زوجي وابني، إنهما يقفان خارج القاعة. قالتا: ليسا هناك (وكانا هناك). وفجأة انقضت المرأتان عليّ وقد قررتا أن تغرسا الكانولا عنوةً. قربتا وجهيهما مني بشكل مفزع وبدت لي ابتسامتاهما المستخفتان ولمعة عيونهما شيطانية، كأنهما على وشك افتراسي. أعرف الآن أن السخط لا الخوف هو الذي حكم استجابتي لأنني لمحت في عيونهما ما اعتقدت أنه نظرة تهكّم لا ترى فيَّ إلا مريضة مُسِنَّة مذعورة أو امرأة خرفة لا بد من التعامل معها بصرامة. بدأت أصيح وأقاومهما وأطالب بحضور زوجي وابني. لم أفكّر ساعتها في عبارة سعد الله ونّوس صديقي الكاتب المسرحي السوري الذي رحل قبل سنوات، في كتابه الجميل عن مرضه، ولكنني كلما استعدت المشهد حضر ونّوس وكلامه: المرض يكسر الكبرياء، وهذا أقسى ما فيه. بعدها قلت إنني لا أريد الممرّضة الشابة التي كانت مسئولة عني. لبّوا لي الطلب. تمرّ بي أحيانًا عابسة الوجه، تقصد ألا تطلّع نحوي. تعاقبني على الأرجح أنني عبت في ذاتها الملكية.

المشهد الكابوسي الآخر عاشه مُريد وتميم ونقلاه لي لأنني لا أذكره. كنت في العناية المُرَكَّزَة بعد هذه الجراحة الأخيرة، حين اتصلوا بالجرّاح الشاب وأخبروه أن الدم توقّف عن التدفّق في الأنسجة المزروعة في

الرأس. جاء الجرّاح مهرولًا. أوصل الدوبلر (جهاز التقاط وقياس تدفّق الدم) برأسي. لم يسمع شيئًا. يكرر: مستحيل! فجأة هداه عقله إلى إيصال الجهاز برسغه، ثم ألقى به بعيدًا وهو يصيح: أعطوني جهازا آخر.

كان الجهاز الأول معطوبًا.

أغادر العناية المركّزة إلى غرفة في طابق علوي ما من طوابق المستشفى. أنام كثيرًا ولا أحصل على أي قدر من النوم. يقيسون لي تدفّق الدم في الرأس كل ربع ساعة، ثم بعدها كل نصف ساعة، ثم كل ساعة على مدى ساعات اليوم الأربع والعشرين. تميم يمضي الليل على مقعد بجواري. أفتح عينيّ فأراه يقرأ على لوحه الإلكتروني. أقول: أهلًا يا تميم. أغمض عينيّ. تدخل ممرّضة لقياس تدفّق الدم. تغادر. ماذا تقرأ يا تميم؟ أغفو. ممرّضة أخرى تعطيني دواءً ما أو تحقن حقنةً ما في الكانولا. في الخامسة أو السادسة صباحًا، يأتي مُريد ويذهب تميم إلى البيت ليحصل على قسط من النوم قبل الذهاب إلى عمله. يعطي محاضراته ويعود إلينا. في المساء ينزل هو وأبوه لتناول وجبة سريعة في «الإبيكيوريان»؛ مطعم الجامعة المقابل للمستشفى. ثم يذهب مُريد إلى البيت، ويبقى تميم معي، هكذا طوال أسبوعين.

قبل مغادرتي المستشفى بيومين سألتني الممرّضة المسئولة إن كنت بحاجة إلى إعادة تأهيل. لم أفهم. شرحَتْ: تنتقلين إلى مكان آخر، حيث يدرّبك مختصون على المشي والحركة والتعامل النفسي مع وضعك الصحي. ابتسمت: لا أعتقد أنني بحاجة لذلك، شكرًا. لم أقل لها أنني في النهاية بنت العالم الثالث، ندبّر أمورنا ما إن نخرج من

المستشفى. قالت الممرّضة: سنرى على أي حال. سنسمح لك بالمشي في الممرّ الدائريّ حول الغرف ومكتب الممرّضات، مستعينة بالمشاية. ربما لن تستطيعي أن تقطعيه كاملًا من أول مرة. قطعتُه من أول مرة، لا لأن مغادرة المستشفى كانت حافزًا قويًّا فحسب، بل لأن رضوى العنيدة المستعفية (التي تَرَبَّت بين ثلاثة أولاد هم إخوتها وتعودت أن تُراهنهم أنها أكثر قدرة على التحمل منهم حتى لو كاد ينكسر رسغها في اللعبة أو المغالبة، دون أن تقول آه). أقول: كانت رضوى عادت كاملة لطبعها وميلها التلقائي إلى المُكابرة.

غادرتُ المستشفى بعد اثني عشر يومًا من دخولها. َصحِبتنا منى البيومي في سيارتها إلى البيت. عندما وصلنا، وجدتها تُحمِّل مُريد وتميم صواني وصحونًا. كانت أعدّت الزيارة التقليدية من المأكل والمشرب الوفير.

حمد الله على السلامة.

الفصل الثامن

استراحة

أجهدتُ القارئ والقارئة، وأثقلت عليهما، وهناك احتمال أن يتركا الكتاب وينصرفا عنه لأن الراشدين لا يسعون إلى النكد، ولا يدفعون من جيوبهم مالًا لشراء همٍّ مُصَفًّى يُبكيهم ويوجع قلوبهم. وهو ما يذكِّرني بحكاية حكتها لي الدكتورة لطيفة الزيات رحمها الله، عن زيارة لمسرح يوسف وهبي لدمياط، وهي مسقط رأسها. وقف يوسف وهبي على خشبة المسرح يؤدي نصًّا تراجيديًّا بصوته الجهوريّ وأدائه الخطابيّ الشائع في زمانه. بجواره وقفت أمينة رزق تبكي وتُبكي المتفرّجين. فجأة صاح من بين الصفوف رجل: «كفاية بقى يا يوسف بيه، كفاية، اللي فينا مكفّينا يا يوسف بيه، عاوزين حاجة من شكوكو».

باختصار أريد أن أعطي القراء استراحة من النكد. وهو أسلوب عرّفونا به في درس المسرح أيام الصبا، ويُسمّى comic relief

(يمكن ترجمة المصطلح الإنجليزي بالفاصل الهزلي). وقد يكون هذا الفاصل مقطعًا قصيرًا أو طويلًا في التراجيديات تحديدًا، وظيفته تخفيف التوتّر وتهدئة شدة الانفعال، وتعزيز العنصر المأساويّ بتقديم نقيضه.

في جامعة القاهرة في الستينيّات، شرح لنا أستاذ مادة المسرح هذا الأسلوب في سياق قراءتنا لمسرحية «ماكبث» لشكسبير. في المسرحية قتل، وساحرات لهن قدورٌ كبيرة يطهين فيها خليطًا منفِّرًا ويخيف، وفيها خنجر يلوح مضيئًا فيمهّد الطريق أمام ماكبث ليحقق طموحه في التخلّص من الملك. وفيها شعور بالذنب تصفه المسرحية بأنه يلوِّث اليدين بأحمر يصبغ المحيطات بلونه القاني، وفيها امرأة تنتحر وغابة تتقدّم أشجارها، وجيوش تتقاتل ورعود وبروق وطبيعة غاضبة. ولأن كاتب المسرحية وجمهورها، الجالس منهم على الدكك الخشبية المتدرجة، والواقف (لأنه اشترى تذكرة أرخص) حول خشبة المسرح الأشبه بالحدوة، يؤمنون بحق الملوك الإلهيّ في الحكم، فإن قتل الملك (وهو محور المسرحية) يؤدي إلى اختلال في نظام الكون، وفي سلّم التراتب الكونيّ والاجتماعيّ معًا، ولا تستقيم الدنيا ولا تهدأ الطبيعة إلا بعودة الوريث الشرعيّ إلى العرش. وسط هذا الهول، يظهر بوّاب مخمور في فاصل كوميديّ، يسمح للمتفرجين بالتقاط أنفاسهم والضحك والانتقال من الشِّعْر المخلِّق في أجواء بطولة الحكّام وشهواتهم وصراعاتهم إلى أرض النثر، والكلام السوقيّ الذي لا يخلو من غلظة أو بذاءة.

للأسف لا يوجد في جعبتي بوّاب سكّير، لأن عم عبده بوّاب عمارتنا الذي توفاه الله قبل عدة أشهر، كان رجلًا صعيديًّا له هيبة، يَهْدرُ صوته مخترقًا طوابق العمارة الستة: «اقفل الباب» (تتحول القاف في عبارته إلى جيم مصرية، كعادة أهل صعيد مصر، ويطول حرف المدّ في كلمة «الباب» كأنما تضمن بطولها الوصول إلى الطابق السادس (لأن أحدهم خلّف باب المصعد مفتوحًا، وترك راغبًا ما في الصعود ينتظر). وعم عبده على عكس بوّاب ماكبث، شديد الانتباه لمهام عمله، وهو بعد عقود طويلة من العمل في العمارة، يواصل استخدام مصطلحات ما قبل ثورة يولية فيشير إلى «البريمو» و«السكوندو»، قاصدًا بالأول السلم الرخامي للعمارة الذي يستخدمه السكان، وبالثاني الدرج الضيق الملتف المؤدي إلى أبواب المطابخ. أقول بعد سنوات طويلة من عمله، تجاوزت الأربعين، راكم عم عبده معرفة دقيقة بكل شبر من الشارع فبقي قادرًا، حتى بعد أن شحب نور عينيه وصار يتعرّف على الناس من خلال أصواتهم، أن يوجِّه سكّان العمارة وهم يصفّون سياراتهم: ارجع لورا. حضّن شوية. اكسر شمال وارجع تاني. حاسب حاتخبط في الرصيف. اكسر يمين واطلع لقدّام وارجع تاني. تمام، وقّف. يقوم بذلك بسهولة لأنه وإن لم يعد يرى تفاصيل الشارع، فهو يعرفه كأنه كفّ يده. وأخيرًا، لا تجوز المقارنة لأن عم عبده لم يكن شخصية مضحكة أو مثيرة للتهكّم، بل كان كما سبق أن قلت، صاحب هيبة وحضور، يُخشى جانبه، لأن صوته العالي المؤنِّب، يجرِّس الشخص المقصود، في الشارع وفي الشقق، حتى لو كان سكّانها يغلقون النوافذ والأبواب.

هنا يا قرائي الأعزاء، تنتهي المقارنة بخلاصة واضحة: ليس بإمكاني مجاراة الفصل الكوميدي الأبرز في تاريخ المسرح، وعليّ أن أبحث لي عن سبيل آخر أخفّف به الكرب عنكم، وأعوِّضكم خيرًا عن ما حمّلته لكم من همٍّ وغمّ.

فكّرت في بديل آخر: أن أكتب مشهدًا أو ربما مشاهد من المستشفى بدت لي طريفة وظريفة أو مثيرة للضحك. ثم عدلت عن الفكرة، لأنه لا داعي للبقاء في أجواء المستشفيات، ما دمنا سنعود لها في الفصل التالي، خاصة وأنها تصيب البعض بحساسية من رائحة المُطَهِّرات في ممرّاتها التي تتراوح بين روائح فجة لمُنَظِّف رخيص، أشك أنه مخلوط بالجاز، وروائح ألطف، وإن بقيت تستحضر لنا ذكريات مؤلمة أو في أحسن الأحوال، مُزعجة.

ولا بد من الإشارة هنا، لدواعي الدقّة التاريخية، أن جعبتي، على غير حالة بوّاب «ماكبث»، لا تخلو من أحاديث عن المستشفيات، إذ ما إن أقيم في بلد حتى يحالفني الحظ فأدخل مستشفى من مستشفياته لأعالج فيه لليالٍ معدودة أو لبضعة أسابيع. وبإمكاني أن أكتب دراسة مقارنة غير متخصّصة أعنونها بـ«حال المستشفيات في ثلاث قارات» والمقصود إفريقيا ونموذجها مصر، وأمريكا التي لا تقتصر خبرتي بمستشفياتها على جورجتاون في واشنطون، بل تمتد إلى أمهرست في غرب ولاية ماساشوستس، حيث كنت أدرُس للدكتوراه. ولم أر من اللائق أن أقيم فيها ما يقرب من عامين دون التردد على المستشفى والإقامة بضعة أيام فيه. أما القارة الثالثة كما يتوقّع القارئ ويستبق،

فهي أوروبا ونموذجها على غير توقّعه، هو المجر المشرفة على الدانوب والتي عمل فيها مُريد لسنوات. فترددت على العديد من مستشفياتها ونزلت في إحداها أسبوعين على ما أذكر، أعقبهما مباشرة حوالي شهر ونصف في مستشفى آخر بدا لي فيه مجرّد التطلّع إلى زملائي المرضى أنني على الحافة وأوشك على الرحيل. (كانوا جميعا مسنّين لهم وجوه متغضِّنة وأجسام نحيلة إلى حد الهزال. يرتدي الرجال منهم بيجامات مخطّطة تذكِّرني بمعتقلي معسكرات التعذيب أثناء الحرب العالمية الثانية). ولما كنت في مطلع الثلاثين من عمري، فقد هربت منهم إلى شجر البلّوط الكثيف الذي يحيط بمبنى المستشفى. وكان الطبيب يسمح لي بالحركة بعض الوقت خارج غرفتي. بعدها أنسحب إلى غرفتي وأتحصّن فيها، أتابع أخبار مصر من راديو أسود كبير حمله لي مُريد.

لن ألجأ إذن لهذا البديل بل أحاول يا قرّائي الكرام ألا أعود لكلام مفصّل عن المستشفى إلا في فصل أو فصلين ثم أنقطع عن ذلك، إلا لو جدّ جديد.

انتهت الاستراحة.

الفصل التاسع

معجزة دافنشي

لا بد لي أن أعترف أن الجرّاح الإسكتلندي، الدكتور ستيفن دافيسون، والذي استُدعي خصيصًا لإيجاد حل للمعضلة التي استعصت على زميله الشاب في جراحتين متعاقبتين، أتى بما يشبه المعجزة، شهد لها صديقنا الدكتور أسامة سليمان صاحب الخبرة الممتدة والمشهود له بالامتياز في مجاله، حين فحصني بعد عودتي إلى القاهرة. فلم تسعفه سوى عبارة «باسم الله ما شاء الله». والحق أن دافيسون الذي يمزح ويقرر أن يرتدي طاقية برسوم فرعونية لتناسب مقام إصلاح رأس السيدة المصرية، كان يجمع بين مهارة الجرّاح وإبداع الفنان. سيتأكد لي ذلك يوم زرناه في عيادته بعد الجراحة بحوالي شهر. اسم العيادة «دافنشي». أي والله هذا هو اسمها. شقة صغيرة أنيقة: مقاعد وأريكة كلاسيكية الطراز، موائد خشبية صغيرة على كل منها صحنٌ صغيرٌ من الكريستال فيه بونبوني لإكرام الزوار من المرضى، وفي مدخل العيادة، إلى يمين الداخل، أربع لوحات

متطابقة، اثنتان متجاورتان واثنتان تحتهما لرأس امرأة مرسومة على خلفية أخضر مُحَيِّر أقرب للفستقي. الصور الأربع مُستنسخات لتفصيلة واحدة من لوحة لليوناردو دافنشي، أعتقد أنها السكابيجلياتا؛ أي المرأة شعثاء الشعر، لا لأن شعرها مشعث بل لأنه متروك على طبيعته مُتَمَوِّجًا ومُتَطَايِرًا، لا يخضع للأسلوب الشائع في تصفيف الشعر في ذلك الزمان (رسم دافنشي لوحته سنة ١٥٠٨).

لو كان صاحب دافنشي كشف لنا مُسْبَقًا عن خطته التفصيلية للتعامل مع رأسي لركبنا الفزع وتلبّستنا الهواجس، إذ تبدو الفكرة (لغير المختصّ على الأقل)، جنونًا محضًا. ولكن الرجل جاء بطاقية برسوم فرعونية وقال بثقة: نعم، أمامنا مشكلة، ولكننا سنجد لها حلًّا، قد نأخذ الأنسجة التي نحتاجها للرقعة من البطن أو من الظهر، ولم يزد، فأحسن فعلًا.

في داخل مسرح العمليات، في غيابي (لأنني مُخَدَّرة، لا أعي شيئًا) وغياب زوجي وابني، لأنه غير مسموح لهما إلا بالانتظار في القاعة المخصّصة للأهالي أثناء إجراء العمليات لذويهم، قام الدكتور ستيفن دافيسون بنقل عضلة من الظهر، العضلة الواقعة تحت الإبط والمعروفة باللاتِيسمُوس دُورساي إلى الرأس، وحوّل معها مجرى الشريان الذي يغذّيها، بعد أن أمّن الرأس بعظم نشره من الضلع السابع، جسر به الفراغ المتخلّف عن العظم المستأصل في جراحة يوم الأربعاء. بعدها ترك للجرّاح الشاب الذي عاونه في الجراحة، إغلاق الرأس برقعة مُرَبَّعَة من الجلد اقتطعها من أعلى الفخذ الأيمن.

إذن نحن نتحدث وبصرف النظر عن كون هذه الأمور الجَلَل تمّت في جسم العبدة الفقيرة إلى الله، كاتبة هذه السطور، عن معجزة من نوع ما، تمزج الجراحة بالخيال، وتجمع بين حرفة الجرّاح وجرأة المخترع وإبداع النحات. وكلما تأمّلت الأمر قلت: والعبقرية الأكبر اسم عيادته، لأن دافنشي وحده هو الذي يجمع بين العلوم والفنون بهذا الشكل. يبقى أن أتساءل إن كان دافنشي فكهًا سريع البديهة كدافيسون الذي أجاب على سؤال مريد: وماذا عن قدرتها مستقبلًا على تحريك ذراعها اليمنى؟ أجابه وهو يبتسم: قد يتعذّر عليها لعب كرة التنس بيدها اليسرى وهي متعلقة بيدها اليمنى بفرع شجرة. ربما لن يتعذر ذلك، لكنه يكون صعبًا بعض الشيء!

* * *

في الشهر التالي للجراحات الثلاث المتعاقبة وعودتي إلى البيت، كنت أتردد على الدكتور نيوكِرْك ودكتور التجميل الشاب في المستشفى، للغيار على الجروح أو استشارتهما أو إجراء تحاليل وفحوص يطلبانها. وكان الغيار على أعلى الفخذ هو الأكثر إيلامًا، ربما لأن الضماد كان يلتصق باللحم المنزوع جلده أو جزء من جلده. وأذكر ذات مرة أن الطبيب قال لي إن بإمكاني أن أقوم بهذا الغيار، وتعثر الأمر فقامت الدكتورة جيجي البيومي صديقتنا وابنة صديقينا الدكتور أشرف البيومي والدكتورة سهير مرسي بعمل ذلك، ورغم أن الأمر لا يقع في مجال اختصاصها، قامت صديقتنا بالمهمة باقتدار. رقدتُ على السرير ومالت جيجي على الجرح وراحت

تنزع الغيار بحرص شديد حتى لا تؤلمني، وهي تتمتم: بسم الله الرحمن الرحيم. وحين أراد الجرّاح رفع الضماد نهائيًّا، اضطر أن يعطيني عدة إبر مُخَدِّرة. ولكنني إجمالًا كنت بحالة طيّبة. ولما نبَّهني الدكتور نيوكِرْك: ستمر عليكِ لحظات تبتئسين فيها، ولكنها ستمرّ، عملت بنصيحة بديع خيري وسيد درويش في أغنيتهما الشهيرة عن الحمّالين والتي يقول مطلعها:

شِدّ الحزام على وِسْطَك غيرُه ما يفيدك

لا بد من يوم بَرْضُه ويعدِّلها سيدَك

إن كان شِيل الحمول على ضهرك يِكيدك

أَهْوَن عليك يا حرّ من مَدِّة إيدَك

ولن يفوتكِ يا عزيزتي القارئة أن «مَدِّة إيدَك» التي تعني طلب العون المالي من الآخرين في الأغنية، تتحول هنا إلى معنى آخر يشير إلى طلب العَوْنِ المعنويّ، وإن اجتمع المعنيان في الإشارة الضمنية إلى فعلٍ يكسر الكبرياء. باختصار قررتُ أن أغالب البؤس بتجاهله، وأمضي بالحمول بهدوء واتّزان كأنها حمول من ريش. ولما جاءت أهداف سويف إلى واشنطون لحضور الأسبوع الهندي في مركز كنيدي وزارتني، اطمأنت على وضعي، لأنها رغم العمامة البيضاء على رأسي، وجدتني بخير. جلسنا وتحدّثنا وسمعت منها تفصيلًا ما جرى لها يوم فاجأها الدخان الكثيف على كوبري قصر النيل وهي برفقة ابنتَي أخيها، وكيف تمكنّ من الوصول إلى التحرير لا عن طريق

الكوبري بل بالنزول منه وركوب معدِّيّة في النيل قطعت بهن المسافة المطلوبة على الضفة نفسها وأنزلتهن بالقرب من الميدان. استمعت إلى أهداف وتحدّثنا تليفونيًّا مع أختها وخالتها، ليلى سويف وليلى موسى. قالت لهما أهداف: رضوى بخير، أجلس الآن معها. أعطتني السماعة فأكّدتُ كلامها وأضفت: أريد الاطمئنان عليكما. ثم انتقلنا إلى المطبخ وتناولنا وجبة خفيفة ونحن نواصل الحديث.

بعدها سأغطّي أضمدة الرأس بقبّعة أشبه بطاقيّة صوفيّة، أو بمنديل كبير وأذهب مع مُريد وتميم إلى مركز كنيدي للفنون. ألتقي هناك بأهداف وريتو صديقتنا الهندية. أشاهد بعضًا من فنون الهند ومشغولاتها ونسيجها المعروض في المركز. استمع لندوة أو ندوتين، وأشتري كتبًا من الأدب الهندي المكتوب بالإنجليزية. سأدعو ريتو إلى البيت وأقدم لها كُسْكُس مغربي أتقن إعداده، نأكل معا (ريتو ومُريد وتميم وأنا) بلا حرج، على المائدة الزجاجية الصغيرة في مطبخ تميم. وسأشعر بارتياح غريب لإتمام قراءة رواية من ثلاثمائة صفحة، اشتريتها من المركز. ورغم انتباهي، ولم أقرأ سوى نصفها، إلى أنها متوسّطة القيمة، سأواصل بعناد قراءتها للتأكد أنني قادرة على ذلك، لأن «ريما» المثل، التي هي رضوى الآن، رجعت لعادتها القديمة، تقرأ بيسر كأن شيئا مزلزلًا لم يُصِب رأسها.

ولكن المكابرة شيء وواقع الحال أمرٌ آخر. فجأة وبلا سبب منطقيّ، أبكي. أحاول حبس الدموع بلا جدوى. تنهمر. أتعلّل أنه لم يُتَح لي بعدُ أن أبكي رحيل أخي وأمي. أستجيب لتعليق من تميم

أو مُريد، كان يمكن في ظرف آخر أن يضحكني، أو يبدأ سجالًا نتبادل فيه الكلام ككرة طائرة، ببكاء مفاجئ، يربكهما. يتعاملان معي بصبر. أهدأ. يقوم مُريد أو تميم في الأوقات المحدّدة، بدهان مرهم طبي على الجروح. وقبلها عقب عودتي من المستشفى مباشرة، كانا يقومان بقياس كمية الدم الذي يتصفّى من الجروح في الأكياس البلاستيكية الثلاثة عبر ثلاثة أنابيب، واحد مثبّت في جرح الرأس، والثاني في جرح الظهر والثالث في جرح أعلى الفخذ. يتصرف كل منهما بوصفه أمًّا أو ممرّضة مضافًا إليها الزوج والابن المتصدِّران لحماية السيدة الخارجة للتوّ من أزمة صحية كبيرة.

وفي زيارة لنيوكِرْك، سألني عن أحوالي، قلت: لست على ما يرام. انهمرت دموعي. تفاجأ الطبيب الأسمر الذي تعوّد طوال الشهور الماضية على تماسكي. ابتسم ابتسامة طيبة وواصل الكلام.

كانت تأتيني مكالمات كثيرة من الأهل والأصدقاء حتى بدا أننا نعدّ لمؤتمر دوليّ أو مؤامرة عابرة للبلدان: مكالمات من القاهرة والإسكندرية وطنطا، وبيروت وعمّان ودبيّ والدوحة والمنامة، ولندن وباريس وفيجي فونسنوه على الحدود الفرنسية السويسرية، ومن أرهوس في الدانمارك، ومن نيويورك وأمهرست وطوسون وأريزونا، ولوس أنجليس. بعض الزملاء في الجامعة يتصلون بي أثناء تواجدهم في ميدان التحرير أو عقب واقعة من وقائع الأيام الأولى للثورة، يريدون أن يشركوني في تفاصيلها. تكلّمني عزة خليل وأكمل صفوت من أرهوس، للسؤال ومتابعة التقارير الطبية.

(حدّثني أكمل ساعة كاملة بالتليفون ليشرح لي تقرير الباثولوجي والبدائل المُتاحة والمزايا والعيوب). ماجدة رفاعة ابنة خالتي نوار تتصل بالتليفون يوميًّا من باريس، وكذلك تفعل أمها من القاهرة. زميلاتي في الجامعة يتصلن بالتناوب كي لا يُثقلن عليّ.

ربما بسبب هذه المكالمات، كانت تحدوني الرغبة في الاتصال بأمي. أنتبه أن الخط مقطوع. وللمحة أستغرب أن التكنولوجيا الحديثة التي أوصلتنا لعجائب أقرب إلى المعجزات في مجال الاتصالات تحديدًا، فشلت في إقامة اتصال من هذا النوع، يتيح لي أن أرفع سماعة التليفون وأسمع صوت أمي فأطمئنها عليّ وأطمئن.

أتلقّى المكالمات بهدوء، أعي أنني امرأة محظوظة، فمن يجرؤ على الرحيل في وجود كل هؤلاء الأصدقاء؟! لا أُحَدِّق طويلًا في الأمر. أغُضُّ الطرف، لا أملك تسليم القياد إلى عاطفة تفتح الباب لهشاشة أجاهد في نفيها.

* * *

بدا الموعد الذي حددوه لنا غريبًا. السابعة صباحًا، في شتاء واشنطون. غادرنا البيت ولم يتبيّن بعد الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر إلا قليلًا. ركبنا سيارة أجرة أوصلتنا إلى المستشفى. لم ندخل من مدخل البَسْكِيِريًّا لنصعد إلى الطابق السابع حيث قسم المخ والأعصاب، ولا صعدنا إلى الطابق الأول وسرنا في ممر طويل يوصلنا إلى مبنى جورمان حيث قسم الرأس والعنق، بل دلفنا من باب جانبيٍّ صغير بمبنى بلِس. سألنا عن الطريق إلى المصعد فلما وجدناه،

هبطنا إلى طابق أرضي. كنا نقصد الدكتور ويليام هارتر. وصلنا في السابعة إلا الربع صباحًا، كان هارتر بدأ عمله، والتقى بمريض قبلي.

رجل طويل له مشية مميّزة، ينحني صدره قليلًا إلى الأمام وهو يمشي، كأنه يعاني من ألم في الظهر. وجهه عريض وله شارب أشقر يمتد على جانبي الفم ويتصل بلحية قصيرة مشذبة. أصلع، لم يبق له إلا شعر خفيف على جانبي رأسه، يحلقه على ما أظن، فيبدو رأسه بلا أي شعر. هل يشبه اليونانيين؟ هل له أصول يونانية؟ أم تداخلت الأمور فبدا لي يونانيّ الشكل لأنني سأنتبه لاحقًا أنه مغرمٌ بالتاريخ، تاريخ اليونان تحديدًا وتاريخ مصر البطلمية. جلست أمامه على مقعد كبير، وبقي تميم واقفًا. سألني إن كانت لديَّ مشاكل في السمع أو البصر. فحص رأسي وأذنيّ والعنق. أكّد أن الجراحة ضروريّة وأننا سنستخدم الإشعاع بعد استئصال الورم. في تلك الزيارة الأولى لقسم العلاج بالإشعاع الذي سوف أتردد عليه لاحقًا يوميًّا، قال هارتر حين علم أنني مصرية، إنه زار ليبيا منذ سنين طويلة، أضاف: ذهبت إلى العَلَمِين ولكن للأسف لم أذهب إلى مصر. ابتسمت: ولكن العَلَمِين في مصر. استغرب: هل أنت متأكدة؟ متأكدة. إذن زرت مصر دون أن أدري!

في تلك الزيارة الأولى سألت هارتر إن كان بإمكاني بعد الجراحة إتمام العلاج بالإشعاع في مصر. رفض وإن صاغ إجابته بلباقة: القاهرة والإسكندرية مدن عريقة لا بد أن فيهما المراكز المتخصصة في هذا النوع من العلاج، ولا بد أن في هذه المراكز علاج بالسايبر نايف.

لكن الفريق كله هنا، الجرّاحون والمتخصصون في العلاج بالإشعاع. الأفضل أن تستكملي العلاج هنا.

تمت تلك الزيارة قبل العمليّة الأولى التي أجريت لي في السابع عشر من ديسمبر. ثم انقطعتُ عن هارتر وقسمه بالطابق الأرضي ما يقرب من ثلاثة أشهر. لم أعد له إلا عندما طلب مني الدكتور نيوكِرْك بعد انتهاء مسلسل الجراحات، بالتوجه إليه لترتيب جلسات العلاج بالإشعاع. في تلك المرة الثانية لن تكتفي الممرّضات بقياس الضغط وقياس الحرارة وتسجيل وزني... إلخ. (وهو الأمر المعتاد مع كل زيارة لأي طبيب)، بل ستصطحبني ممرّضة إلى قاعة كبيرة وتطلب مني أن أرقد على سرير. ستُعَلِّم الممرّضة طرف أنفي بعلامة، وتقوم أخرى بتصوير وجهي ورأسي من زوايا مختلفة. وستشرح لي الممرّضات أن هذه الأمور لزوم القناع الذي سوف أستخدمه عند البدء في جلسات السايبرنايف. بعدها ستُجرى لي فحوصٌ مختلفة: منها صورة للرأس بالرنين المغناطيسي.

سيتم هذا الفحص في سيارة من تصنيع سيمِنْز، اسم الشركة مكتوب بوضوح على جانبيها، أشبه بسيارة نقل كبيرة، تصفّ إلى يمين مدخل مبنى الباسكريّا (واجهة المستشفى ومبناه الرئيس). كان لا بد أن أنتظر دوري في طابق ما من طوابق المستشفى، أن أملأ الاستمارات المطابقة لعشرات الاستمارات التي ملأتها من قبل، إلى أن نادوا عليَّ لإعطائي حقنة في الوريد. وكالمعتاد اضطر الممرّض أن يعيد المحاولة عدة مرات لكي يجد عرقًا يحقن فيه المحلول.

بعدها نزلت مع مُريد إلى طابق أرضي ما وطُلب مني الانتظار. ثم جاء عامل طبيّ واصطحبني إلى خارج المستشفى حيث تقف سيارة النقل. ساعدني على صعود درج خشبيّ صغير يُمكِّن من الوصول إلى بابها المرتفع. دخلت السيارة فطلبوا مني تغيير ملابسي في حيِّز ضيّق في خلفيتها، تحجبه ستارة قماشية. خلعت الجورب وفردتَي الحذاء والساعة وغطاء الرأس واستبدلت بملابسي الرداء المُعَقَّم. ثم خرجت إلى حيِّز آخر من السيارة. قادني ممرّض إلى مائدة مستطيلة أرقدني عليها، وثبّت أسلاكًا في رأسي وجسمي. قال: سيستغرق الأمر حوالي خمس وأربعين دقيقة أو أكثر قليلًا. ثم ناولني جرسًا. قال: تمسكينه بيدك وتضغطين عليه إن اقتضت الضرورة لنوقف الفحص. أعطاني سدادتَي أذن: لأن الصوت عالٍ بعض الشيء. ولم يرد بخاطري أن القرقرة التي أسمعها منذ دخولي السيارة، والتي قدّرت أنها صوت موتور السيارة ذات الطبيعة الخاصة أو الأجهزة بداخلها، ليست هي الصوت المقصود. لأن الصوت «العالي بعض الشيء» كان هديرًا معذِّبًا، ارتفع مع بدء عملية الفحص وفكّرني بكافكا. قلت فاتته هذه الآلة، لو رآها لضمَّنها بلا تردّد قصته عن معسكر التعذيب. لم يكن صوتًا واحدًا، بل أصوات تتعاقب وتتقاطع وتتراكب: صوت أشبه بالدقّ المنتظم لحفّار ضخم، يتلوه صفيرٌ عالٍ متصل كبوق سفينة أو قطار. يتوقف فجأة، تتبعه قرقرة كأن مصدرها غسّالة أو ثلاجة قديمة، وإن تم بحيلة جهنمية ما تضخيم صوتها، هكذا بلا انقطاع لمدة لا تريد أن تنتهي. لا أستطيع التفكير في أي شيء. أقطع الوقت بالعَدّ. أتجاوز المائة إلى المائتين إلى الثلاثمائة. أكفّ. ينقطع الصوت

لثوانٍ. نبدأ الكَرَّة من جديد. لا أفهم علاقة الرنين المغناطيسي بهذه الأصوات التي تهاجم الأذنين والرأس بهذه الضراوة. عدم الفهم يزيدني توتّرًا. ليس معي ساعة (كان عليّ أن أخلعها مع ملابسي). عدم قدرتي على قياس الوقت يثقل عليَّ إلى حد الشعور بالاختناق. ولما طال العذاب تمكّن اليأس منّي. استسلمت.

أخيرًا توقّف الجهاز وظهر الممرّض. ساعدني على النهوض، ثم الوصول إلى شبه الغرفة التي خلعت فيها ملابسي. عندما انتهيت من ارتداء ملابسي وحذائي ولفّ رأسي واستعادة ساعتي، رافقني عامل طبيّ آخر وعاونني على الهبوط من السيارة. لم تكن خطوتي ثابتة. بدا لي أنني سأسقط عن الدرج. لم أسقط. وجدت مُريد يقف منتظرًا بالقرب من السيارة. قلت له دون أن أبتسم: بنا نشرب شيئا في الإبيكيوريان. كان المقهى أمامنا مباشرة. عبرنا الشارع الذي يقطعه موقف للسيارات. دخلنا المقهى. ربما قلت شيئا لمُريد، ربما لم أقل. حكيت بالتفصيل عن جلسة التعذيب أو لم أحكِ. لا أذكر. ما أذكره بوضوح أنني كنت أشعر بسخط عارم.

* * *

في نهاية المطاف سيحدّدون لي جدول العلاج الذي سيمتد من الرابع من إبريل إلى السابع عشر من مايو. في الجدول مواعيد لخمس وعشرين جلسة موزّعة على خمسة أسابيع، لأن الجلسات يوميّة باستثناء عطلة نهاية الأسبوع: السبت والأحد. تعقبها خمس جلسات من نوع آخر يشار إليه بالسايبر نايف أو

الجراحة الإشعاعية. لا تتجاوز كل جلسة من الجلسات الخمس والعشرين ربع الساعة، أما جلسات السايبر نايف فتستغرق الجلسة الواحدة خمسًا وأربعين دقيقة.

ولكننا كنا في إبريل، الذي عادة ما يذكره الكتّاب فتطفو في ذاكرتهم الأبيات الأشهر من قصيدة إليوت:

إبريل أقسى الشهور، يُنبتُ

الليلكَ من الأرض الميِّتة، يَخْلِطُ

الذاكرةَ بالرغبة، ويُحرِّكُ

الجذورَ الساكنة بأمطار الربيع

ولكن إبريل بالنسبة لي، لم يكن أقسى الشهور، لأن الربيع كان ينقل رسالته لي ضمنًا أو صراحة. لا لم تكن الوعول وحدها التي أراها في الغابة، ولا أزهار الزنبق، ولا الشجر العالي كثيف الخضرة الذي يُبَكِّر في إزهاره فتبدو الشجرة الواحدة بستانًا معلقًا من زهور متداخلة بيضاء خالصة في شجرة، أو وردية كلها في شجرة سواها. ما اسم هذه الشجرة؟ لا أعرف. أظل أسأل عن اسم الشجرة حتى أعرف أن اسمها دوج وود. وما زلت لا أدري إن كان لدينا مثيلٌ لها وإن كان لاسمها مقابلٌ بالعربية.

كنت أتعافى بشكل ما، أخطو باتجاه الشفاء، أعي ذلك فأُغُذّ الخطو. ربما كان الدافع هو رغبتي في العودة إلى مصر، لأن فيها بيتي وجامعتي وأهلي وأصدقائي، ولأن فيها ثورة غبت عنها رغم

أن فصولها الأبرز كانت تدور على بعد خطوات من بيتي، فعلًا لا مجازا، فميدان طلعت الحرب تفصله عن بيتنا دقيقتان، وميدان التحرير الأبعد، يمكن الوصول إليه بالمشي الكسول في سبع دقائق، يضاف لها دقيقتان أو ثلاث للوصول إلى كوبري قصر النيل أو شارع القصر العيني أو ميدان عبد المنعم رياض، أعني حدود الميدان التي دارت فيها المعارك، وسقط الشهداء ليذودوا عن أنفسهم وعنها، كأنها حدود للوطن وحياضه. حدث ذلك كله ونحن غائبون عن البلد نحتاج للعودة إليه أن نركب طائرة تحلِّق بنا أكثر من عشر ساعات من قارة إلى قارة ثالثة، وتقطع في طريقها محيطًا كان العرب القدامى يسمّونه بحر الظُّلُمات، ثم بحرًا حين نحلّق فوقه نعرف أننا على وشك الوصول. ولأننا غائبون لم نكن قادرين على استقبال من يقصدنا من الثوار، أصدقائنا وأبناء أصدقائنا وبناتهم وأصحابهم وأصحاب أصحابهم، لأن أحدهم يريد فسحة من الراحة، أو شَربة ماء أو غسل وجهه أو قضاء حاجته أو لقمة يسدّ بها جوعه. وربما كنت أغذّ السير أبغي الشفاء لأن الله قدَّر لي النجاة، والجرّاحون قدّموا ما قدموه لإنقاذي، ولم يعد إلا أن أقوم بما عليَّ، لأنني بالتكوين والعادة لا أحبّ التقصير في واجباتي.

أذهب يوميًّا إلى قسم الإشعاع من الاثنين إلى الجمعة. موعد الجلسة في الغالب في الخامسة مساءً، وقد يتغيّر في أسبوع تالٍ ليصبح في الحادية عشرة صباحًا أو الثانية أو الثالثة بعد الظهر. نغادر البيت قبل الموعد بساعة أو أقل قليلا من الساعة. نقطع الطريق

مشيًا إلى المستشفى. ندخل من الباب الجانبي الصغير. نُعَقِّم أيدينا بسائل مُطَهِّر بواسطة آلة بالباب. نقطع ممرَّيْن طويلَيْن قبل أن نصل إلى المصعد، فيحملنا إلى طابق أرضي. نغادر المصعد وننحرف يسارًا فنجد أنفسنا في قسم العلاج بالإشعاع. أذهب مباشرةً إلى النافذة التي تجلس وراءها سكرتيرة القسم. أُسَجِّل اسمي وساعة الوصول واسم الطبيب المُعَالِج. ثم أجلس مع مُريد أو تميم في قاعة الانتظار مع آخرين حتى ينادوا عليّ. هنا لا حاجة لخلع ملابسي لأن المقصود الرأس. أخلع حزامي الجلدي، إن كنت أرتدي بنطلونًا. أما غطاء الرأس أو الطاقية الصوفيّة التي تخفي أثر الجراحة، فلا أخلعها إلا في غرفة العلاج، أخلع الحذاء وساعتي، يساعدني ممرّض أو ممرّضة على الرقاد على مائدة معدنيّة مستطيلة أشبه بسرير، تحرص الممرّضة أن تكون رأسي في نقطة محددة. في الغالب أطلب غطاءً قطنيًّا لأنني أشعر بالبرد. يأتون بالغطاء ويبسطونه على جسمي. تغادر الممرّضة. أسمع صرير الباب وهي تغلقه. يبدأ تشغيل الآلة. أحيانًا تقول إحدى الممرّضتين الجالستين أمام الكمبيوتر خارج القاعة إلى يمين الداخل من الباب، عبر مكبر صوت: أرجو أن تدفعي بجسمك إلى الأعلى قليلًا، أو انزلقي بجسمك قليلًا إلى أسفل. أحيانًا تعود الممرّضة إلى القاعة، تعدِّل وضع جسمي بالدقة المطلوبة. بعدها تدور الآلة: ضخمة معدنية بيضاء، لها ذراعان على ما أذكر. تنتهي إحداهما بما يشبه طبق الإرسال، أما الثانية فمُثَبَّتَة إلى مستطيل أقرب لجهاز تكييف صغير. لكلٍّ منهما صوت (غير مزعج) يمكن تمييزه. يدوم الصوت

مع حركة الآلة دقيقة أو أكثر قليلًا أو أقل، ثم يتوقّف. قبل أن يعود من جديد. تضيء مصابيح صغيرة ثم تنطفئ ثم تضيء مجدَّدًا. لا أشعر بأي ألم. لا أحاول أن أتخيّل كيف يعمل الإشعاع وما الذي يفعله بالضبط في رأسي. أغمض عينيّ. أصرف اهتمامي إلى موضوع آخر. أحيانًا تبدو لي الجلسة أطول من المعتاد. أحيانًا تبدو لي أقصر لأنني أنتبه لتوقّف الصوت. أسمع صرير الباب وأجد الممرّضة تمدّ لي يدها لتعاونني على القيام. أربط شعري. أرتدي جوربي والحذاء. أغادر القاعة. أقف عند العاملَين الطبيَّين الجالسَين أمام الكمبيوتر لنؤكد موعد الجلسة التالية.

واشنطون مدينة مُلَوَّنَة، ولا أعني هنا أن بيوتها أو أشجارها أو وسائل مواصلاتها لها ألوان، بل أعني أن أغلب سكّان المدينة ملوّنون، أكثر من نصفهم من الأفارقة الأمريكيين (أحفاد الأفارقة الذين حملوا من بلادهم قسرًا قبل أكثر من ثلاثمائة عام، ليبدءوا حياتهم في العالم الجديد على خشبة المزاد ومنها إلى المزارع الكبيرة أو الصغيرة، ليعملوا بالسُّخرة لدى الأسياد البيض (ذوي الأصول الأوروبية)، الذين اشتروهم. وكانت نسبة الأفارقة الأمريكيين في المدينة أعلى إلا أن انتقال السود إلى الضواحي أو إلى الولايتين المجاورتين، أو الهجرة جنوبًا أدت إلى إنقاص نسبتهم في المدينة. يُضاف إلى الأفارقة الأمريكيين، المهاجرون أو أبناء المهاجرين من الناطقين بالإسبانية، والآسيويين والأفارقة. البيض في عاصمة الولايات المتحدة أقلية نسبيّة تتركز غالبًا في المناطق المحيطة

بالجامعات الكبيرة، وفي المثلث الممتد من حدود ولاية ماريلند إلى مبنى الكابيتول من ناحية وضفاف النهر من الناحية الأخرى.

ويكاد المستشفى أن يكون نموذجًا للعاصمة. معظم الأطباء من الأمريكيين البيض، القليل منهم من الأفارقة الأمريكيين أو الآسيويين. الممرّضون والعمال الطبّيون وعمال النظافة صورة معكوسة لطبقة الأطباء، فأغلبهم من الأفارقة الأمريكيين والأفارقة والمتحدثين بالإسبانية والصينيين والفلبينيين والباكستانيين. في قسم الرأس والعنق كان الطاقم المعاون كله وبلا استثناء من الأفارقة الأمريكيين، من السكرتيرات اللائي يحددن المواعيد وينظِّمن الاستمارات إلى الممرّضات اللائي يقسن النبض والضغط ودرجة الحرارة. أما في قسم العلاج بالإشعاع فكان التنوع أكبر: الممرّضون والممرّضات اللائي يساعدنني على الرقاد على المائدة المعدنية، واللائي يتابعن آلة الإشعاع على شاشة الكمبيوتر ويؤكدن معي موعد الجلسة التالية، من جزر الكاريبي ومن غرب إفريقيا. وفي قاعة السايبر نايف كان هناك ممرّضان أحدهما أسمر من جزر المارتينيك والثاني قمحيّ من باكستان. أما كبيرة الممرّضات في القسم فكانت بيضاء. وكان الأطباء جميعًا إلا اثنين آسيويون (صينيان على ما يبدو)، ألاحظ ترددهما على القسم أثناء انتظاري، ولكنني لست متأكدة إن كانا طبيبين في القسم أم في قسم آخر أو معاونَين طبيَّين.

أحيانًا أنتهي من الجلسة فتقول لي إحدى الممَرّضات قبل أن أغادر: الدكتور هارتر يريد أن يراكِ. أنتظر حتى ينادوا عليّ. في

غرفة جانبيّة صغيرة في الغالب، أو في غرفة أكبر بها مائدة مستطيلة تحيط بها المقاعد، قد تكون قاعة اجتماعات أو قاعة درس، يسألني الدكتور هارتر عن أحوالي ويلقي نظرة سريعة على رأسي. يقول إن كل شيء على ما يرام. وأحيانًا يسألني سؤالًا في التاريخ يجرّنا إلى حديث يستغرق ربع ساعة أو أكثر. أحيانًا ينيب الدكتور هارتر عنه مساعدته، الطبيبة الشابة. وكنت أراها في القسم يوميًّا ما دام الدكتور هارتر موجودًا فيه. تتبعه كظلّه، تقف بجوار مقعده وهو يقابلني، تنصت باهتمام، لا تتحدّث. سمعت صوتها للمرة الأولى حين أنابها الدكتور هارتر عنه لفحصي.

عادة ما كنا نذهب إلى الجلسة مشيًا، وعادةً ما نعود منها بأتوبيس الجامعة الذي يمر من أمام بيتنا. وكثيرًا ما كنا نتناول غداءنا المتأخر في الإبيكيوريان. في الأسبوع الأول من الجلسات كنت أذهب بصحبة مُريد أو تميم أو كليهما. ثم انضمت إلينا صديقتنا حسناء التي جاءت من بيروت خصيصًا لزيارتنا. أرادت أن تأتي قبل ذلك ولم تتمكن لأن ابنتها كانت تنتظر مولودتها الأولى، (الحفيدة الأولى في الأسرة). بعد أن أتمت حسناء مهامها الأسرية لحقت بنا. فكانت تصرّ على مرافقتي يوميًّا إلى جلسة الإشعاع. أقول: يا حسناء لا داعي. أجلس في قاعة ثم أدخل قاعة أختفي فيها ربع ساعة ثم أخرج منها. لمَ لا نلتقي بعد ذلك؟ ولكن لا حياة لمن تنادي. تمرّ عليّ يوميًّا، تحمل لي في الغالب باقة زهور مدهشة أو أصّة زرع صغيرة ينبت في ترابها زهرة مجنوليا أو زنبق أو أوركيدا أو نوع رابع لا أعرف اسمه. أؤنبها كأم ترى في

سلوك ابنتها تهورًا في الصرف. رغم ذلك أعرف أن زهور حسناء لم تكن مجرد زهور تحملها صديقة إلى صديقتها المريضة، بل كانت تجسّد ذلك الكرم النفسي الكبير المتبدي في ألف تفصيلة صغيرة وكبيرة، من قطع المحيط للمساندة، إلى محاولة إخفاء أي قلق على صحتي ومسايرتي في أن كل شيء على ما يرام، لأنها تعلم أن هذا هو تحديدًا ما أريده. سنذهب مع حسناء في عطلة نهاية الأسبوع لهذا المطعم أو ذاك، أو لزيارة متحف الفنون الجميلة، أو للبقال لنشتري ما نحتاجه للبيت، أو لمتجر ملابس لنشتري ملابس صيفية حان وقت ارتدائها. وسنتشارك يوميا من الاثنين إلى الجمعة في المشي إلى المستشفى. ننزل من البيت. نقطع شارع وِسْكونْسِن. نسير في أو ستريت حتى نجد درجًا حجريًّا تنبت في حجارته القديمة بعض الأعشاب البريّة. نهبط الدرج. ننعطف يسارًا في شارع ٣٧. نتأمل في طريقنا الزنابق المُلَوَّنَة التي يتبارى أصحاب البيوت على جانبي الشارع في زراعتها على مداخل بيوتهم. نواصل السير في الشارع حتى تقاطع شارع ٣٧ بريزرفوار رود وهو شارع المستشفى. أحيانًا نعبر من إشارة المرور عند التقاطع، وأحيانًا ننعطف يمينًا قبل أن نعبر ولا نقطع الطريق إلا عند الإشارة التالية أمام المستشفى. في الغالب نذهب في قافلة أُسَرِيَّة صغيرة: مُريد وتميم وحسناء وأنا. أحيانًا يكون تميم في جامعته أو في مؤتمر يستدعي غيابه عن واشنطون. في أسبوع بعينه كان على مُريد أن يذهب إلى لندن ثم إيطاليا في رحلة قصيرة دامت خمسة أيام تلبيةً لدعوتين سبق له قبولهما. فنذهب أنا وحسناء وتميم ، أو أنا وحسناء لو كان تميم في الجامعة.

في اليوم التالي لانتهاء جلسات الإشعاع الخمس والعشرين، بدأت الجلسة الأولى من جلسات السايبر نايف الخمس. أتجه إلى القسم نفسه. أسجّل حضوري لدى الموظّفة ذاتها. أنتظر في القاعة نفسها. وعندما ينادون عليَّ أدخل مكانًا مختلفًا فيه عاملان طبِّيان يجلس كل منهما أمام كمبيوتر. يقودني أحدهما إلى غرفة جانبية فيها مائدة معدنية مستطيلة أرقد عليها في ظل آلة هائلة، أو مخلوق آلي هو السايبر نايف (يمكن ترجمته بالسكّين الافتراضي لأنه يفعل فعل السكين أو الجراحة عبر حِزَم من الإشعاع المكثّف). يضع لي الممرّض القناع (الذي صُنع خصيصًا لي) على وجهي، يثبِّته في المائدة من جانبيه بحيث يكون رأسي ووجهي وأنا أرتديه في وضع محدد بدقة يسمح بالإشعاع المكثف الذي يوجّهه الجهاز أن يصيب المنطقة المقصودة من الرأس. هذا القناع الذي لم يُستخدم إلا في جلسات السايبر نايف، أشبه بأقنعة العاملين في جمع العسل من خلايا النحل أو لاعبي الشيش لحماية وجوههم، وهو مصنوع من خيوط صناعية بيضاء متماسكة كأنها منشّاة، بها خروم تجعله وهو يغطّي الوجه يبدو كقبّة صغيرة فوقه. يسألني العامل الطبيّ إن كنت أريد أن أستمع إلى موسيقى أثناء الجلسة وأي نوع من الموسيقى أُفَضِّل، الكلاسيكية أم الحديثة. يضع القرص المُدْمَج المعيّن فتنبعث في أرجاء الحجرة الموسيقى المطلوبة. ثم يغلق الغرفة بإحكام ويبدأ السكّين الافتراضي في عمله. يتحرك الطبق الدوار حول رأسي. لا ألم ولا إزعاج إلى أن تنتهي الجلسة وينفتح الباب ويدخل الشخص المسئول ويرفع القناع عن وجهي. ألاحظ عند انتهاء الجلسة أنني

بحاجة إلى المساعدة للنهوض من مكاني. يساعدني على الجلوس: ابقي جالسة، لا تقومي فورًا، استريحي دقيقة أو دقيقتين. حين أغادر الغرفة لا أكون منهكة بوضوح، وإن كنت أشعر شعورًا غريبًا لا أدري كنهه. شيء ما حدث وأحدث أثره يصعب عليّ تحديده. أشرب كوب ماء وأجلس في غرفة الانتظار. عشر دقائق أو ربع ساعة. ثم نغادر. نستقل سيارة أجرة تحملنا إلى البيت.

سألت الدكتور هارتر: متى يُسمح لي بالسفر؟ كم يومًا أحتاج للبقاء بعد انتهاء الجلسات؟ قال: أسبوع. ثم أكّد لمريد ما قاله له قبل بدء جلسات العلاج: سنعيدها إلى منصّة المُحاضِر مع بدء العام الدراسي.

في الجلسة الخامسة والأخيرة من جلسات العلاج بالسكّين الافتراضي، أعطوني القناع. قال الممرّض: إنه لكِ. حملته وخرجت. سأل تميم: لماذا تحملينه؟ قلت: أعطوه لي وقالوا إن بإمكاني الاحتفاظ به. حرّك رأسه خفيفًا وأخذه مني وألقى به في سلة المهملات.

انتهيت من الجلسة الخامسة والأخيرة من جلسات السكّين الافتراضي ظهر السابع عشر من مايو. وكنت أخذت موعدًا في اليوم نفسه من الدكتور نيوكِرْك وجرّاح التجميل الشاب. استمعت إلى تعليماتهما، متى يَتَوَجَّب عليّ إجراء فحوص جديدة وزيارة طبيبي في القاهرة لمتابعة حالتي وأي توجيهات أخرى. شكرتهما وودّعتهما وانصرفت. قبل خروجي من قسم الرأس والعنق بالطابق الأول في مبنى جورمان، صافحتني جُون موظفة الاستقبال السمراء التي كنت أُسَجِّل اسمي لديها كلما جئت لمقابلة أي من الجراحَين.

كانت شابة عطوفة وودودة. أخبرتها أنني عائدةٌ إلى مصر وودعتُها. احتضنتني بقوة وبكت.

قبل أن نغادر المستشفى صعدنا إلى الطابق الثالث بمبنى بلِس لنسلّم على أشرف. لم تحكي عن أشرف من قبل؟ كيف لم أحكِ عن أشرف، وقد كان دائما هناك يشدّ من أزرنا ويساعدنا بقدر المستطاع؟ التقيت بأشرف للمرة الأولى يوم السادس عشر من ديسمبر قبل الجراحة الأولى بيوم واحد. كان عليّ أن أجري الفحوصات السابقة على الجراحة. تقدّمت بأوراقي إلى سيدة خمسينية سمراء تجلس خلف نافذة. أعطتني استمارات لتعبئتها وطلبت بطاقة هويتي وبطاقة التأمين. أعطيتها جواز السفر وأفهمتها أنني أعالج على نفقتي، لا بطاقة تأمين. اتسعت عيناها دهشةً وبدا على وجهها الارتباك. نظرت إلى الاستمارة: أنت أستاذة جامعية أليس كذلك؟ نعم. ولماذا لا تتكفل جامعتكِ بالعلاج؟ عيّنت نفسي تلقائيًا وبسرعة مدافعة عن الجامعة المصرية: تتكفل الجامعة بالعلاج في مصر، أما في الخارج فيختلف الأمر، يصبح أكثر تعقيدًا. اتصلت السيدة بقسم الخدمات الدولية بالمستشفى. وصفت لي كيفية الوصول إلى القسم. أكّدت قبل أن أغادر: اذهبي إليهم، سيجدون لكِ مخرجًا لأن تكاليف العلاج باهظة، لا أحد يتحمّلها وحده. بعدها عودي إليّ.

صعدت أنا وتميم إلى الطابق الثالث حيث القسم المسئول عن المرضى الأجانب. هناك التقينا بأشرف: شاب قمحي نحيل في الثلاثينيات من عمره. قال وهو يمدّ يده للسلام عليّ: اسمي أشرف

قابيل، أنا من بور سعيد. صافحته وعرّفته بنفسي وبتميم. اصطحبنا إلى غرفته. غرفة صغيرة بها مكتب وكمبيوتر وطابعة وكُرسيان للضيوف. قال أشرف وهو يبتسم مرحِّبًا: أهلا بالدكتورة رضوى. هل تعرفين أنكِ أول مريض يأتي من مصر يُعالج على نفقته الخاصة؟ لا أعني أننا لا نستقبل مرضى مصريين. يأتون من مصر للعلاج من أمراض متفاوتة، ولكنهم دائمًا وزراء ومدراء ويُعالجون على حساب الدولة. قال: سنعمل ترتيبا يُمكّنك من المحاسبة من خلالنا مرة واحدة بعد انتهاء العلاج. وفي هذه الأثناء سنبحث عن حلول وربما نتمكن من الحصول على تخفيض من المستشفى. سأكتب رسالة أعطيكِ نسخة منها تفيد أن المحاسبة ستتم من خلالنا. ولأن أشرف كان كريمًا في عرضه كأنه يعرفنا منذ سنوات ويثق في أننا سندفع كل ما علينا في نهاية المطاف. أخرجت بطاقتي الائتمانية وسارع تميم بفعل الأمر نفسه. ضحك أشرف: لا داعي. ثم: بطاقة واحدة تكفي. ولكن تميم أصرّ. صوّر البطاقتين. قال: لا تحملا همًّا. انتبهي لصحتكِ يادكتورة، وإن شاء الله تقومي بالسلامة. عدت إلى السيدة السمراء. أعطيتها الرسالة. انبسطت أساريرها كأنما انزاح عن كاهلها هي شخصيًّا المصاريف الباهظة التي تعرفها ولن أتمثّلها إلا بعدها بشهور. صوّرت الرسالة وأعادتها إليّ. ثم دخلت لإجراء الفحوص.

سوف نتردد على أشرف، بعد العملية، وما بين العملية الأولى والعمليات الثلاث المتعاقبة وأثناء العلاج بالإشعاع. ولن تكون الزيارات دائمًا لأمور عملية تخصّ العلاج، بل لأننا نريد أن نطمئن

عليه أو نتحدث وإن بسرعة عن الأحوال في مصر بعد الثورة مباشرة. كان أشرف كالعديد من المصريين الذين يعملون خارج مصر يتابع ما يحدث تفصيلًا فيخبرنا أحيانًا بأخبار لم نسمعها. حتى واقعة الرابع من نوفمبر في جامعة عين شمس كان تابعها ولذلك حين استقبلنا وقال: أهلا يا دكتورة رضوى كان يعرفني، رغم أننا لم نلتقِ من قبل. كان أشرف يتحلى بشهامة وإنسانية تدعو للإعجاب. لم يأل جهدًا في مساعدتنا وتسهيل الأمور علينا. وعرفت من مريد وتميم أنه وأنا في العمليات كان يذهب إليهما ويقف معهما لبعض الوقت لمساندتهما.

* * *

لا أذكر كيف احتفلنا بإتمام العلاج، ولكنني أذكر أننا غادرنا المستشفى في موكب أسري مبتهج أنا ومريد وتميم وحسناء.

في يوم الثالث والعشرين من مايو، غادرنا واشنطون، أنا ومُريد في طريقنا إلى القاهرة، وغادرت حسناء قبلنا ببضع ساعات في طريقها إلى بيروت. أما تميم فسيلحق بنا بعدها بأسابيع، لأن عليه أن يتم تصحيح امتحاناته وأن يجمع المتبقّي من ملابسه وكتبه وأوراقه لأنه قرر ترك واشنطون نهائيًّا.

الفصل العاشر

عـودة

حملتنا سيارة أجرة إلى المطار فوصَلناه قبل إقلاع الطائرة بأكثر من ساعتين. كنت وصلت واشنطون بحقيبة واحدة وكذلك مُريد، أما في طريق العودة فقد حمل كلٌّ منا فضلًا عن حقيبته حقيبتين إضافيتين، لا لأننا أفرغنا متاجر العاصمة من بضائعها، بل لأن تميم كان نوى العودة النهائيّة بعد ثلاثة أعوام من التدريس في جامعة جورجتاون. حمّلنا ملابسه الشتوية بما فيها المعطف والسترات والأحذية الثقيلة عالية الرقبة ذات النعال المُفَرَّزة التي تحميه من الانزلاق عندما يملأ الثلج الطرقات أو يغطّيه الجليد. وحمّلنا معظم كتبه وما لا يحتاج من أوراقه. ودّعنا تميم بعد أن وزنّا الأمتعة وتجاوزنا المنطقة المفتوحة لغير المسافرين. كان مُريد يعلّق على كتفه اليسرى عود تميم في مغلَّفه الجلديّ، وفي يده اليسرى حقيبتي الصغيرة، يصرّ أن يحملها عنّي، وبيده الأخرى يمسك بيدي. أحتجّ وأعترض، أريد استعادة الحقيبة منه، «أنا أصبى منك». أضحك، لأنني مُقْبِلَة ونشيطة وفي حالة مزاجية طيبة.

ركبنا الطائرة فطارت بنا من مطار فوستر دالاس إلى مطار شارل ديجول. غادرناها وقضينا بضع ساعات في قاعة من قاعات الترانزيت إلى أن اقترب موعد إقلاع الطائرة إلى القاهرة. قمنا. وقفنا في الصف. ركبنا. جلسنا في مقعدينا، لم نغادرهما إلا عندما حطّت بنا الطائرة في مطار القاهرة. كنا بسبب فرق التوقيت وطول الرحلة مساء الرابع والعشرين من مايو.

أول من رأيت في المطار كانت هبة الظواهري ابنة خالتي (وهي طبيبة وأستاذة في معهد الأورام). كانت ترفع علمًا صغيرا لمصر، تُلَوِّح به وهي تهتف بصوت عالٍ: تحيا مصر. تحيا مصر. تحتضنني. تعود للهتاف وهي تلوِّح بالعلم وتتقافز وتضحك. ثم رأيت حاتم وماهرو زوجته، وولديهما ميّ وأحمد. وعندما غادرنا مبنى المطار وجدت خالتي نَوَار تنتظر في السيارة لأن قدميها لم تمكناها من صعود السلالم بسهولة.

وصلنا إلى بيتنا ليل الثلاثاء الرابع والعشرين من مايو، بعد غياب طال ستة أشهر. تطلعت إلى الساعة: لن نستطيع النزول إلى التحرير. كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل.

وفي اليوم التالي أيضا لم ننزل إلى التحرير لأن العديد من الأهل والأصدقاء توافدوا علينا لزيارتنا. انتظرنا إلى مساء يوم الخميس. كان عليّ مراعاة عدم التعرّض المباشر للشمس لبعض الوقت. وإن لم أراع ذلك دائما، (ينبهني مُريد أو تميم، فأراعيه).

في مساء السادس والعشرين من مايو (وهو بالمناسبة يوم مولدي)،

ذهبنا إلى ميدان التحرير. حسنًا، أخّرَنَا المرض خمسة أشهر. سوف يبدو ممجوجًا، لو توقّفت الآن وقدمت تعبيرًا بلاغيًّا أو خطبةً عصماء عن مشاعري، لسبب بسيط لا علاقة له بذائقتي الأدبية، هو أنني لم آتِ الميدان سائحة، ولا زرته للفُرجة ولا تلبية لحنين، أو لكي أقول لنفسي حصل خير يا رضوى ها أنتِ في نهاية المطاف وصلتِ الميدان الذي كان يُفترض أن تكوني فيه ولم تتمكّني. كان شارع طلعت الذي نسلكه من بيتنا إلى ميدان التحرير، هو شارع طلعت حرب المألوف بمحلّاته الكثيرة على الجانبين، لا نأتيه من جهة جروبي في ميدان طلعت حرب، أو مكتبة مدبولي أومكتبة الشروق التي كان اسمها قديمًا مكتبة هاشيت، ولا نمر بمقهى ريش، بل ندخله من شارع هدى شعراوي، فنمر بمطعم فلفلة ومحل عصير جنّة الفواكه ومكتب مصر للطيران، نعبر الشارع ونتجاوز بنترومولي للأثاث، وكريستال للمخبوزات، ونرى في الجانب الآخر من الشارع نادي محمد علي ثم محل الزهور ثم مقرّ الحزب الناصري ثم محلات عمر أفندي عند نهاية الشارع. طريق مزدحم كالعادة بمارة كثيرين، وسيارات تتحرك في اتجاه واحد. إذن الشارع هو الشارع بثوابته وناسه. ما الذي جدّ؟ أعد على أصابعي، أبدأ بالإبهام: جدّ أن هناك مارة مثلي يقصدون الميدان لا ليركبوا أتوبيس أو ينزلوا إلى محطة المترو، أو يشتروا هذا الشيء أو ذاك، أو ليجلسوا كما اعتادت بعض الأسر والشباب والصبايا ليستمتعوا بالنسمة الصيفية. بل يقصدون الميدان لأنه الميدان. وسيقصدونه غدا الجمعة ليرفعوا الرايات وأصواتهم ويطالبوا. أثنّي بالسبّابة: وجدّ هؤلاء الباعة على مداخله: لا يبيعون

جوارب وملابس داخلية وبعض العاديات، بل رايات كبيرة وصغيرة، أعلام مصر وفلسطين وتونس، وملصقات تحمل كلمة ٢٥ يناير، أو صورًا لوجوه بعض رموز النظام السابق مشطوب عليها أو يتبعها تعليق ساخر، أو تي شيرتات مطبوعًا عليها العلم أو شعار من شعارات الثورة. ثم أثلِّث بالوُسْطَى: جدّت هذه اللافتات الكبيرة المعلقة في الميدان ورسوم الجرافيتي والشعارات على حوائط المباني المحيطة به. أي سُخْفٍ هذا يا رضوى! أنتبه أن قبضتيّ بأصابعي العشر انغلقتا فجأة بقوة، كأنما تمرّدت الأصابع على الحسبة العقيمة. قلت: جَدّ في الميدان ما شربَته أرضه من دم الشهداء. أو ربما لم تشربه تمامًا بعد، فبقي محبوسًا في مكان ما بين سطح الأرض وباطنها، ينتظر أن يسري فيه ويشكّل تربته. أتذكّر شهادة ناشط من شباب ٦ إبريل، كان من منظمي مظاهرات اليوم الأول. تحدّث الشاب عن رجل ملتحٍ مسنّ، تَشَارك معه البطانية في إحدى ليالي الاعتصام بالميدان. حكى له الرجل أنه ذهب إلى الحجّ العام السابق وأخبره أنه مندهش من أن تأثّره بوجوده في التحرير، أشد من تأثّره وهو في الحرم المكّي. قال له الرجل إنه من غير الصحيح أن كل من يدخلون الميدان يتعرّضون للتفتيش (كان الثوار يقفون عند مداخل الميدان لحمايته من البلطجيّة وعملاء أمن الدولة الذين قد يدخلون بأسلحة أو سكاكين). فلما أكّد له الشاب أنهم يخضعون لتفتيش دقيق قال له الملتحي إن الشهداء يأتون للميدان يوميًا ويجلسون فيه. لا أحد يراهم أو يفتِّشهم، وإنهم يريدون لنا أن نبقى في الميدان، ولو تركناه يصبح قفرًا ويتحول إلى مكان ملعون.

تذكّرتُ كلام الناشط ولوهلة بدا لي وأنا أدور بعينيّ في المكان، أنني سألمح أطيافهم تروح وتغدو بتلقائية ويسر كما يفعل الناس في بيوتهم أو في الشوارع التي نشئوا فيها.

في ذلك اليوم التقينا بأحمد جمال. شاب نحيل، اقترب منا على استحياء. سأل: الدكتورة رضوى عاشور؟ الأستاذ مُريد البرغوثي؟ صافحنا. ثم عرّفنا بنفسه قال إنه طالب بكلية الطب جامعة الزقازيق. بدا حييًّا وهو يحيينا ويعبِّر عن إعجابه بكتاباتنا قال: كنت مع صديقة الآن مُغرمة بكل ما تكتبينه، ستسعد جدا لو عرفت أنني التقيت بكما. هل تسمحين لي أن أكلِّمها؟ كلّمها. وتحدثت إليّ. بعد المكالمة سألت الشاب إن كان سينزل يوم الجمعة. قال سينزل ثم بشيء من التلعثم قال: أنا خائف خائف جدًّا. خائف. لم يُفِض ولكننا فهمنا من وجهه ربما أو من السياق أنه لم يكن يعني مظاهرة تحدث بعد يومين أو شهرين بل كان يعني مسار الثورة التي بدت فجأة كصغير مهدّد. قدّرت أنه كاتب. سألته. سكت برهة ثم: نعم أكتب. لاحقًا سأبحث عن مُدَوَّنَتِه وأجد قصة له من أعذب القصص التي كُتبت عن الميدان. لا تحكي القصة عن الدم في المواجهات، لا تحكي عن الآمال، تقدّم ببساطة متناهية لقطة دالة لطبيب شاب في المستشفى الميداني، يتبادل الحراسة مع زميل له، يحاول الطبيب أن يوقظ زميله الذي نال قسطًا من النوم في حين أنه لم ينم طوال أربعة أيام، وحين يفشل في إيقاظه يذهب إلى «الأستاذ عادل»، يوقظه ليشكو له: «... لم أنم منذ أربعة أيام... بدأت أرى أفيالا وردية وهذا خطر»

يهز الطبيب الشاب رأسه بأسف، ويهز الأستاذ عادل رأسه بأسف، ثم يقول: «حاول معاه تاني»، ويعود إلى النوم.

يذهب الطبيب الشاب إلى زميله، يلكمه في ذراعه ويجرّه ويقيمه عنوة ويرقد مكانه. ولكنه قبل أن يغفو يجد سيد زميله مستلقيًا بجواره يطلب منه جزءًا من البطانية. ثم يروح في النوم ويعلو شخيره. «وأنا نظرت لسيد، هرشت في رأسي قليلًا، وقلت له بصوت واضح: «الله يحرقك يا سيد»، ثم شددت الغطاء على رأسي، ونمت».

تساءلت كثيرًا لماذا أعجبتني القصة إلى هذا الحد؟ ربما استوقفتني تلك القدرة على تقديم لقطة بسيطة مؤثرة ودالة، أعرف في قرارة نفسي أن الثورة والميدان والشهداء والمصابين والبطولة وكل المعاني الكبيرة، هي في واقع الحال حصيلة جمع ما لا يحصى من هذه اللحظات. وأن على الكاتب أن يلتقط خيوطها ويغزلها ويضفرها ويقدّم في نهاية المطاف النَّسْجِيَّة الكبيرة التي تشبه في حجمها وجلالها المعنى الكبير المُكَوَّن، كما أسلفت، من منمنماتها الصغيرة. فتُذَكِّر أن وراء المعنى الكبير لحظات بسيطة لبشر بسطاء لا بالمعنى الممجوج للكلمة (معنى فقراء أو غير مسيّسين)، بل بشر مثلي ومثلك، يحتاجون ساعة نوم، وشربة ماء ولقمة تسدّ الجوع، وكلمة طيبة تنمّ عن الاحترام وهو ما نسميه بلغة السياسة «الكرامة».

في الشهور التالية سوف أنزل الميدان مرات عديدة. أدهن الجزء المجروح من رأسي بمرهم (لزوم الحماية من حرارة الشمس)، وأعتمر زيادة في الحرص، قبعةً كبيرة نسبيًّا (يضحك منها تميم).

أحمل علمًا تفوقني ساريته طولًا، وأنزل الميدان. أحيانا يصحبني تميم وأحيانا ترافقني لبنى زوجة أخي الأصغر وائل، وهي جارتي تسكن في الشقّة المجاورة، وعادة ما ننزل معا للمشاركة في المسيرات. وأحيانا نغادر البيت في موكب أسري صغير أنا ومريد وتميم ولبنى وابنها هشام. ثم نلتقي في التحرير بماهرو زوجة حاتم وميّ ابنته القادمتين مع مسيرة انطلقت من جامعة القاهرة وعبرت إلى التحرير من كوبري قصر النيل. نشارك الخلق الهتاف والمُطالبة، أو نتجوّل في أنحاء الميدان، وحين يغلبني التعب أنتحي جانبًا بالقرب من المُجَمَّع، وأجلس على الرصيف. في الميدان، سألتقي بأحمد جمال القادم من الزقازيق، وبمحمد أبو الغيط القادم من أسيوط، وبالدكتورة منار الخولي وكانت كلمتني في التليفون قبل أكثر من عشر سنوات، وإن لم نلتق أبدا. وسأتعرّف بعادل صليب وإبراهيم الهضيبي وغيرهم ممن لم أكن أعرفهم من قبل. وسألتقي بالعديد من أصدقائي وزملائي ومعارفي وتلاميذي الذين درّست لهم قبل أعوام قليلة أو كثيرة في جامعة عين شمس. وعادة ما كان يأتي شباب وصبايا يتعرّفون عليَّ لأنهم قرءوا لي كذا أو كذا. يكتفي الأولاد بالمُصافحة، تُقَبِّل الفتيات وجنتيَّ، يقفن بعض الوقت معي للحديث. أما نوّارة نجم التي كنت أتصل بها ما إن أصل الميدان، فتأتي للقائي أو تقف معي، وحين أغادر تصحبني إلى البيت. وكذلك تفعل لينا مجاهد، تصر على مصاحبتي إلى البيت كأنها مسئولة عني. لا أقول لها إنني في داخلي أبتسم للمفارقة لأنني أعرف أمها صفاء مراد وهي صبيّة دون الخامسة عشرة.

في المليونيّات، تصعب الحركة في الميدان. أذكر أنه في يوم الثامن من يولية (وكان تميم عاد إلى مصر)، لم نتمكّن من قطع الميدان إلا في ثلاثة أرباع الساعة. وكان أعضاء مجموعة استقلال الجامعة اتفقوا أن يلتقوا أمام دار الأوبرا في الجانب الآخر من كوبري قصر النيل ويتجهوا في مسيرة من أساتذة الجامعات إلى التحرير فيدخلوه معًا بعد قطع الكوبري. غادرنا البيت ووصلنا إلى تقاطع شارع طلعت حرب مع الميدان قبل نصف ساعة من الموعد. وساعدنا شاب تعرّف على تميم، على المرور بين الحشود المتكاتفة بما لا يترك موقعًا لقدم. تميم ومُريد يسيران خلفي والشاب أمامي: يكرّر: لو سمحت، لو سمحت، وسّع للحاجّة. يشقّ لنا طريقًا صعبًا بين مئات الآلاف من البشر. بعد نصف ساعة كنا قطعنا جانبًا من الميدان، ولما انفرج الزحام قليلًا بالقرب من الجامعة العربية هرولنا باتجاه الكوبري. لم أتمكّن من اللحاق سوى بذيول المسيرة التي ذابت صفوفها الأولى وسط الخلق في التحرير. وجدت نفسي أسير بجوار زميلتين لي من جامعة القاهرة: الدكتورة هدى الصدّة والدكتورة أميمة أبو بكر. قلت الحمد لله لا قنابل مسيِّلة للدموع اليوم، إذ تذكّرت وقفتنا قبل أكثر من عشر سنوات أمام بوابة جامعة القاهرة تضامنًا مع الانتفاضة الفلسطينية الثانية. ثم فجأة بدأ الضرب المُكَثَّف للغاز. التهبت وجوهنا واحمرّت وانسالت الدموع من عيوننا، ولكن حالة هدى الصدّة كانت مختلفة، لأن حُمرة وجهها كانت تضرب إلى زرقة وكان واضحًا أنها تعاني من اختناق، ركضنا بها لنبحث عن مكان يكون الغاز فيه أقل كثافة. مرّ الأمر بسلام.

لاحقًا اتضح أن هدى الصدّة مُصابة بحساسية في الصدر. كدت أذكّرها بذلك اليوم ولم أفعل إذ كان ذيل المسيرة تجاوز المنطقة المتاخمة للكوبري ومبنى جامعة الدول العربية وبدأ يشقّ بصعوبة طريقه وسط الآلاف المؤلّفة التي تملأ الميدان.

بعدها سننتحي جانبًا بالقرب من المُجَمَّع وسأجد العديدين من زملائي وزميلاتي، كأنما كنا على اتفاق مسبق باللقاء في هذا المكان. كانت ليلى سويف وهاني الحسيني ومديحة دوس وغيرهم من أعضاء المجموعة يقفون قرب الباب، ومعهم أهداف سويف. وكانت عواطف عبد الرحمن وثريّا عبد الجواد وهبة الظواهري وليلى موسى وآخرون يتوزّعون هنا وهناك على الأرصفة. قلت لنفسي: نعم الكثير منا في الستين أو على مشارفها لكن الوضع يختلف، يختلف تمامًا، يختلف كل الاختلاف. كنت أفكّر في أيام كنا ننزل فيها لوقفة احتجاجية ولا يزيد عددنا على بضع مئات. أفكر تحديدًا في واقعتين بعينهما إحداهما ليست في الميدان بل في نقابة المحامين حيث ذهبنا لحضور ندوة ما، ضمن نشاطنا المعارِض. وذهلت حين وجدت باب النقابة وعلى الرصيف المقابل المئات من قوّات الأمن ونصف دستة من سيارات الأمن المركزي الزرقاء الكبيرة، ودستة ضباط يجلس بعضهم على كراسي في الشارع يحملون الأجهزة اللاسلكية. لماذا؟ لأن حوالي ثلاثين سيدة، أغلبهم تجاوز الستين يحضرن ندوة!! أذكر منهم فاطمة زكي زوجة نبيل الهلالي وثريّا إبراهيم وثريّا أدهم وعظيمة الحسيني. باختصار

سيدات غزا شعرهن الشيب أو الأدق انفرد تمامًا به فصار كله أبيض كالقطن. بعضهن يستند إلى عصا.

أما المشهد الثاني فقد ثَقُلَ عليّ وقلّب المواجع والأحزان. جرى بعد الواقعة الأولى بسنوات، لأننا كنا انتزعنا حقنا في التظاهر في التحرير، وإن لم يكن الميدان مشاعًا لأن الأمن كان يُشَكِّل حواجز وممرّات من صفوف متراصّة من الأجسام والخوذ، بما يحصر المظاهرة في منطقة محدّدة، غالبًا عند رصيف الجامعة العربية غرب الميدان أو عند الساحة المعبّدة الملاصقة لمدخل مُجَمَّع التحرير. كنا حوالي مائتي شخص، أو ربما ثلاثمائة، نهتف ونطالب. درت بعينيّ ففاجأني أن عددًا لا يستهان به منا، الثلث أو ربما النصف، من المسنّين، نشطاء الأربعينيّات والخمسينيّات وخرّيجي معتقلات الستينيّات. بدوت وأنا على مشارف الخمسين آنذاك من شباب المظاهرة. يومها عدت مكتئبة إلى البيت. ولو كنت أقرأ الغيب لعرفت أنه لا داعي للاكتئاب. أراجع الكلام: لم يكن هناك داع لقراءة الغيب بل مجرد القراءة: ففي اليوم الذي ضُربنا فيه بالغاز أمام بوابة جامعة القاهرة، وكدنا نفقد زميلتنا الدكتورة هدى الصدّة، في نهاية عام ألفين، كان المشهد واضحًا والحِسْبَة بسيطة، إن دققت النظر.

كنت صففت سيارتي داخل الجامعة. وكان الأمن يجعل الخروج من البوابة الرئيسية للجامعة غير ممكن، فخرجت بعد انتهاء وقفتنا، من الباب الخلفي الأقرب إلى كليتَي الاقتصاد والإعلام. انحرفت بسيارتي يمينًا ثم توقّفت لأن السيارات كلها كانت متوقّفة. ثم

رأيت مظاهرة كبيرة لدعم الانتفاضة من أطفال المدارس، تشي أجسامهم الصغيرة أنهم في المرحلة الابتدائية أو ربما في الصف الأول من المرحلة الإعدادية. الأطفال يركضون وجنود الأمن يركضون وراءهم ويقذفونهم بالغاز المُسَيِّل للدموع. والصغار، رغم الغاز، يواصلون الهتاف والركض فلا يلحق بهم جنود الأمن ولا عصيّهم الغليظة. مجرد القراءة وحِسْبَة بسيطة تكشف أن عشر سنوات مضافة إلى أعمار هؤلاء الصغار تجعلهم شبابًا في مطلع العشرينيات، يخطِّطون لمظاهرات كبيرة يفتحون بها الباب لمشاركة جموع الشعب، فتكون ثورة.

الفصل الحادي عشر

الراحلون

نجتمع ظُهر الجمعة في بيت أمي، لأن حاتم وماهرو اللذين تركا بيتهما كرمًا، وانتقلا للإقامة مع أمي بعد وفاة أبي وقاما برعايتها هي وعمي طوال عشرين سنة، أبقيا على التقليد الأُسَرِيّ بعد رحيلها: يجتمع الأبناء وأزواجهم والأحفاد وأزواجهم، وأطفالٌ ثلاثة هم أبناء الأحفاد، على مائدة أيام الجمعة وأول أيام العيدين ويوم شم النسيم.

كان تميم وهو طفل يسأل أحيانًا: «هو يوم الجمعة، جمعة ولَّا مش جمعة؟»، الذهاب إلى بيت جدّته هو معنى اليوم، فإن لم يذهب لا يغدو اليوم يوم جمعة وإن احتفظ بالاسم. ولم يكن اجتماعنا وحده هو ما يثير الصغار، لأن جعبة حاتم لا تخلو من مفاجآت لهم (وهذا أيضا تقليد التقطه حاتم من أبي ومن مربّيتنا حميدة أم جلال، رحمهما الله). في طفولتنا، كان جرير المُهر الذي فاجأنا به أبي ذات يوم هو موضوع الصخب والإثارة. في طفولة أولادنا كانت الأرانب التي تأتي بها دادا

حميدة، والديك الرومي الذي يخافونه ويجذبهم كأن به مغناطيسًا لا يقدرون على مقاومته. ثم استلم حاتم مهمة إسعاد الصغار: هذه العنزة ماتت أمها فخِفت عليها من التيوس؛ فقررت أن آتي بها. هل يمكن يا ميّ أن تعتني بها؟ عنزة سوداء، تكاد قوائمها الرفيعة، رغم طولها، تحملها بالكاد. تتولى ميّ، رعاية العنزة، تدفئ لها الحليب وتضعه في زجاجة رضاع، ترضعها كالوليد فتتبعها العنزة كظلها، فإن غادرت ميّ الحديقة ودخلت البيت تتبعها العنزة إلى الصالة وغرفة الصالون، وإن صعدت السلم الخشبي المؤدي إلى غُرف النوم في الطابق الثاني تصعد خلفها. تستنكر أمي وجود عنزة في البيت تتنقل بحرية على السجّاد، أو ربما تقضي حاجتها عليه. تحتجّ، ونضحك لأن عدوى الطفولة امتدَّت إلينا (من العنزة الصغيرة أو من الصغار الصاخبين من حولها)، نريد أن نحملها ونُرضعها ونداعبها.

وفي يوم أطلعنا حاتم على صورة لثعلب صغير، قال: وجدته في الفيوم. ما رأيكم، هل آتي به؟ في الصورة بدا الثعلب مدهشًا، صغير الخطم والجسم، يختلط شعره الكستنائي الفاتح بلون فضيّ. ولم تكن عينا الصغير، كالمعروف عن الثعالب، لامعة بضوء المكر بل فيهما نظرة براءة لا تخلو من الخوف والتوجّس. صاح بعضنا محبذًا الفكرة وسكت البعض الآخر، أما ماهرو، زوجة حاتم فقد حسمت الأمر: ثعلب في البيت؟! أفزعها مجرد الاحتمال. ثم لا، قاطعة.

الحصان أو العنزة أو الديك الرومي أو الأرانب أو الثعلب المُحْتَمَل، من المتغيّرات التي ترتبط بسنة ما أو شهور بعينها، أما

الكلاب فهي من الثوابت. وهو تقليد بدأه طارق المُغْرَم بالكلاب منذ طفولته. دائمًا هناك كلب ما أو أكثر، صغير أو كبير، هادئ أو شرس، يثير الصغار، يريدون ملاعبته أو النظر إليه من بعيد موزّعين بين البهجة والجزع.

أقوم عن الكتابة لدخول الحمام، وقبل أن أدخل أحكي لتميم عن المقطع الذي أكتبه. سأل: هل حكيتِ عن توسكا؟ تطلّعت إليه مستفسرة، حكى: كانت تحبّني لأنني، ونحن نلعب في مدخل البيت ذات يوم (ربما كنت في السابعة أو الثامنة من عمري)، تمدّدت على الأرض مدَّعِيًا أنني ميت. أخذت توسكا تشمشم فيّ من رأسي إلى قدميّ. ومن يومها صارت تألفني وتحبّني وتتعرّف على رائحتي، وإن كنت في أول الشارع لم أصل البيت بعد. كان عمّ سلامة البوّاب، يضربها بلا سبب، فكنت أكرهه. وضعتْ توسكا جروًا مات. ولما مات تبنّت قطة صغيرة لا نعرف أين ذهبت أمها. عمّ سلامة سرّب القطّة. وأين ذهبت توسكا؟ أخذها خالي طارق، ثم صدمتها سيارة. يحكي تميم كأن توسكا تحرّك ذيلها احتفاءً به ونحن نقف بباب الحمام، وكأن عمّ سلامة ضربها قبل دقائق، وكأن الجرو الذي مات والقطّة التي اختفت ثم توسكا نفسها التي صدمتها سيارة أمور لم ينقضِ عليها ربع قرن، تَخَفَّفَ من توهج مشاعره بما فيها غضبه على عم سلامة، إذ أنهى حكايته بالدعاء عليه، لأنه بلا رحمة.

أعود لمفاجآت حاتم التي لا تقتصر على الحيوانات الأليفة بل تمتد إلى الألعاب الخشبية، لأن حاتم، جرّاح العظام، يتقن أعمال

النجارة ويحبها. يفاجئ الصغار بأرجوحة كبيرة: لوح خشبي ممتد مُصَنْفَر ومطليّ بعناية، يجلس طفلان على جانبيه، ينزل هذا بثقله فيرتفع ذاك، يهبط زميله فيعلو هو، وهكذا دواليك. زحليقة نساعد الصغير أو الصغيرة على صعود سلالمها الثلاثة ونجلسه أو نجلسها على أعلى اللوح فتنزلق بسرعة هابطة لتتلقفها يد أمها أو غيرها من الكبار. بيت خشبي مُلوَّن بالأحمر والأخضر له نافذة كبيرة، يقرر الصغار أنه دكان يبيعون فيه وهمًا لبعضهم البعض. مكتب صغير أخضره زاهٍ له كرسيه المطليّ باللون نفسه، يصلح لطفل دون الرابعة، لا يستخدمه في قراءة أو كتابة بل في تسيير سيارات منمنمة يلعب بها.

في أول يوم جمعة يلتئم فيها شمل العائلة بعد عودتي من رحلتي العِلاجِيَّة، كان البيت صاخبًا كالمعتاد وربما أكثر صخبًا. وانضمت إلينا خالاتي وبعض بناتهن. أساير الصغار والكبار، وإن شغلني غياب أمي، وغياب طارق، ربما لأنها الجمعة الأولى من هذا النوع التي أشارك فيها بعد رحيلهما. لم أصعد إلى الطابق الثاني حيث غرفة نوم أمي. لم أعرف إن كانت الغرفة مغلقة أو مفتوحة، وأي ملاءة من ملاءاتها مفروشة على سريرها. لكن مقعدها في الطابق الأول إلى يمين الداخل إلى الصالون، كان مقعدها، وكرسيُّها إلى يمين الجالس عند رأس مائدة الطعام، كان كرسيَّها، أيًا كان الجالس عليه ذلك اليوم، أراها فيه، جالسةً عليه. جلسنا في هذا الصالون آلاف المرات، ونحن نسكن في بيت المنيل ثم بعد انفرادنا كلّ بمسكنه والذهاب إليه زائرين. الصالون الأليف بمقاعده وأريكته، وصورة جدّي المُلَوَّنة

المُعَلَّقَة إلى يسار الداخل، وصورة أبي بالأبيض والأسود إلى يسار النافذة على الحائط المقابل للباب. واللوحتان الزيتيتان الكبيرتان اللتان رسمَتهما أمي ولم تتم العشرين من عمرها، وبينهما مستنسخ من لوحة مستطيلة نُسِخَ عليها القرآن كاملا بخط مُنَمْنَم. كلها مُعَلَّقَة على الحائط إلى يمين الداخل. وعلى الموائد الجانبية في أطر صغيرة من الفضة، عشرات الصور لنا ولأطفالنا، وصورة لأبي وأمي تعود إلى الأربعينيات. ثوابت الصالون هي ثوابته. ذكرياتنا فيه كموج البحر تستعصي على الحصر والقياس. رغم ذلك تتصدر ذاكرةٌ بعينها لطارق قبل تسعة أو عشرة أشهر من رحيله. هل كانت الفحوصات أكدت طبيعة مرضه أم كان منهكًا يعاني من وطأة مرض لم تتحدد بعد ملامحه؟ لا أدري. حين دخلت الصالون، وجدته جالسًا على مقعد أمي يحيط حفيده بذراعيه، والصغير مستكينٌ على صدره، شبه نائم. رأس الصغير، محمد ابن الرابعة، مستندٌ إلى كتف جده، يكاد يصل إلى عنقه، وطارق يميل برأسه خفيفًا كأنه يوشك أن يستند برأسه إلى رأس حفيده.

ورغم تعدّد اللحظات التي تَخُصُّ طارق في هذا الصالون في الشهور السابقة لرحيله، والتي يتصدّر منها جلوسه في وجود أمي، في أبعد مقعد عنها، كأنه يخشى إن اقترب والتقت عيونهما أن يبكي أو يبوح لها بألمه، وهو ما حرص ألا يفعله حتى رحيله، إلا أن صورته وهو مستكين إلى الصغير المستكين على صدره صارت من ثوابت هذا الصالون، في ذاكرتي.

انتقلنا إلى هذا البيت عام ١٩٥٥، وكان أكبرنا طارق على وشك أن يتمّ الثانية عشرة، وأصغرنا وائل في الرابعة من عمره. يقيم معنا فضلًا عن أبي وأمي، عمي السيّد الذي لم يفترق عن أبي منذ انتقلا من بلدتهما في الشرقية إلى القاهرة للدراسة في العشرينيات (لا أدري في أية سنة، ولكنني أعرف أنهما سنة ٢٧ كانا يدرسان في القاهرة، لأن عمي قال لي إنهما شاركا في جنازة سعد زغلول وهما تلميذان في مدرسة بَمْبَاقَادِن الثانوية). وكانت تشاركنا البيت مربيتنا دادا حميدة. وجدّتي لأبي، فاطمة التي كنا نسميها «ست الحاجَّة».

رحل الخمسة الكبار (أعني جدّتي ومربيتنا وأبي وعمي وأمي)، رحلوا بهذا الترتيب تباعًا. وأخلّ طارق بالقاعدة لأنه سبق أمي إلى الرحيل ونبّهنا إلى أننا، أقصد نحن الإخوة الأربعة الذين عاشوا طفولتهم في هذا البيت، لا يفصلنا عن الموت سوى باب مفتوح.

ولكن البيت المستتبّ في مكانه منذ العشرينيات من القرن الماضي والذي اشتراه المحامي في الخمسينيات، من حرّ ماله واجتهاده في عمله، ظل عامرًا بذرِّيته من بعده. لم يعد طارق ورضوى وحاتم ووائل هم من يركضون في حديقته أو يلعبون الكرة على سلّمه الرخاميّ العريض أو ينطلقون كعواصف صغيرة هوجاء في أركانه، بل أولادهم: عمر ومها وتميم ومصطفى، ثم ميّ وهند وأحمد وهشام.

المحامي الذي لم أره يبكي طول حياتي، شاهدته يبكي حين زارنا قريب لنا يعمل في مجال المحاماة وقال له: تفتقدك المحكمة، تقول أين مرافعاته البليغة. انتحب. بعدها بأسبوعين رحل. ولما رحل

قالوا للصغار من أحفاده إنه سافر. ولما أردت السفر للحاق بمُريد في بودابست، فزعت هند وميّ وكانتا دون الرابعة. صاح وائل في ابنته: يلّا يا هند (تبعته هند صاغرة، وقد زادها صياح أبيها اضطرابًا على اضطراب). غادرت معه إلى بيتهما. أما ميّ فتعلّقت بعنقي وراحت تصيح: «ما تسافريش يا عمّتي. ما تسافريش». تبكي وتكرر بحرقة: «ما تسافريش يا عمّتي». وبعد طول محاولة ونفاد الصبر، حاول حاتم أن يأخذها مني عنوةً فزادت تشبثًا بي وانقلب صياحها إلى فزع هستيري.

أُذكِّر ميّ بالواقعة، أضيف: ولأنكِ كنتِ وجدتِ زجاجة عطر مركّز، لا أدري مَن أتى بها ولماذا، ربما استهواكِ صِغَر الزجاجة غير المعهود ففتحتِها فانسكبت عليكِ. لأسبوعين يا ميّ لم يُجْدِ حمام ولا ملابس مغايرة، ولا السفر من قارة إلى قارة في التخلّص من تلك الرائحة النفّاذة. كانت قوية ومزعجة. تضحك ميّ وأشاركها الضحك.

كبرت ميّ. تخصصت في اللغة الصينية وأصبحت مُترجمة. وكبرت مها. درست الاقتصاد وتزوّجت وأنجبت ولدين. وهند أيضا تخرّجت من الجامعة، درست اللغة الإنجليزية وآدابها وأصبحت مدرِّسة، وتزوجت. ومصطفى الذي كان طفلًا نحيلًا، هادئًا ومحبًّا للقراءة، ينتحي جانبًا من السلم الخشبي في بيت المنيل، يجلس على درجة من درجاته، ينهمك في قراءة قصة من قصص المغامرات، نناديه عليه لتناول الغداء فيمشي ببطء، لأن الكتاب في يديه مفتوح أمام عينيه، يواصل القراءة فيه، يترك لقدميه مُهِمَّةَ نقله إلى غرفة الطعام، كبر مصطفى وصار أكثر الأحفاد طولًا، تخرّج من كلية

الهندسة وصار متخصصًا في مجال البرمجيات. عمر، شقيقه الأكبر، صار أستاذًا جامعيًّا، أما تميم الذي يصغر عمر ويكبر مصطفى فصار شاعرًا، رغم تخصّصه في العلوم السياسية وتدريسه لها في الجامعة. واستجدّت على الصالون فضلًا عن الصور الصغيرة في الأطر الفضيّة للأولاد والأحفاد، صورتان ملوّنتان لميّ وأحمد معلّقتان على الحائط المواجه للباب إلى يمين النافذة، رسمتهما جارتنا السيدة حياة النفوس رحمها الله، وكانت رسّامة لها مكانتها منذ نهاية الأربعينيات، تعمل مُفَتِّشَة للتربية الفنية. لم ترسم السيدة حياة النفوس لوحتيها بالأسلوب الكلاسيكي الذي تعلّمته أمي من راهبات «العائلة المقدسة» في حلوان قبل زواجها، بل رسمتهما بألوان ساخنة تعكس إحساس السيدة بالطفلين، وتستحضر ألوان فان جوخ وغيره من فناني ما بعد التأثيرية.

هذه هي ذُرِّية المحامي الذي رحل في الثالثة والثمانين من عمره، ومَيّة، ابنة الدكتور عبد الوهاب التي كانت قبل زواجها تَنْظمُ الشعر وترسم اللوحات الزيتية وتتعلّم العزف على البيانو الأسود الكبير في بيت أبيها. وانقطعت، على مضض ربما، لكي تخلّف أطفالا يكبرون ويُخَلِّفون بدورهم أطفالًا، فيُعَمِّرون البيت الذي اشتراه المحامي في يوم ما من سنة ١٩٥٥ . يجتمعون فيه يوم الجمعة، فيقولون ضمنًا وصراحةً إن الحياة، رغم كل شيء، تتجدد وتتجاوز وتستمر، وإن الموت، تؤَطِّرُهُ الحياة، فهي تسبقه وتليه، وتفرض حدوده، تحيطه من الأعلى والأسفل ومن الجانبين.

هذا يقيني، ولذلك كنت قبل الثورة، وفي أحلك الظروف، على يقين أن الأمور لن تبقى على ما هي عليه. وتعزَّز اليقين حين خرج الشباب إلى الشارع في الخامس والعشرين من يناير ثم تعاظم الخَلْقُ من حولهم فتحوّلت المظاهرات إلى ثورة. وحتى عندما ارتبك المسار لم يهتز اليقين. لأنني ساذجة؟ لأنني متفائلة إلى حد البلاهة؟ لأنني أؤمن بقشة الغريق فلا أفلتها أبدًا من يدي؟ ربما، وإن كنت لا أعتقد ذلك، لأن الحياة، في نهاية المطاف تغلب، وإن بدا غير ذلك. ولأن البشر راشدون مهما ارتبكوا أو اضطربوا أو تعثّرت خطواتهم. ولأن التاريخ كما سبق أن قلت في مكان ما، أشبه ببستان مكنون في باطن الأرض، له مسالكه وتعرّجاته ومجاريه المتشابكة. ولأن النهايات ليست نهايات، لأنها تتشابك ببدايات جديدة. لا أفكّر الآن في أبي وأمي وذرّيتهم الممتدة إلى عُمر الصغير؛ أصغر الأحفاد، ابن مصطفى وزوجته دينا، بل أتوسّع في الكلام ليشمل شهداءنا. أفكّر في مينا دانيال وعماد عِفّت ومحمد محسن وعلاء عبد الهادي وجيكا وأَنَس والمئات الآخرين ممن نُقلوا من المشرحة إلى مقابر تضم رفاتهم. وأعرف أن قبورهم لن تذهب بَدَدًا، تظل رسائلها الباطنية تسري في الأرض، تروي البستان المكنون الذي يفاجئنا بطرحه.

الفصل الثاني عشر

من الطابق الرابع إلى قصر الزعفران

استلمت عملي في الجامعة يوم الأحد التاسع والعشرين من مايو ٢٠١١. لم يعد هناك مجال كما تصورت عند سفري لإكمال المُقَرَّرَيْن الدراسِيَّيْن اللذَيْن كنت بدأتهما في أول العام الدراسي.

وكنت أشرت لذلك في طلب الإجازة المرضية الموجّهة إلى العميد يوم الثاني والعشرين من نوفمبر من العام السابق.

«آمل ألا يؤثر غيابي بشكل سلبيّ على التزاماتي تجاه الجامعة والتي تقتصر هذا العام على تدريس مادتَي «النقد النظري» و«الأدب المقارن» لطلاب الدراسات العليا. وأطمح إن شاء الله، في تعويض هذا الغياب بثلاث وسائل. أولها إعطاء محاضرات إضافية بعد عودتي إلى العمل. ثانيها: توجيه الطلاب إلى برنامج قراءة مُحَدَّد يتصل بالمادتين، يُسألون فيه بعد عودتي. وثالثها محاولة إيجاد ترتيب مع الأستاذ الدكتور مصطفى رياض رئيس مجلس قسم اللغة الإنجليزية

وآدابها، لكي يتابع أيٌّ من زملائي المتخصصين ما قرأه الطلاب ومناقشتهم فيه، لأن درس الدراسات العليا أقرب إلى «السمينار» منه إلى المحاضرة التلقينية».

ولكن كما قال جدُّنا الكبير أبو الطيب: «ما كل ما يتمنى المرءُ يُدرِكُهُ... تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ». امتد تعطّلي عن التدريس الذي قدّرت أنه لن يتجاوز، إن طال، أربعة أسابيع (لأن الأسبوعين التاليين كانا عطلة نصف السنة)، إلى العام الدراسيّ كلّه، وقامت زميلتان من زميلاتي بتدريس المادتين، وتحملتا بالتالي مسئولية امتحان الطلاب فيهما.

ولكنني كنت سعيدة بالعودة إلى القسم والكليّة وبلقائي المرتقب بطلابي وزميلاتي وزملائي والعاملين في القسم. ويبدو أن افتقادي لهم وانشغالي بلقائهم ولهفتي على الرجوع إلى مكتبي الذي هو مكتبي منذ ما يقرب من أربعة عقود، (لم أغيّره إلا لثلاث سنوات رأست فيها القسم، فانتقلت إلى الغرفة المجاورة المخصصة لرئيس/ ة القسم ولاجتماعات مجلسه، عدت بعدها إلى المكتب نفسه، ألتقي فيه بمن لديه استفسارات من الطلاب، وبالباحثين الذين أُشرف على رسائلهم، وأدرّس فيه مقررات الدراسات العليا التي لا يزيد عدد طلابها غالبًا على اثني عشر. وتجتمع أيضا فيه اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة طوال فترة رئاستي للجنة). ترقّب اللقاء جعلني أدخل الجامعة وأصفّ سيارتي وأصعد إلى الطابق الرابع، دون أن أنتبه للمُتَغَيِّرات.

فلما سألتني زميلة لي وهي تبتسم: صفي شعوركِ وأنت تدخلين الجامعة بعد رحيل الحرس؟ تورّد وجهي وقلت كمن اقترف ذنبًا: لم أنتبه.

وجدت مكتبي على حاله، في نهاية الغرفة القِبْلِيَّة إلى يمين الداخل من السلم الجانبي الصغير، ووراءه النافذة الزجاجية الكبيرة، حتى كومة الدوريات التي تأتيني في البريد فيضعها السعاة على طرف المكتب الملاصق للحائط، كانت مكانها. وكذلك مستنسخ لوحة بُرْهان كاركوتلي تحت اللوح الزجاجي على سطح المكتب، مستنسخ كبير للوحة مرسومة بالحبر الأسود لقباب القدس ومآذنها وأبراج كنائسها. يعلوها ويتصدّرها قرص كالشمس مكتوب في داخله: «القدس لنا والنصر لنا»، يجاوبه في أسفل اللوحة قبة الصخرة والسور الممتد للأقصى مزيّنا بالنخيل وزخارف لطيور وزهور ونباتات تستلهم التراث الشعبي. لو عانقتُ المكتب أو قبّلته كما قبّلت زميلاتي لقالوا رضوى فقدت عقلها، تطلّعتُ إليه وقدّرت أنه سيفهم التفرقة الاضطراريّة في المعاملة.

أثناء وجودي في القسم ذلك اليوم لم أسْتَعِد شيئًا ولا تأمّلت ما جدّ، ولكنني في الليل حين أويت إلى فراشي، تكاثرت التداعيات وتشعَّبت. لم تقتصر على رحيل الحرس الجامعي وحكم المحكمة وواقعة الرابع من نوفمبر، بل امتدّت إلى حياتي في الجامعة وما لا يُحصى من الوقائع، ومن مرّ عليّ من رؤساء الجامعة وعمداء الكليّة، ومن فعل كذا سنة كذا، وما يَسُرُّ وما لا يَسُرّ، على مدى أربع وأربعين

سنة هي عمري في التدريس في الجامعة، منذ كُلِّفت معيدة، ولم أبلغ الثانية والعشرين ولا يتجاوز وزني الخمسين كيلو، صبية يصعب تمييزها عن الطلاب الذين تدرِّس لهم، تحب التدريس فتحسنه فيكافئها الطلاب بالإنصات والاهتمام والمحبة.

أين ذهب هاني هلال الذي أفرج عني في جريدة الوفد؟ لم يكن بعيدًا عن التداعيات وإن لم يتصدّرها. وعندما حضر فيها وجدتني أقول لنفسي: مسكين، دائمًا ما يخطئ الحساب. نعم لم تكن المرة الأولى. إذ كان السيد الوزير قد قرر قبل عامين أو ثلاثة أن يرفع اسمي من اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة ومن لجان الفحص. تصوّر أن في قراره عقابًا لي على مواجهتي له في جلسة استماع في مجلس الشعب. لم يرِد بخاطره على ما يبدو أنه بقراره، يعفيني من مُهِمَّة مُكَلِّفَة لم أستطع الاعتذار عنها حرجًا (لأن الواجب واجب، في النهاية). كنت أمضيت خمسة عشر عاما في عضوية اللجنة، منها سبع سنين في رئاستها، (كانت رئاسة اللجنة بالانتخاب وانتخبني زملائي وزميلاتي للقيام بالمُهِمّة). وهو ما يعني ساعات لا تنتهي من فحص بحوث مُقَدَّمة للترقية، بعضها مُمَيَّز وبعضها الآخر متواضع أو مُمِلّ أو ضعيف يقلِّب أوجاع التعليم في بلادنا ويعكس كوارثه. أقرأ بتأنٍّ، لأنه لا يجوز تقييم بحث دون قراءته كاملًا وبدقّة، وإن كان المكتوب كما يقول المثل الدارج، يُقرأ من عنوانه. وقد يكون البحث منحولًا فتبدأ رحلة مضنية للبحث عن المصادر المنقول عنها، لأن تهمة السرقة العلمية تهمة شديدة الخطورة لا يمكن توجيهها إلا بتوفّر

أدِلَّة دامغة. وبعد القراءة المتأنّية أكتب تقريري الفردي عن كل بحث قيّمته. وبعد انعقاد اللجنة ومناقشة المتقدم في بحث أو بحثين من بحوثه ومضاهاة ما يخصّه من تقارير واتفاق اللجنة إن كان يرقى أو لا يرقى لوظيفة أستاذ أو أستاذ مساعد، أعود إلى البيت وأكتب تقريرًا جماعيًا عن كل متقدم أو متقدمة. وقد يكون المتقدّم نشيطًا فيدفع إلى اللجنة بخمسة بحوث أو ستة وأحيانًا سبعة. وقد يتضمّن إنتاجه العلمي كتابًا أو أكثر يضيف فيه جديدًا أو يُبَدِّدُ ما طُبع به من أحبار وما طُبع عليه من ورق (وإن كان لمؤلفه أو مؤلفته رأي آخر، لأن الكتاب يباع للطلاب، وفي الدفعات الكبيرة تكون الغَلّة مُجْزِيَة). ولما كانت اللوائح المُنَظِّمَة لهذه اللجان العلمية تقتضي أن يقيّم إنتاج كل باحث ثلاثة أساتذة مختلفين، أترك للقارئ الكريم والقارئة المحترمة، إن لم تكن التفاصيل أضجرتهما ودفعتهما للانصراف عني، أن يتخيلا كمّ العمل المنوط بالعبدة الفقيرة لله. يُضاف إليها مراجعة وتوقيع استمارات مكافآت الفحص، وترتيب الوثائق المتعلِّقة بكل باحث أو باحثة وتصويرها، وإرسال نسخة بالبريد المُسَجَّل إلى عميد الكليّة التي يعمل الباحث بها، ونسخة أخرى إلى المجلس الأعلى للجامعات، أضع كلًّا منها في مظروف كبير أغلق فتحته وأوقّع عليها بالوَرْب، وأضيف: سرّي للغاية. ولولا مساعدة طارق عبد العال سكرتير اللجنة الدقيق في عمله والمؤتمن عليه، لفقدت عقلي من ثقل هذا العمل أو ربما اختلّ توازني فغادرت البيت ركضًا وألقيت بنفسي في النيل ثم، حين يسقط الفأس في الرأس وأنتبه والماء يغمرني أنني أغرق، أعض بنان الندم لأن قرار التخلّص من حياتي لم يكن

مقصودًا بل جاء في لحظة مفاجئة من يأس وبؤس وإنهاك، وبعد قراءة أبحاث تصادف في ذلك اليوم أن كانت كلها رديئة.

وسينتبه القراء أن السيدة التي يتابعون حكايتها تستثقل العمل الإداريّ وتعتقد أنه يُنكِّدُ عليها حياتها. أما الوزير الذي أفرج عنها في جريدة الوفد، فيبدو أنه وُلد بضعف في عضلة الخيال، لم يتصور ثِقَل مسئولية عضوية اللجنة العلمية ورئاستها، وبدا له أن إعفاءها من تلك المهمة عقاب من نوع ما، أو تقليل من شأنها، رغم أن شأنها كله معلق على رواية تكتبها أو بحث تنجزه أو محاضرة ترضى عنها أو رسالة تُشرف عليها لباحث أو باحثة تُفْرِحُ قلبها، وتمدّ في عمرها.

* * *

لم أكن أفكّر في الوزير الذي أصبح بين ليلة وضحاها «الوزير السابق» ثم «الوزير الأسبق»، ولا في رئيس الجامعة الذي لم يكن حصل بعد على أي من اللقبين، في ذلك اليوم الخريفي قائظ الحرارة ونحن نغادر القسم ونتجه إلى كلية الحقوق لانتخاب مجلس إدارة نادي هيئة تدريس الجامعة. وقد يندهش القارئ، إن لم يكن ملمًّا بأحوال الجامعة المصرية ويتشكك في جِدِّيَة الكلام ويتساءل عن أهمية انتخابات من هذا النوع، وقد تحمله كلمة «نادي» على تخيّل رحلات في مراكب شراعية في النيل، أو أتوبيس سياحي يحمل الأساتذة والمعيدين وأسرهم في رحلة إلى القناطر الخيرية، أو قطار يقطع بهم الوادي لزيارة الأقصر وأسوان. ولكن واقع الحال أن نوادي هيئة التدريس في مختلف الجامعات المصرية، وبسبب غياب أي

شكل تنظيميّ يعبّر عنهم، بما في ذلك اتحاد يخصّهم أو نقابة تعبّر عن مصالحهم، كانت هي الشكل التنظيمي الوحيد المُتاح لهم. تمكّن أساتذة جامعة القاهرة والإسكندرية وبعض الجامعات الأخرى، من تحويل النادي إلى هذه الوظيفة منذ سنوات طويلة، وفشلنا في جامعة عين شمس، وعلى مدى سنوات (أشهد على أربعة عقود منها) في إحياء النادي وتفعيله. وبقيت الشقة المستأجرة من قِبَل إدارة الجامعة، في عمارة ما من عمارات وسط البلد (في شارع عبد الخالق ثروت أو شارع عدلي، إن لم تخنّي الذاكرة) والتي استنقذناها بضعة أسابيع في مطلع عام ١٩٧٣ حين اجتمعنا فيها وأصدرنا بيانات تساند الحركة الطلّابية وتعترض على اعتقال بعض الطلاب والطالبات، بقيت هذه الشقة مُهْمَلَة يتردّد عليها رجالٌ لا نعرفهم، يشربون الشاي ويلعبون طاولة الزهر.

سلّمٌ عالٍ مزدحم بالصاعدين إلى المُدَرَّج. صفوفٌ خارج القاعة من الأساتذة ينتظرون دورهم ليستلم كلٌّ منهم استمارة الانتخاب ويوقع باستلامها. وفي داخل المُدَرَّج جلوس أو وقوف، رجال ونساء، مسنّون وشباب. أساتذة عملوا عقودا في خدمة الجامعة، شباب وصبايا يعدّون رسائلهم العلمية، لم يحصلوا بعد على درجة الدكتوراه. أعتقد أن عددنا تجاوز الألفين. كان المشهد لامرأة مثلي تعرف تلك الشقة الكئيبة التي يلعب فيها رجالٌ مجهولون طاولة النرد فتسمع صوت الزهر وأحجار اللعبة وهي تتقاطع مع صوت ارتشافهم للشاي، مؤثرا.

هناك تعبير باللغة الإنجليزية عادةً ما يُستخدم للدلالة على مقاومة التغيير والتمسّك بموقف يصعب الدفاع عنه، وهو «داي هارديزم»، وترجمته الحرفية: الموت ببطء وصعوبة. والحق أن الدكتور ماجد الديب رئيس جامعة عين شمس وعددًا من رؤساء الجامعات المصرية وعمداء الكليات قدّموا لنا نماذج مُبْهِرَة لهذا «الداي هارديزم»، بالمعنيَيْن الحرفي والاصطلاحي. كانت الجامعة تشتعل بالمظاهرات منذ عودة الدراسة بها عقب الثورة. والطلاب وأعداد كبيرة من الأساتذة يطالبون بإقالة القيادات المُعَيَّنَة من الرئيس المخلوع مباشرة أو ممن عيّنهم الرئيس المخلوع، وهم، وإن لم يكونوا أعضاء في الحزب الوطني أو لجنة سياساته، ماهرون في ممالأة النظام وتلبية طلباته وطلبات وزارة داخليته.

في شهر يولية اعتبر مجلس الوزراء أن المناصب القيادية في الجامعة شاغرة بدءًا من أول أغسطس (أي قبل بداية العام الدراسي بأكثر من شهر)، ثم عاد وزير التعليم وأعلن أن وضع رؤساء الجامعات قانونيّ، وأن لهم أن يستقيلوا إن أرادوا، أو يستمرّوا في مناصبهم حتى انتهاء مُدَدِهِم. وأعلن المجلس العسكري، الحاكم بأمره طوال المرحلة الانتقالية، أنه يُفَضِّل أن يكون تغيير القيادات بإقناعها بتقديم استقالتها. ورفض إصدار مرسوم بقانون لإقالة هذه القيادات. وبصرف النظر إن كان هذا الارتباك مقصودًا، أي نوعًا من المراوغة أو كان تعبيرًا عن شدٍّ وجذب بين أطراف في السلطة، فإن جموع الطلبة لم يرُقهم هذا الحال المايل فقاموا بتظاهرات واعتصامات وإضرابات

في معظم الجامعات يطالبون باستقالة العمداء ورؤساء الجامعات. وبدت الاحتجاجات أشدّ من أي محاولة لقمعها أو احتوائها، مما دفع بعدد من رؤساء الجامعات ونوابهم وعمداء الكليات ووكلائهم إلى تقديم استقالاتهم. وظل المجلس العسكري يماطل. لم تُقبل استقالات رئيس جامعة القاهرة، وجامعة الفيوم، وجامعة بور سعيد وجامعة جنوب الوادي، على سبيل المثال، إلا بعد أكثر من شهر من تقديمها. وفي نهاية المطاف لم يبق إلا خمسة من رؤساء الجامعات لا يريدون أن يغادروا، منهم ماجد الديب رئيس جامعة عين شمس.

الفصل الثالث عشر

الزعفران

نسمّيه قصر الزعفران، وإن كانت بعض المصادر تشير له باسم قصر الزعفرانة. قصر جميل أوروبيّ الطراز، يمزج بين أسلوبين معمارِيَّيْن شائعَيْن في أوروبا القرن التاسع عشر: القوطي والباروك. وهو من القصور المتعددة التي أنشأها الخديو إسماعيل ضمن مشروعه في جعل مصر قطعة من أوروبا، وتحويل عاصمتها إلى باريس على ضفاف النيل، مشروع كلَّفه أموالا طائلة وانتهى نهاية بائسة بدأت بصندوق الدَّيْن والمفتشَيْن المالِيَّيْن، ولم تنتهِ بخلعه عن العرش لتبحر به المحروسة إلى منفاه في إيطاليا. لأن نهاية أخرى أكثر مأساوية ستحدث بعد ذلك التاريخ بثلاثة أعوام حين يوجه الكابتن سيمور مدافع بوارجه إلى الإسكندرية، فيقصفها ويحتلّها ويُنهي مقاومة أهلها، لتتقدم جيوشه وتجتاح البلد وتهزم عرابي في التل الكبير.

نغض الطَّرْفَ عن هذا الجانب الحزين من الحكاية، ونعود إلى القصر الذي أراده الخديوي مثل قصر فِرسايْ، والكائن حاليًا في حرم جامعة عين شمس، تشغله مكاتب إدارة الجامعة، وتحديدًا مكاتب رئيسها ونوابه وأمينها ومساعديهم. وهو يرتفع ثلاثة طوابق تُمَيِّزها شرفات من جهاته الأربع بعقود نصف دائرية تزيّنها زخارف زهور ونباتات من الجَصّ.

وكان الخديو أهدى القصر إلى والدته عام ١٨٧٢، أي بعد عامين من بنائه، لأنها كانت مريضة تحتاج إلى مكان نقيّ الهواء يساعدها على الشفاء. هنا أكاد أرى قارئة من سكان العباسِيّة تُحَدِّق فيّ بفم مفتوح وعينين مشدوهتين، لا تصدِّق أن العباسِيّة المزدحمة بالمارة والسكان والورش الصغيرة والسيارات والأتوبيسات والعوادم والأتربة والرمال، مكانٌ نقيّ الهواء. وقبل أن تتهمني القارئة بأن ما أقوله كذبٌ صُراح، وقبل أن يقطع عليّ قارئ آخر حبل أفكاري ويسأل عن معنى كلمة صُراح، أسارع بالتوضيح أن الهواء النقيّ الذي أشرت إليه يعود إلى الثلث الثالث من القرن التاسع عشر، والأرض الحالية لحرم الجامعة والمدينة الجامعية الملاصقة لها ومباني كلية التجارة والألسن والمستشفى التخصصي في الجانب المقابل، وشارع الخليفة المأمون الفاصل بينها، وربما مساحات أخرى متاخمة، تمتد إلى ميدان العباسِيّة والحيّ نفسه، وتشمل مستشفى الدمرداش وربما مستشفى دار الشفاء من ناحية، ووزارة الدفاع من الناحية الأخرى، وإدارة الأمن المركزي ووزارة العدل من جهة ثالثة، كانت كلها جزءًا من حدائق

القصر المترامية، وكان بعضها (أرجِّح أنه البعض الأقرب إلى القصر) مزروعًا بالزعفران. إذن كانت الوالدة باشا أم الخديو وأرملة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا الكبير، تُطِلُّ من شرفة غرفة نومها في الطابق الثاني، أو من أي من الشرفات الأخرى على هذا الزعفران، تستنشق رائحته الطيّبة، أو تشْخُصُ بنظرها في خضرة البستان، وهي تتأمل حال الدنيا، وربما حال الآخرة أيضا. (لدينا ما يفيد أن الموت كان يشغلها، لأنها اشترت زاوية الرفاعي المقابلة لمسجد السلطان حسن، بالقرب من ميدان القلعة. وأمرت ببناء مسجد كبير مكان الزاوية، هو مسجد الرفاعي الحالي. وأوصت بأن تدفن فيه هي وذرّيتها من بعدها، فكان لها ما أرادت، إذ دفنت فيه، ولما مات ابنها إسماعيل في المنفى نقل إلى مصر ودفن بجوارها. ولاحقًا سيدفن بجوارهما الكثير من أعضاء الأسرة بما فيهم آخر ملوك مصر، الملك فاروق).

وربما لا يضرّ الاستطراد، ولا يُفسد الكتابة بعض الثرثرة في موضوع طريف أو معلومة جدّت عليّ أرغب في مشاركة القرّاء فيها. وهذه المعلومة تخصّ الوالدة باشا، المقيمة في قصر الزعفران بغرض الاستشفاء. باختصار: كانت خوشيار أم خديوينا، شقيقة بِرتيف-نِهال أم السلطان عبد العزيز. أي كان خديوينا ابن خالة السلطان، رأس الدولة العثمانية. ابن خالته اللزم. وكانت برتيف-نهال، الوالدة سلطان (وتنطق الفالِدة سلطان) وهو لقبها باللغة التركية، أوصت في عام ١٨٦٩ ببناء مسجد في إسطنبول، فقلّدتها أختها في القاهرة، أو لم تقلِّدها بل استجابت لميل في العائلة يدفع مع تقدّم العمر إلى بناء

مسجد يُدفن فيه بانيه. ولكن الوالدة باشا لم تقلّد أختها الفالِدة سلطان ولم تفعل ما فعلته مع الإمبراطورة أوجيني، فينتقل الخبر ويتردّد ويشيع ويصير جُرسة وفضيحة، وسكاندال الصالونات الباريسية وغير الباريسية. صفعت بِرتيف-نِهال أوجيني على وجهها ما إن رأتها تدخل عليها، في قصر دولمة بَاغْ جَه، مع ابنها السلطان عبد العزيز متأبطةً ذراعه. فكيف لامرأة غريبة أن تدخل الحريم وتصل بها الصفاقة أن تتأبط ذراع السلطان؟! تقول الرواية الرسمية إن الوالدة سلطان لم تكن تعرف أن أوجيني هي الإمبراطورة الفرنسية، أما نحن فنقول بغرض الشغب وزرع الوساوس في النفوس، هل يمكن أن تزور الإمبراطورة أم السلطان بلا سابق علم وموعد؟ وهل هناك احتمال أن تكون الوالدة سلطان سمعت ما لا يَسُرّ عن الإمبراطورة الجميلة، فركبت رأسها و«طراخ» و«كرسي في الكلوب» كما يقول المصريون؟ ثم إن هناك احتمالًا آخر لا يمسّ بسمعة الإمبراطورة بل بغيظ مكتوم في صدر الوالدة سلطان من استعدادات لاستقبال الإمبراطورة دامت ثلاثة أشهر وقلبت البلد. فما إن رست سفينتها في البوسفور حتى حيَّتها المدفعية بمائة طلقة وطلقة، واستقبلها السلطان بنفسه. وأطلقوا الألعاب النارية وأضاءوا الشواطئ وأسوار البيوت بالفوانيس الملوّنة، كأنها ليلة العيد. ولا ندري لأن أحدًا من المؤرخين لم يفتِّش في خبايا الصدور، إن كانت دوافع الوالدة سلطان دوافع شخصية (أي من باب الغيرة وكيد النساء) أم سياسية (تحفّظ على هذا الاندفاع الأهوج في العلاقة مع فرنسا التي كانت على وشك الدخول في حرب مع بروسيا، وربما كانت الوالدة سلطان تساند بروسيا وتنحاز لها). الله

أعلم. وهو كذلك أعلم إن كانت الإمبراطورة حين جاءت إلى مصر، بعد زيارتها لتركيا مباشرة، لحضور افتتاح قناة السويس، التقت بأم الخديو أم تحاشت اللقاء بها لأن فرنسيًّا ما من حاشيتها أخبرها أن خوشيار أخت بِرتيف ـ نِهال، وبرتيف ـ نِهال أخت خوشيار. وربما وهذا احتمال آخر، تكون خوشيار هي التي تحاشت اللقاء، وقد سمعت من أختها أمورًا لا نعلمها عن أوجيني، وزادها همًّا، على همومها الصحية، استعدادات الخديو لاستقبال الإمبراطورة التي وصلت إلى حد بناء قصر لها أكبر من قصر الزعفران، رغم أنها لن تقيم فيه إلا بضع ليالٍ، تغادر بعدها بغير رجعة، إلى فرنسا.

وطبعًا سيُسر القرّاء المصريون ويضحكون من الواقعة لا لأنهم أجلاف، أو لأن النميمة والقيل والقال أمورٌ مسلّية تُسرّي عنهم وتخفف من همومهم، بل لأن أوجيني ترتبط في أذهانهم بافتتاح القنال والصرف الباذخ الذي نكبنا وتسبب في احتلال البلد وخرابها. كما أنهم لا بد سيشعرون بغلٍّ ما لأنهم، وهم يعانون من أزمة سكن ولا يجدون شقة من غرفة أو غرفتين ليزوّجوا فيها الولد أو البنت، يقارنون بين وضعهم وهذا القصر وحدائقه المترامية الذي شيده خديوهم لاستضافة أوجيني أثناء زيارة قصيرة. وقد يتزايد الغلّ فيغدو حقدًا ومرارةً لأنهم لا يستطيعون التردّد على القصر حتى بعد قرن ونصف من إنشائه، ولا الفُرْجَة عليه والاستمتاع بحدائقه وقد تحوّل إلى فندق خمس نجوم أو ربما سبع، ثمن الوجبة الواحدة فيه يقارب أو يتجاوز راتبهم الشهري. سيضحكون ويقولون في تشفٍّ: أحسن!

دخلتُ قصر الزعفران للمرة الأولى وأنا في الثانية والعشرين من عمري، ولم يكن لديّ أي معلومات عن القصر وإن استوقفني معماره الخارجي وسقفه العالي وأبوابه المرتفعة وكانت آنذاك، على ما أذكر، مطليةً باللون الأخضر الأقرب إلى قلب حب الفستق، لا يخلو من ظلال زرقة خفيفة. واستوقفتني أكثر واجهة كبيرة من الزجاج المعشّق لورود وزهور زاهية الألوان، كان بإمكاني التمعّن فيها وأنا أصعد السلم ببطء مقصود لكي يتاح لي تأملها، وإن لم أتمكّن من تأمل السقف وإطالة النظر في تفاصيل المكان، كنت معيدة صغيرة السن طلبها رئيس الجامعة. وأخيرًا حين سُمح لي بدخول مكتبه. صافحني وأعلمني أنه تم نقلي من كلية البنات (التي عُيّنْت للتدريس فيها بعد تخرّجي من جامعة القاهرة) إلى كلية الآداب، وكلاهما تابع للجامعة. كان واضحًا أن النقل عقاب من نوع ما. أنّبني رئيس الجامعة بسبب نشاطي في انتخابات أُجريت في الكليّة تمكّنت فيها مع عدد من زملائي من الوصول إلى نتيجة نراها عادلة، أغضبت الإدارة والجهات الأمنية. قلت بتهذيب: لا أعتقد أنني اقترفت أي خطأ. مارست حريتي في الانتخابات، تحاورت مع زملائي فاقتنعوا برأيي. ولا أدري إن كان كلامي فاجأه أو اندهش له واستطرفه. بدا أنه لن يعلق، ثم قال بسرعة: طيِّب يا ستي، خلِّي حريتك تنفعك. ثم طلب مني التوجّه إلى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب للقاء رئيس القسم وتسلّم العمل.

سوف أتردّد على القصر مرات متعددة ، طوال الأربعين عاما التالية، لتوقيع ورقة ما أو تقديم طلب، أو متابعة معاملة، (ولم يكن

مبنى الملحق الذي انتقل إليه موظفو الإدارة قد أنشئ بعد)، أو للقاء رئيس الجامعة أو أحد نوّابه، لأمر ما يخصّ القسم. أو قد نقف وقفة احتجاجية بباب القصر يتعيّن علينا بعدها أن نقدم مطالبنا إلى الإدارة فنصعد إلى مكتب رئيس الجامعة فيقال لنا إنه غير موجود فنسلّم بياننا إلى مدير مكتبه ونمضي. وهنا تتداعى ذكريات كثيرة تسترجع لقاءات مع هذا الرئيس أو ذاك، في هذه السنة أو تلك. وسيصعب أن أعرضها؛ إذ لا يقتصر كل لقاء منها على نقل المشهد والمشاركين فيه، ومن قال ماذا، بل سيمتد حتمًا إلى سياقه، ويتطلب بعض تفاصيل هذا السياق التي تجعل المشهد مفهومًا واضح الدلالة. سأكتفي إذن بمشهدين حدث أوّلهما قبل أكثر من ربع قرن، حين ذهبنا دون دعوة إلى رئيس الجامعة لمحاولة إثنائه عن قرار بحرمان النشطاء من الطلاب من دخول حرم الجامعة عقابًا لهم على المشاركة في مظاهرة أو كتابة جريدة حائط أو ما شابه. كنا مجموعة من خمسة: الدكتور حسام عيسى من كلية الحقوق، والدكتورة سعدية منتصر من كلية التجارة، والدكتورة عايدة سيف الدولة من كلية الطب، والدكتور عبد الخالق لاشين من قسم التاريخ بكلية الآداب، وكاتبة هذه السطور. ما إن دخلنا غرفة رئيس الجامعة وصافحناه وجلسنا حتى بادرَنا بالسؤال بلهجة أقرب إلى تحقيق صارم: ما الذي جمعكم، كيف التقيتم؟ بدا السؤالُ مضحكًا تتصدّر هواجسه الأمنية بشكل محرج. أجبنا: يا دكتور، هل نسيت أننا زملاء، نعمل جميعًا في هذه الجامعة منذ سنوات؟ ولكنكم من كليات مختلفة! دخلنا في الموضوع ورحنا نحاول إقناعه بأن منع الطلاب من دخول الجامعة

وبالتالي من حضور محاضراتهم غير مجدٍ، والدليل أنهم يقفزون من على السور، فماذا يحدث لو سقط أحدهم وأصيب؟ وماذا أفعل إن أثّروا على الطلاب فقاموا بمظاهرات ونتج عن ذلك إصابة البنات أو تعرضهن للأذى. تدارك: هؤلاء الطلبة، الأولاد والبنات عُهْدَة في عنقي وأنا مسئول عنهم أمام أهاليهم. كان يتحدث بانفعال ويزداد وجهه احمرارًا وصوته ارتفاعًا وتَوَتُّرًا.

فشلنا في مهمتنا. قمنا للمغادرة. ونحن وقوف، قبل أن نصافح رئيس الجامعة، قال زميلنا أستاذ التاريخ: هذا هو الحال منذ عشرات السنين. نعاقب الطلاب ونتعقَّبهم ونسجنهم ونقتلهم أحيانًا، ثم في المرحلة اللاحقة نمجّدهم لأنها صنعوا تاريخ البلاد. قال عبارته وسبقنا إلى الباب.

أما المشهد الثاني فكان لقاءً جمعني وحدي برئيس الجامعة، بناء على طلب منه وكنت رئيسة القسم. كان العميد أبلغني أن رئيس الجامعة يريد لقائي وأنه غاضب لأنني مُصِرَّة على عدم قبول الطلبة الأربعة الراغبين في التحويل من جامعة كذا الإقليمية. قلت للعميد: هؤلاء الطلبة منقولون بمواد، واللائحة تقتضي أن يكونوا حاصلين على تقدير جيد على الأقل للموافقة على نقلهم. لو قبلتهم سيتعين عليّ قبول كل الحالات المماثلة وكل الحاصلين على تقدير مقبول لأن لهم الأولوية عليهم. قال العميد: اذهبي إليه، وسنرى.

ذهبت. لا أذكر أنني توقّفت عند واجهة الزجاج المعشّق التي أحب تأملها. صعدت السلّم وأعلمت مدير مكتب رئيس الجامعة

بحضوري. قال: تفضّلي. فتفضّلت. ما إن دخلت حتى قال: إيه الحكاية يا دكتورة؟ إنت دولة داخل الدولة؟! بسرعة أجبت مع التشديد على الكلمة: إطلاقًا. أنت رئيس الجامعة وتملك فيها سلطة أكبر من سلطتي، ولكن ليس بتوقيعي. لن أُوَقِّع على ما أعتقد أنه خطأ. قطّب وجهه وانتهى اللقاء وغادرت. وفي الكليّة قدمت استقالة مسببة من رئاسة القسم لا أدري حتى الآن إن كان العميد رفعها لرئيس الجامعة أو لم يرفعها (لأن الاستقالة المُسَبَّبَة تستدعي تحقيقًا، ولم يحدث أي تحقيق). لم أوقِّع على طلب النقل. لم يُقبل الطلاب.

ويبدو أن الرجل الذي صِحت فيه كان سيئ الحظ، إذ جاءني في اليوم نفسه، يطلب نقل ابنته من كلية البنات إلى قسمنا بكلية الآداب. لم تكن ابنته مستوفية لشروط القبول في القسم. قلت لأبيها ذلك بكل تهذيب. مال عليّ وهمس: ولكن نائب رئيس الجامعة خالها. وما إن نطق الرجل بالعبارة حتى انتفضت واقفة، صِحت: أنا لا أملك في هذا البلد أي سلطة، ولكن لي سنتيمتر في سنتيمتر، هو هذا القسم أسيّره بما أراه عدلًا. أرجوك لا تأتِ للحديث معي في هذا الشأن مرة أخرى. ربما فوجئ الرجل. ربما أفزعه صياحي. لم يظهر مرة أخرى. ولكنني في لقاء لنائب رئيس الجامعة مع رؤساء أقسام اللغات بعد أيام، فاجأني النائب بعدوانية غريبة، ما إن بدأت في إبداء رأيي في الموضوع المطروح حتى قاطعني قائلًا: ليس هناك مقدّس إلا القرآن يا دكتورة، هذا التعنّت في الرأي غير مقبول.

أما باقي التوابع فستكون كالتالي: في مطلع العام الدراس التالي،

ونحن في مجلس القسم اتصل بي العميد، قال إن رئيس الجامعة عيّن زميلتي فلانة رئيسة للقسم بدلًا مني، وإن عليها أن ترأس المجلس إن كانت معنا، أو يؤجل الاجتماع لأن رئاستي له يُفقده الشرعية. والحق أنني قبل شهرين كنت أبلغت العميد أنني غير راغبة في مد فترة رئاستي للقسم (كنت على وشك الانتهاء من السنوات الثلاث، وهي الفترة الأولى التي عادة ما تمتد إلى ثلاث أخرى إن لم يصل رئيس القسم إلى سن التقاعد). ألحّ العميد لكي أبقى وراكم الحجج وصدّر في كلامه مصلحة القسم... إلخ. قبلت. ويبدو أن الغرض لم يكن مجرد التخلّص من السيدة العنيدة بل تلقينها درسًا وإهانتها.

بعد عام أو عامين ستخبرني صديقة أنها كانت تشتري لِبّ وفول سوداني من متجر ما بالقرب من مسكنها في مصر الجديدة. راحت تثرثر مع صاحب المتجر. أخبرها أن له ابنة أو ابنًا في آداب عين شمس. في أي قسم؟ في قسم إنجليزي، إذن تدرّس له الدكتورة رضوى عاشور. ضحك الرجل: شِلْناها من رئاسة القسم. كنا عاوزين ننقل الولد، عقّدتها، فشِلْناها.

الغريب أن أيًّا من هذه الحكايات، والعشرات من أمثالها لم ترد في ذهني وأنا أقف أمام قصر الزعفران ضمن مئات من أعضاء هيئة التدريس والطلاب، رغم أن الكثير منها حدث داخل القصر، في غرفة رئيس الجامعة أو أحد نوابه. حتى زيارة ماجد الديب لنا في مجلس الكليّة، بعد تعيينه رئيسًا للجامعة وعلى طرافة (أو بؤس) تفاصيلها، لم ترد بخاطري. كان تجمُّعنا لنطالب بإقالة رئيس الجامعة لنختار

بأنفسنا من يخلفه هو الشاغل المتصدّر. وكان وجود هذا العدد الكبير من الأساتذة مؤثرًا. أما قسمنا فكان حاضرا بقوة من رئيسة القسم إلى أصغر ثلاث معيدات، تخرجن حديثًا. لم يفتني أننا ننتمي لثلاثة أجيال. كنت في الخامسة والستين، ومعي زميلات أصغر سنا درّست لهن ذات يوم وأشرفت على رسائلهن، صرن أساتذة، ومعيدات تعلّمن على أيدي زميلاتي وزملائي الأصغر. وباستثناء كلية الطب الأكثر في تمثيلها العدديّ منا، كان المشاركون من قسمنا يفوق الحضور من أي قسم آخر.

لم تكن هذه الوقفة سوى واحدة من وقفات عديدة للمطالبة باستقالة رئيس الجامعة. وفي كل وقفة كانت الأعداد تتزايد ويشارك فيها المزيد من الطلاب، وترتفع حدة المطالبة. «ارحل... ارحل» أو «رئيس الجامعة برّه عاوزين جامعة حرّه»، أو هتافت غاضبة يرفعها الطلاب ضد ماجد الديب وهم يتقافزون، وتَحْمَرُّ وجوههم وتنفر العروق في رقابهم.

مساء الأحد الثاني من أكتوبر كتبت الرسالة الإلكترونية التالية لزملائي في مجموعة استقلال الجامعة (٩ مارس):

«تشارك اليوم، (٢/ ١٠) وهو بداية العام الدراسي، طلاب وأساتذة عين شمس في مسيرات داخل حرم الجامعة وفي وقفة عند قصر الزعفران (مقر الإدارة) يعبّرون عن احتجاجهم على استمرار ماجد الديب رئيسًا للجامعة، ومطالبين بجامعة حرة وبقيادات منتخبة. كان عدد المشاركين (آلاف في تقديري) أضعاف عددهم في وقفة يوم الثلاثاء الماضي. وكان الأساتذة يُعَلِّقون شارات حمراء مكتوبًا

عليها «إضراب». وانضم إلى كليات الحرم مسيرات جاءت من طب وطب أسنان وهندسة عين شمس. وسيواصل الطلاب والأساتذة احتجاجاتهم حتى تتحقق مطالبهم».

في هذه الوقفة أعلن المُنَظِّمون من استقلال جامعة عين شمس أنهم يعطون مهلة ٤٨ ساعة لاستقالة رئيس الجامعة. فإن لم يستقل يُمنع بالقوة من دخول حرم الجامعة.

ما إن عدت من الجامعة يوم الثلاثاء الرابع من أكتوبر حتى جلست للكتابة لزملائي في مجموعة ٩ مارس:

«يتردد في جامعة عين شمس منذ ساعتين خبر استقالة د. ماجد الديب. وقد أكد عميد كليتنا (الآداب) الخبر. لم ينشر الخبر إلا بوّابة الوفد قبل حوالي ساعة. الأرجح أن الخبر صحيح؛ لأن قريحة رئيس الجامعة كانت تفتقت عن عمل مهرجان صاخب بالـ«دي جيه» وسمّاعات ضخمة تنشر تلوثًا سمعيًا هائلًا في الحرم على أنه موسيقى، وإقامة «ستاند» أمام قصر الزعفران يبيع الملابس تحت رعاية رئيس الجامعة وبلافتات عن «محبي جامعة عين شمس»، وعند تردد خبر الاستقالة وفي خلال ١٠ دقائق تم تفكيك السمّاعات ورفع المبيعات وفض المولد!!!!

قبل حوالي ١٢ سنة صدرت لي رواية اسمها «أطياف» فيها مشاهد تكاد تكون متطابقة لمولد اليوم. ولكن خيالي كان أفقر من تصور أن تستمر تلك المشاهد في الجامعة بعد قيام الثورة وتقديم الشعب المصري آلافًا من أبنائه شهداءً ومصابين.

على أي حال وقفتنا غدًا أمام قصر الزعفران الساعة ١٢ قائمة (احتياطي، فقد يكون الخبر إشاعة الغرض منها إلغاء الوقفة)، وإذا تأكّدت الاستقالة، نضع نقطة آخر السطر ونبدأ صفحة جديدة من معاركنا الصعبة والطويلة لتحقيق أحلامنا بجامعة حرة لها إنجازاتها ومكانتها العلمية».

تأكد الخبر، قبل انقضاء المهلة.

استقال ماجد الديب.

علينا الاعتراف أن رئيس جامعة عين شمس تميّز عن بعض زملائه في جامعات أخرى. فلم يأمر بفتح خراطيم الماء وإلقاء الحجارة والزجاجات الفارغة على طلاب جامعته من مبنى الإدارة، وهو ما حدث في جامعة الإسكندرية. فلم تستقِل الدكتورة هند حنفي رئيسة الجامعة إلا بعد معارك شرسة شهدها حرم الجامعة. ولم يدهم بسيارته المُسْرِعة جَمْهَرَة من الطلاب المعترضين فيصيب من يصيب منهم، وهو ما حدث في جامعة المنوفية. ولا أطلق بلطجيّة في تلك الأيام على الأقل، مدجّجين بالعصيّ والسلاح الأبيض على طلابه المتجمهرين في قاعة من قاعات الكليّة، وهو ما حدث في كلية الإعلام، في جامعة القاهرة.

كانت المعركة على الجامعة، حقوق طلابها وأساتذتها والعاملين فيها، معركة مستمرة وعنيفة، لن تهدأ بعد استقالة سين وصاد من القيادات، بل ستتواصل لأن هناك لوائح تتطلب التغيير، وأساليب وطرقًا وعادات ترسّخت على مدى عقود، تحتاج الاقتلاع، والأهم،

سقوط الشهيد تلو الشهيد من طلابها في المعارك الدائرة خارج أسوارها، في شارع محمد محمود، وفي شارع القصر العيني، وعند مجلس الوزراء، وفي العباسِيّة. ولما كانت جامعتنا على بعد خطوات من ميدان العباسِيّة من ناحية، ووزارة الدفاع من ناحية أخرى فقد كانت شاهدة على مواجهات شرسة قسوتها تفوق الخيال، دارت أمام أسوارها وفي داخل مستشفياتها.

على مدخل جامعة القاهرة، على بعد أمتارٍ معدودة من تمثال مختار؛ أعني الفلاحة الجرانيتية الناهضة المستندة إلى رأس أبي الهول، يوجد نصبٌ تذكاريّ آخر، أيضًا من الجرانيت، يُخَلِّد عبد الحكم الجرّاحي ورفاقه، شهداء انتفاضة الطلبة في نوفمبر ١٩٣٥. بعدها تعدّد الشهداء من جيل إلى جيل ومن مرحلة إلى أخرى، فبدا النصب كأنه يفيض عن تذكار من يحمل أسماءهم ويشمل شهداء جامعة القاهرة.

أما في جامعة عين شمس، فيمكن للزائر أن يلمح لافتة صغيرة تحمل اسم شهيدٍ من أبنائها الطلاب، أو رسمًا جرافيتيًّا لوجه شهيد سواه، وإن سألت وبحثت ستجد قاعة درس في كلية التجارة تحمل اسم الشهيد عبد الرحمن كمال وكان من طلابها، وإن انتقلت إلى حرم كلية الطب فستجد نصبًا صغيرًا أقامه الطلاب على عجل، في نهاية مظاهرة لهم احتجاجًا على مقتل زميلهم علاء عبد الهادي، ثم نصبًا آخر أقيم بعده بخمسة أشهر لزميلهم الشهيد أبو الحسن إبراهيم.

ولكنني وأنا أدخل حرم الجامعة وأنا أغادرها، أرى فراغًا،

فأسترجع كلام الرجل لناشط ٦ إبريل عن الشهداء الذين يأتون يوميًّا إلى الميدان، يدخلونه بلا تفتيش، ويجلسون فيه، فأعرف أن الشهداء يتجمّعون في المكان الشاغر، لا أحد يراهم، وهم يقيمون فيه يحرسونه ويحرسون المطارح الممتدّة حوله من أن تتحول إلى أرض قفر ومكان ملعون، يسهرون عليها وينتظرون. أقول لنفسي ما دامت للأرض ذاكرة، فلا بد أن للزعفران ذاكرة، ولا بد أنه أيضًا ينتظر لكي يُخْرِج شَطْأَه ويفترش الحيِّز ويتوسّع، لأنه لم يعد يخصّ سيدةً مُسِنَّةً تُقيم في قصر، بل شبابًا عجيبًا، ناهضًا رغم رحيله، يأتنس الزعفران بوجودهم ويرتاح لتلك الرائحة التي يتحيّر إن كانت رائحته، وقد زادت مع الزمن قوّتها، أم هي رائحتهم.

الفصل الرابع عشر

من يكتب هذا المشهد؟

قبل عشر سنوات، أو ربما أكثر قليلًا، ذهبت مع صديقتي منى أنيس إلى الأزهر، للمشاركة في مظاهرة. وعادة ما كانت المظاهرات تبدأ بعد صلاة الجمعة داخل الجامع (ما إن ينتهي الإمام من عبارة: السلام عليكم ورحمة الله، وقبل أن يحرِّك رأسه من اليمين إلى اليسار لينطق بالتسليمة الثانية حتى ينطلق الهتاف ثم يعلو ويتوسع ويتردّد في أرجاء المسجد). ثم يبدأ المصلّون في الخروج إلى الباحة الخارجية ونشر الأعلام واللافتات. ثم يغدون حشدًا من الرجال والنساء والكبار والصغار، من أتى للصلاة ففاجأته المظاهرة، ومن جاء ليؤدي صلاة الجمعة ويشارك في التظاهر، ومن قصد المسجد لأنه يقصد المظاهرة. ويبدءون بالدفع بأجسادهم ليأمّنوا لأنفسهم الخروج من بوابات الجامع، وما إن يصلوا الشارع حتى ينضم إليهم متظاهرون آخرون كانوا ينتظرون في المحيط المباشر للمسجد، أو في الجانب المقابل في ساحة مسجد الحسين ومدخل خان الخليلي وفي الأزقة المتفرّعة منهما. وعادة ما يكون

المنتظرون فُرادى أو مجموعاتٍ صغيرة تتوزع على مقاهي المنطقة أو تتمشى، أو تقف كأنها تنتظر أتوبيسًا أو سيارة أجرة، تمويهًا على رجال الأمن. وكذلك يكون الأمن بجنوده وضباطه وفرقه المدنيّة من الشباب صغار السن المدربين على الضرب والسحل، في حالة ترقُّب وانتظار، قد ينفضّون بعدها لأن الأمن داخل المسجد منع المظاهرة من الخروج. يحمل الضبّاط الجالسون بباب المحلات، على كراسي خشبيّة وفّرها لهم أصحابها، كما وفّروا موائد نحاسية صغيرة من النوع السائد في المقاهي الشعبية (لأن أحدا منهم لا يملك أن يقول لا، لسعادة الباشا، ولا يعقل ألا يُقَدِّمَ له الشاي الذي طلبه). يحمل الضبّاط علب دخانهم وولاعاتهم وأجهزة اللاسلكي الموضوعة أمامهم، يتركون أكواب الشاي التي كانوا يحتسونها وينهضون ليتابعوا ركوب جنودهم في السيارات الزرقاء الكبيرة المصفوفة صفًّا بجوار رصيف الشارع. ثم يستقل الضبّاط سيارات صغيرة بيضاء أو كحلية ويغادرون. وقد لا ينفضّون لأن المتظاهرين الذين تمكّنوا من مغادرة المسجد تحوّلوا في غمضة عين إلى حشود تتزايد أعدادها وتملأ الشارع وتفيض على جانبيه. يُبقي الضبّاط أجهزة اللاسلكي أمام أفواههم. وتبدأ مواجهات عنيفة يستخدم فيها الأمن العصيّ والكلاب المدرّبة، ويستخدم المتظاهرون حناجرهم في الهتاف وقدرتهم على القفز والركض لتحاشي هجوم الكلاب وضربات الهراوات (بعضها يصيب بصدمة كهربائية). في سنوات لاحقة ستتخذ المواجهات أشكالًا أكثر عنفًا، تستخدم فيها قوّات الأمن الغاز المُسَيِّل للدموع والخرطوش، يضاف إليهما أيام الثورة، الرصاص الحيّ والقنص من فوق أسطح البيوت والدهم بالسيارات،

من جانب الأمن، والحجارة وأحيانًا قنابل المولوتوف من جانب المتظاهرين.

أنزلتنا سيارة أجرة عند مدخل شارع الأزهر من ناحية العتبة. كانت مجموعة من رجال الأمن تغلق مدخل الشارع، تمنع الشباب من المرور. هل نعود؟ نحاول، لعلّنا ننجح. سيدتان مُهَنْدَمتان علا الشيب رأسيهما. قد يتخيل الضبّاط أننا في طريقنا إلى خان الخليلي للتسوّق، لشراء فضيّات مثلًا، أو المرور بسوق الذهب لانتقاء شبكة لخطبة الولد. سمحوا لنا بالمرور. أسرعنا الخطو بهمّة. مررنا بسيارات الأمن المصطفّة واحدة وراء الأخرى بحذاء الرصيف. رأينا الخوذ. رأينا الهراوات. رأينا المخبرين الذين يصعب، رغم الطبيعة السرِّية لعملهم، عدم التعرّف عليهم. رأينا ما يسمّى بفرق الكاراتيه، في الملابس المدنية، متجمعين في انتظار التعليمات. رأينا الضبّاط الجالسين في الشارع يدخنون ويحتسون الشاي ويثرثرون مع بعضهم. ولم ننتبه إلا عندما أصبحنا على بعد عدة أمتار من المسجد، أن قوات أخرى من الأمن تطوّقه. لا فضة ولا ذهب. لن يسمحوا لنا بالمرور، ما العمل؟ اقترحت مني أن نعبر إلى الجانب الآخر ونصعد إلى مقهى تعرفه مطلّ على المسجد، فنتابع ما يجري ما دمنا غير قادرين على المشاركة فيه.

أذكر أننا عبرنا الشارع كأننا نقصد مسجد الحسين، وقبل أن نصل مقهى الفيشاوي، انحرفنا يسارًا في شارع جانبي. وبعد خطوتين أو ثلاث دلفنا إلى مدخل عمارة قديمة ووقفنا ننتظر المصعد. حملنا إلى طابق علوي ما، ربما كان الطابق العاشر. كان المقهى قاعة مترامية شبه

خالية، نوافذها كبيرة لها زجاج مغبّش أو مُصَنْفَر أو مطليّ بلون ما لا يسمح بالرؤية من خلاله، وتحت النوافذ بحذاء ضلعين من أضلاع القاعة موائد مُرَبَّعَة عليها مفارش زرقاء مستهلكة. كيف نرى الشارع من هنا؟ قامت مني فتبعتها. توقّفت أمام نافذتين بالزاوية وفتحتهما. صرنا نطل على الشارع ونرى الجامع الأزهر.

الغريب أنني أذكر تفاصيل المقهى، وأذكر وقفتنا ونحن نتطلع إلى أسفل ونشخص بأبصارنا جهة اليمين وجهة اليسار، ثم نعود نميل بجذعينا لنرى مساحة أكبر من الشارع، ننثني تقريبًا فيبدو كأننا سنسقط من النافذة. ولكنني لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك: هل حوصر المتظاهرون داخل المسجد، ثم كما يحدث عادةً، أخرجوا بعضهم فُرادى من الباب الجانبي الصغير المؤدي إلى زقاق وشوارع خلفية، وأخرجوا البعض الآخر من الباب الكبير المفضي إلى شارع الأزهر، بالقرب من مبنى إدارة الجامعة، فوجدوا أنفسهم مخفورين بصفّين طويلين من العسكر، يضطرونهم إلى الاتجاه إلى طريق صلاح سالم؟

من برجنا العالي لم يكن بإمكاننا أن نرى أيًّا من المَنْفَذَيْن، لا الباب الجانبي والأزقة التي حوله، ولا الباب المفتوح على شارع الأزهر. أم أن ما حدث أمر آخر غيّبته الذاكرة؟

لن أتذكّر أيًّا من هذه التفاصيل وأنا في المصعد بصحبة تميم ونوّارة وصديق ثالث. لم أكن أعرف المكان، رغم أنني سمعت عنه من معظم معارفي من الشباب الذي شاركوا في اعتصام الثمانية عشر يوما والاعتصامات اللاحقة. تقول سين كنت في شقة بيير، ويقول

صاد سأصعد الآن إلى شقة بيير، وثالث يشير إلى أن فلانًا ينتظره عند بيير. من هو بيير وأين شقّته؟ كانت إشارة أحدهم بيده ونحن نقف في التحرير كفيلة بتعريفي بالمبنى، لأنني مررت به ألف مرة وأنا في طريقي لقضاء هذا الأمر أو ذاك، أو شراء غرض أو آخر. تقع العمارة في شارع طلعت حرب عند مدخله المتقاطع مع ميدان التحرير، في البناية الملاصقة معمل التحاليل الذي أتردّد عليه منذ سنوات طويلة، ومحل المخبوزات الذي أشتري منه. وعلى بعد أشبار من بابها بائع صحف ومجلات وأحيانًا كتب، يفترش بضاعته على أرض الشارع، أتوقّف عنده أحيانًا وأشتري أو لا أشتري.

في التحرير مليونيّة، أي مئات الآلاف من المتظاهرين، (يصلون في أيام بعينها إلى المليون أو يتجاوزونه)، وفيه أعلام مُرَفْرِفَة صغيرة وكبيرة في أيدي الناس وأيدي الباعة، وفي الكشك الكبير القائم على الرصيف الذي يربط مدخل شارع التحرير بشارع محمد محمود. وفيه لافتات ورقيّة أو كرتونية ورسوم جرافيتي على الجدران، وأحيانًا جرائد حائط مبسوطة على الأرض، وباعة متجولون ونصبات لبيع الشاي والقهوة، غالبًا ما تحتل في الأيام شديدة الازدحام، حَيِّزًا متاخمًا للأرصفة. وقد يكون في الميدان اعتصام قائم من قبل ويبقى بعد أن ينصرف المتظاهرون، فتشغل خيم المعتصمين المتجاورة والمتلاصقة في الغالب، المساحة الترابية المدورة في قلب الميدان، والمعروفة باسم الصينية.

وفي المليونيّات يصبح شارع طلعت حرب وشارع التحرير وشارع

محمد محمود وجزء من شارع القصر العيني (يمتد أحيانًا إلى مجلسي الشعب والشورى)، مساحات مُلْحَقَة بالميدان، تفيض بالمتظاهرين مثله. فهي مداخله وحدوده الشرقية، يقابلها كوبري قصر النيل، وعن يساره مسجد عمر مكرم وكنيسة قصر الدوبارة، وعن يمينه مبنى الجامعة العربية والمتحف المصري وميدان عبد المنعم رياض. يشكّل الكوبري بجناحيه المشار إليهما مداخل الميدان وحدوده الغربية.

في المليونيّات ستزدحم هذه الحدود الغربية كذلك بالمتظاهرين، وسيحمل الكوبري أفواجًا لا تنقطع من المسيرات القادمة من غرب القاهرة، ولكن الحدود الشرقية تبقى مُلْحَقًا بالمعنى الكامل للكلمة. تجري فيها المظاهرات والمواجهات، ويتحرك فيها الثوّار لأنهم ذاهبون إلى التحرير أو عائدون إليه، يتغيّبون نصف ساعة أو أكثر أو أقل، يقصدون مقهى لديهم موعد فيه أو يبغون قضاء حاجتهم، أو كشكًا أو محلًّا يشترون منه طعامًا أو شرابًا أو علبة سجائر.

نشق طريقنا بصعوبة في شارع طلعت حرب، يتوقف تميم فجأة ويقول لي: من هنا. ندخل البناية فيحملنا المصعد إلى الطابق التاسع. لا ندقّ الجرس، باب الشقّة مردود. يجلس بيير إلى مكتب إلى يسار الداخل، عليه جهاز كمبيوتر، وفي الجانب الآخر من المكتب يجلس صديقان يتحدث معهما. شعرت بحرج لدخولي البيت بلا سابق معرفة. عرّفني تميم علي بيير، تصافحنا، ثم قالت نوّارة ببساطة: جئنا لنرى الميدان من الشرفة. قال تفضّلوا، وعاد إلى حديثه. زاد حرجي لأن وصولنا إلى الشرفة كان يقتضي المرور من ممر وغرفة من غرف

البيت ثم غرفة أخرى بها سرير وربما كرسي عليه بعض الملابس. ولاحظت أن أحدهم، بيير أو أحد المتردّدين على البيت، كان قد كتب تعليمات بخط بسيط واضح على مربّعات ورقية ألصقها في الممر أو بباب هذه الغرفة أو تلك.

خرجنا إلى الشرفة.

لم أكن بحاجة إلى أن أطلّ منها لأرى المشهد. كان ممتدًّا أمامي على مدى البصر، سواء تطلّعت لأسفل أو اكتفيت بالنظر أمامي. قد يكون الشعر وحده قادرًا على التعبير عنه، لأن لغة الشعر تُجْمِل وتُكَثِّف وتُحَمِّل الكلمات مُمْكِنَها الأقصى، كأنها تدفع بها دفعًا إلى حافة هذا المُمْكِن ولا توقفها إلا وهي على وشك السقوط، تكاد تسقط ولا تسقط. لست شاعرة، أنا مجرد امرأة لها عينان مفتوحتان مكّنتاها من أن ترى ما ترى. نعم أنا كاتبة وكتبت، ولكن من يكتب مشهدًا كهذا؟ قد يجيب قارئ حسن النية أن كاميرات التلفزيون المتعدّدة والمثبَّتة في أكثر من جانب وزاوية تنقل المشهد، ونقلته. فأقول له إنه وغيره ممن يصعب إحصاؤهم من المشاهدين يتابعون صورة يدخلون فيها وهم واعون أنها تجري هناك لا هنا، وأن آلات التصوير والبثّ وسواها مما يسمح بنقلها على الهواء مباشرةً لا تجعلك تعيشها بل تعايشها، كأنك تسير في سكة موازية لها. كأن الصورة أيها القارئ الطيب تقدّم لك نقيضين في ذات اللمحة، تنقل لك مشهدًا وتشركك في أدق تفاصيله، وتُعْلِمُك بوضوح (كأن الأمر متفقٌ عليه، مكتوبٌ في عقد مشروط بينكما)، أنك بعيد عنه

وخارجه. لن تحترق يدك إن مددتها إلى الشاشة لو كان المشهد لنار تشتعل. لن يصيبك الطلق الناري ولن تدهسك السيارة التي تندفع في اتجاهك، لأنك وأنت تتابع المشهد لحظة حدوثه تبقى خارجه، جالسًا أمام شاشة، آمنًا في بيتك.

ثم إن كُتّاب الملاحم كتبوا في أزمانهم القديمة بطولات أسلافهم وآلهتهم والبين بين من أنصاف الآلهة، ولكن الملاحم كانت مُجرياتٍ في الزمن، حكاياتٍ لها تسلسلها، بداياتها ونهاياتها ونقاط الذروة في مساراتها، وشخصياتٍ تتصدّر كل حكاية منها، أو تتوارى فيها وتعود تظهر مجددًا. سيكتب أحداث الثورة من يكتبها، ويرسم الطيّب والشرير في أحداثها، ويحكي عن الشهيد وقاتله. وقد يُنعم الله علينا بكاتب أو كاتبة تتمكن من تقديم مجمل الملحمة نثرًا أو شعرًا. وقد يتشارك جمعٌ من الكتّاب في كتابتها لا لأنهم سيكتبون معًا، بل لأن كلًّا منهم سيلتقط جانبًا أو زاويةً منها فيُكْمِلون بعضهم بعضًا، كأنهم تدرّبوا في أزِقَّة الخيَّامِيَّة، كلٌّ يُرَكِّبُ في النَّسْجِيَّة الممتدة ما أنجزته يداه، الناعمتان أو الخشنتان، والمسكونتان في الحالتين بجِنٍّ الموهبة ودرسِ الأُسْطَوَات.

لا يا سيدتي القارئة، لم أكن أُفَكِّرُ في هذه الأمور بهذا الشكل وأنا أُطِلُ من الشرفة. لأن المشهد لم يكن يسمح إلا بالتعلّق به، كأنه جبلٌ من حجر المغناطيس تحوّل ارتفاعه بمعجزة ما إلى أفق مبسوط يغطّي الميدان بامتداداته ومداخله.

لم تكن الأفكار التي أوردتها في الفقرات السابقة تدور في

رأسي فأعي فحواها أو حتى بعض فحواها، لم تكن سوى موجات مبهمة، ذبذبات لم يتحدد لها قوام، لأنها لم تتحول بعد إلى لغة. أقف في الشرفة العالية أرى ما أرى، فيدخل ما أرى إلى جسم المرأة الستّينية المجبول كتربة البلد بالمتراكم من ألف شيء، لا تعرف كيف يصير أو يصيّرُها.

سأرى المشهد من شرفة ببير مرتين، أطلّ عليه من طابق تاسع في عمارة مُشْرِفَة. وسأكون فيه ضمن تفاصيله عشرات المرات. أقف أو أمشي أو أهتف أو أحمل علمًا أو يمدّ لي شابٌّ يده: هاتِ إيدك يا ماما، يعاونني على صعود رصيف عالٍ من أرصفة الصينية. أو يتقدم شاب آخر يشبك يديه ويقول ضعي قدمكِ يا ماما. وأستكثر أن أضع قدمي على يديه. ثم أفعل، يملؤني الحرج وأنا أتمكّن من الانتقال من حَيِّزٍ عالٍ إلى حَيِّزٍ منخفض تحيّرت كيف أنزل منه لأن في ساقيّ ما فيهما من بقايا جراح. أو نكون في الميدان ونقرر مغادرته. نقول: نعبر باتجاه شارع محمد محمود ونمشي فيه ثم ننحرف يسارًا إلى البيت. وعند مداخل محمد محمود نكتشف أن شباب الألتراس، مشجّعي الأهلي، قد وصلوا بحشدهم وطبولهم وهتافاتهم. تستحيل الحركة. حتى الوقوف يصبح صعبًا، ثم تدريجيًّا يستحيل. لا موقع لقدم فعلًا لا مجازًا. فجأة يظهر شاب. ينتبه. يقول: امشي ورايا يا ماما. هو أمامي يشقّ لنا طريقًا. وصديقتي خلفي تمامًا. والشاب يكرّر مع كل خطوة: وسّع للحاجة. وسّع للحاجة. نصل إلى مدخل طلعت حرب البعيد دقيقة أو دقيقتين من مدخل محمد محمود في

ثلث ساعة أو أكثر. وأحيانًا يكون الزحام أقل قليلًا فنمشي في مسيرة تتجه إلى نادي القضاة أو دار القضاء العالي شمال الميدان، أو إلى مجلس الشعب جنوبه. نسير صفوفًا صفوفًا. أتربّع جالسةً على بساط أمام خيمة لأم شهيد. تحدّثني عن ابنها. تطلعني على بطاقته: هذه صورته. كان في السنة الثالثة في كلية الحقوق. هذا كارنيه الجامعة. تناوله لي. أمسكه. أتطلّع فيه. أعيده إليها. تحكي. أستمع. أجلس مع مجموعة من المصابين. أستمع لحديث بعضهم. أختلس النظر إلى وجه الصامت منهم. أسير بمحاذاة السور الحديدي الأقرب لمُجَمَّعِ التحرير، أقصد نهاية السور لأقطع الميدان من أمام شارع الشيخ ريحان. فجأة يضطرب الميدان، يموج. اندفاع وركض وقفز من فوق الأسوار. قبل أن أعرف ما الخبر، أرى شابًّا من المصابين الذين كنت أجلس معهم، كأنما انشقّت الأرض عنه، يندفع نحوي ويرفع ذراعيه عاليًا فوق رأسي ويحول بجسده بيني وبين المندفعين إلى ناحيتنا: ما تخافيش يا ماما. سيتكرر المشهد في يوم آخر، سيقوم شاب آخر باحتضاني بذراعيه وصدره، يحمي رأسي بكفيه المفتوحتين في لحظة اضطراب مفاجئ. كان الشاب هو تميم ابني. كلما نزلنا معًا إلى الميدان، يُبقي تميم عينيه عليّ. يستوقفه الشباب ليتحدثوا معه أو يلتقطوا صورًا معه، ولكنه حتى وهو يتحدّث معهم، يلتفت بين لحظة وأخرى ليتأكد أين أقف. لم يكن اضطراب هذا اليوم بسبب بلطجيّة دخلوا الميدان بالسلاح الأبيض كما في المرة الأولى، بل لأن رجال الأمن كانوا هاجموا مصلّين على مدخل شارع محمد محمود وبدءوا في ضربهم بالغاز المُسَيِّل للدموع. ماج الناس واندفع البعض

راكضين. أو أقف على الصينية وأسمع طبول الألتراس وهتافاتهم قبل أن أراهم ثم أرى جموعهم تقترب وتتقافز وهي تهتف. أتابعهم من موقعي على الصينية المرتفعة قليلًا عن أرضية الميدان. يفاجئني السؤال: هل تتفرجين يا رضوى؟ يملؤني الخجل. أهتف معهم بصوت عالٍ فأعلى، ربما شعورًا بالذنب لأنني كنت فعلًا أتفرج.

في يوم الثامن من يولية رأيتهم للمرة الأولى. ولأني كنت غائبة عن الميدان طوال الأشهر الأربعة الأولى من الثورة، لم أتعرّف عليهم إلا عندما همس أحدهم في أذني: دول الألتراس. صغار. يتقافزون بحيوية لافتة. وفيهم قوة وفيهم هشاشة وفيهم طفولة وفيهم اندفاع، وفيهم جمال. بعضهم يبدو كأنه لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره. خلع قميصه أو فانلته ودخل الميدان بصدره العاري. قلت لنفسي لا تحتاج العصافير إلى ثياب. كيف تطير؟

كانت أمي رحمها الله تعتبر عبارات دارجة مثل: «اتنيِّل» أو «يلعن أبوك» أو «ابن كلب» كلمات غير مقبولة، تطالبنا بتجنّبها. نادرًا ما أستخدمُ كلمات نابية، ولا أرتاح حين يستخدمها غيري، ولكنني، إذ أنصت لهتافات الألتراس أستغرب لارتياحي، بل تقتضي الدقة الإفصاح عن طربٍ أشعر به حتى عندما يهتفون في المدرجات وخارج المدرجات بهتافات بذيئة مُنَغَّمَة، مُغَنّاة تقريبًا. أطرب لسماعهم لا كصغير يثيره الممنوع، بل كراشدة تقرّ وتعترف أن الصفاقة لا تكمن في هتافهم بل في الفعل المتجبّر لسلطة فاجرة في سياساتها وسلوكها.

حين اعتصم الألتراس بعد مجزرة بورسعيد أمام مجلس الوزراء، ذهبت إليهم. سيدهشني إلى حد البهجة تنظيمهم. كان المكان نظيفًا والخيم منصوبة على الرصيف أو بحذائه بما لا يعيق طريق المتظاهرين. البعض منهم كان في خيمته يذاكر دروسه لأن عنده امتحانًا في اليوم التالي أو بعد أيام. قلت: ليتني كنت أكثر انتباهًا وحفظت عن جدتي بعض أدعيتها الجميلة. كنت فخورة بهم، وبنقاشاتهم وبتنظيمهم وبهتافاتهم. وفهمت أكثر لماذا تريد السلطة أن تكسرهم. أليست الثورة بالتعريف تنظيمًا للغضب والطاقة العارمة في نفوس الناس؟

لا بد أن أحكي عن مشهد أضحكني، وكان موضوع الضحك هو أنا، أي أنني ضحكت من نفسي. كنا في طريقنا إلى اعتصام مجلس الوزراء، الاعتصام السابق على اعتصام الألتراس، كان معنا مصطفى سعيد. قلقي عليه يفوق قلقي على تميم. تميم سيتدبّر أمره إن بدأ الضرب أو الغاز المُسَيِّل للدموع. طوال وقفتنا كانت عيناي لا تفارقان مصطفى، لا أتدخل في الحديث كي لا ينتبه. عيّنت نفسي حارسًا عليه، وإن غاب عن عينيّ في جمهرة من الناس، أصاب بالفزع: أين مصطفى؟ لا أهدأ إلا حين أجده. وعندما تجاوزنا منتصف الليل وبدا أنه لن يبقى في الشارع سوى المعتصمين قلت: بنا يا مصطفى. إلى أين؟ سنغادر. اتفضلي أنتِ يا دكتورة. أنا باقٍ.

مصطفى شجاع وعنيد. ألقاه في التحرير مُهَنْدَمًا ومتألِّقا، كأنه قصد أن يتحمّم ويحلق ويرتدي أجمل ما لديه من ثياب، ربما لأنه

يعرف أن الميدان هو أجمل مكان يمكنه الذهاب إليه في القاهرة. يلتقيه تميم في محمد محمود والغاز يغطي الشارع والكرّ والفر والمواجهة تحوّل المكان إلى ساحة معركة ضارية. يحكي تميم: أثناء الاحتجاجات على مجزرة بور سعيد، اتصلت بمصطفى، أخبرني أنه في شارع منصور. فزعت وخرجت ركضًا إلى الشارع. وصلت. لم أجده. اتصلت به. كان انتقل إلى مكان آخر. وصفه لي: أنا الآن عند مدرسة البنات، عند تقاطع محمد محمود بيوسف الجندي. ركضت وسط الغاز الكثيفُ. أخيرا وجدته. يواصل تميم: أبو العلاء المعرّي كان يلعب الشطرنج ويغلب فيه. مصطفى سعيد مثله: في بيروت وصف لسائق سيارة الأجرة اللبناني كيف يصل إلى الجامعة الأنطونية. كنت على موعد معه، وضيّع السائق الطريق، فاتصلت به. حين نكون معًا في سيارة، متجهين إلى بيته في القاهرة، يقول للسائق: احذر أمامك مطب، هدّئ السرعة، أو بعد دقيقتين تجد مبنى كذا عن يمينك، عندها دُر يمينًا.

مصطفى سعيد دارسٌ للموسيقى ومُعَلِّمٌ لها، وهو ملحن وعازف عود ومغنٍّ، يدير مركزًا لتوثيق الموسيقى العربية في بيروت. جمع كمًّا كبيرا من التسجيلات النادرة لموسيقي بدايات القرن العشرين، استنقذ بعضها من مهملات بعض مؤسساتنا الثقافية، ومن سور الأزبكية وباعة الروبابيكيا والأنتيكات. اشترى بعضها بدعم ورعاية كمال قصّار، محامٍ لبناني مُغْرَمٌ بالموسيقى التقاه صدفة فتبنّى مشروعه. نعم لمصطفى مشروع: جمع الموسيقى الشرقية وحفظها وإحياؤها،

وإتاحتها للناس ليسمعوها ويطربوا لها. يؤكد مصطفى: لا أريد تقليدها فالتقليد لا يُنْتِج فنًّا، بل تطويرها والبناء عليها.

يحكي باعتداد: لدينا عددٌ من أسطوانات الشمع (السِيلِنْدِر)، وكان أديسون اخترعها سنة ١٧٧٩ ووصلت مصر عام ١٨٩٥. انمحت بعض سطورها فاستعرنا جهازًا من جامعة كاليفورنيا في سانتا باربارا ليتاح لنا قراءتها. ولدينا ما يقرب من ٨٠٠٠ أسطوانة حَجَرِيَّة، وهو نوع من الأسطوانات بدأ استخدامه في مصر منذ ١٩٠٣ وبقي مُستخدمًا حتى أواخر الثلاثينيات. نعالجها ونحوِّلها إلى أسطوانات رقمية. مهندسو الصوت يفعلون المطلوب ويحدِّدون نسبة الصابون الضرورية لغسلها من الفطريات دون إفسادها. يواصل مصطفى بأسى: ما يقرب من ألف من هذه الأسطوانات تحمل خاتم الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية، أو خاتم دار الكتب. تخلّصوا منها هكذا بكل بساطة كما تخلّصوا من شرائط ماركوني التي ظهرت في الثلاثينيات، وهي شرائط من النحاس المُمَغْنط يتم التسجيل عليها على كرة من السلك. تم التخلّص منها في الستينيّات. لدينا جهازان لقراءة الأسطوانات الحَجَرِيَّة وتحويلها إلى تسجيلات رقمية. ولدينا صناديق لنقل ما لدينا في حالة الطوارئ. وما الذي تُدرِّسه يا مصطفى، وأين تُدرِّس. أُدرِّس عود وإنشاد وعلم المقام ومقررات أخرى في الجامعة الأنطونية ببيروت، الآن لانشغالي بالمركز أكتفي بتدريس مقرر دراسيّ واحد في تاريخ النُّظُم الموسيقيّة من القرن الأول الميلادي إلى القرن التاسع عشر. وأُدَرِّس كتابًا حققته من القرن السادس عشر: «تاريخ الشجرة

ذات الأكمام، الحاوية لأصول الأنغام»؛ وهو كتاب أهداه مؤلفه إلى سليمان القانوني. وأُدَرِّس كتبًا تركية منها كتاب صدر في مكتبة بولاق عام ١٩٣٦ حققه محمد شهاب الدين مصطفى، وهو بعنوان: «سفينة المُلْك ونفيسة الفُلْك».

ولا بد أنك انتبهت يا سيدي القارئ أن مصطفى حكَّاء، وأن لديه دائمًا ما يثير اهتمامك فهو واسع المعرفة وقارئ نهم، ولا يخلو كلامه من السخرية والوقائع المضحكة. يضحك. ولكنه حين يمسك العود ويبدأ في العزف يِقْرِن حاجبيه وتتطلّع عيناه إلى أعلى، إلى السقف أو إلى السماء، يبدو مأخوذًا أو عاتبًا رغم أنه يعزف بعنفوان.

الفصل الخامس عشر

عن أحمد الشحّات وشعبان مكاوي

لا أدري لماذا حين أردت الحديث عن أحمد الشحّات، حضر شعبان مكاوي، بقوة. قلت: ربما في ملامحهما شبه. استحضرت الصورتين: الشحّات له وجه شاب في أول عشرينيّاته أو دونها، طويل، نحيل نحول الشباب في مطلع حياتهم. عيناه لافت سوادهما ويتأكد بحاجبين كثيفين وشعر أجعد. شاربه خفيف ولحيته قصيرة مشذّبة. شعبان في الثلاثينيات، منكباه وصدره أعرض، يستحضر فلاحًا من رسوم عبد الهادي الجزّار. كلاهما منحوت القسمات أسمر، وإن كانت بشرة شعبان أعمق سمرة. ورغم بروز طفيف لعظمة الوجنتين، وجه شعبان أكثر امتلاء واستدارة، ووجه الشحّات مسحوب ورفيع. هل نظرة العينين هي مصدر الشبه؟ لا أدري.

في نهاية الثمانينيّات أو مطلع التسعينيّات، لمحته يطلّ من باب مكتبي. لم يدخل. ذهبت إلى محاضرتي، وعندما عدت وجدت

ورقة صغيرة كتب عليها بعناية ما مفاده: سعدت برؤيتكِ، وتمنّيت أن أتحدّث معكِ ولو لدقائق. ولكنني خشيت أن أعطلكِ عن عملكِ. كانت السطور الثلاثة مكتوبة بخط جميل.

بعدها بأسابيع أو ربما بعد شهرين أو ثلاثة لمحته في القسم، بادرته بالكلام. تعرّفت عليه وعلمت منه أنه يعمل بالتدريس في إحدى المدارس الثانوية، ويعدّ رسالة ماجستير في موضوع كذا، تحت إشراف زميلنا الدكتور فلان. ولأن عبارته كانت آسرة، ولأنني لمحت في عينيه نظرة غالبًا ما تصيب قراءتي لها، وجدت نفسي أقول له: يا شعبان أهلًا بك في أي وقت. إن أردت سؤالي أو مناقشتي في أمر يخص رسالتك فأنا على استعداد.

كان لقاؤنا اللاحق في جامعة القاهرة، في مدرج ٧٤ أو ٧٨ بكلية الآداب حيث كانت تعقد مناقشات الرسائل. لمحته جالسًا في المدرّج، كنا نناقش رسالة دكتوراه في الأدب العربي الحديث. بعد انتهاء المناقشة وإعلان النتيجة، اقترب شعبان من المنصة وصعد الدرجتين الخشبيتين الفاصلتين بين أرضية القاعة ومنصّة المكتب. صافحني. سألته عن رسالته. قال إنه أتمّ ثلاثة فصول، قرأها المشرف وبدا راضيًا عنها. ثم بشيء من التلعثم: سأكون ممتنًّا لو قرأتِها وقلتِ لي رأيكِ، إن كان وقتكِ يسمح. هل معك الفصول؟ معي. هاتها، سأقرؤها وأتصل بك.

أذكر أن تميم الذي حكيت له عن شعبان، كان يؤنِّبُني: ماما، تأخرتِ في الرد على شعبان. يا تميم لديَّ أشغال أخرى. ما إن أنتهي

من الرسائل التي عليّ مراجعتها، سأقرأ فصول شعبان. ثم بعد أسبوع أو أسبوعين: ماما هل قرأتِ ما كتبه شعبان؟ ماما حرام عليكِ، شعبان ينتظر. يلح تميم كأن شعبان صديق عمره، رغم أنه لم يلتق به أبدًا، ولا يعرف عنه سوى ما نقلته له من انطباعات سريعة. أخيرًا قرأت الفصول الثلاثة، والتقيت بشعبان لأنقل له ملحوظاتي. أذكر جلستنا في غرفة رئيسة القسم، في أول مقعدين إلى يسار الباب، كان يجلس إلى يميني. رسالته في الأدب المقارن، تتناول نجيب سرور وكاتب مسرحي بريطاني. لم أتحدّث طويلًا في التفصيلات الصغيرة. نبّهته أنني دوّنت ملحوظاتي في الهوامش. أسهبت في الحديث عن السياق التاريخي المختلف الذي يفسِّر فروقًا في الرؤيا وأسلوب التناول والشكل. ما الذي حدث، ما الذي يحدث؟ بدا شعبان وهو ينصت إليَّ متأثرًا، ثم فاض التأثر وغدا دموعًا تترقرق في عينيه، يجاهد لإبقائها مكانها.

لاحقًا سيطلب شعبان أن أشرف على رسالته للدكتوراه. سأعرفه أكثر. ولما تقدم ليشغل وظيفة مدرس مساعد في جامعة حلوان، كتبت له توصية علمية أعتقد أنه يستحقها، واتصلت بعميد كلية الآداب، آنذاك الدكتور عاصم الدسوقي، قلت له: شعبان شاب ممتاز، عِلمًا وخُلُقًا. إنه هدية لكليتكم. سيحصل شعبان بعدها على الدكتوراه في عامين أو ثلاثة. يسافر أثناءها في بعثة إشراف مشترك، يعود منها بسرعة وقد أنهى رسالته. سيأتي المشرف المشارك إلى مصر وتعقد مناقشة مبهجة، لأن الطالب جميل واللجنة مُمَيَّزة يتصدَّرها صديقي

مايكل ثلويل، الروائي الجامايكي والأستاذ بجامعة ماساشوستس، رفيق ستوكلي كارمايكل، وكاتب سيرته.

في السنة اللاحقة لحصوله على الدكتوراه، سيبدأ شعبان في ترجمة كتاب «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» للمؤرخ الأمريكي هوارد زِنّ، ويشرع في ترجمة بعض فصول من كتاب آشكروفت: «المفاهيم الأساسية للنقد ما بعد الكولونيالي». ويقوم بمشاركتي مع عدد من الزملاء في نقل الجزء التاسع من «موسوعة كمبريدج لتاريخ النقد الأدبي»، إلى اللغة العربية.

ثم بدأنا رحلة المرض. تفتقد العبارة للدقة لأن هذا النشاط كان يتم على خلفية المرض، يتوارى أحيانًا ثم يتصدّر فيبدو شعبان منهكًا شاحب الوجه منكمشًا ومُعْتَلّ المزاج. أو يساعده الأطباء والأدوية، فيبدو أفضل. ولكنه في الحالتين يواصل عمله في الجامعة، يأتي بانتظام إلى نادي هيئة التدريس جامعة القاهرة لأن لجنتنا (لجنة الأساتذة لمواجهة الصهيونية) لديها اجتماع، أو لأنه انتهى مع الدكتور محمد هشام (صديقه وزميله في جامعة حلوان) من إعداد نشرتنا المتواضعة التي أسميناها «دُرّة»، أو لأن الملصقات التي طبعناها وتحمل رسومات لبرهان كركوتلي وناجي العلي قد وصلت من المطبعة وعلينا الاتفاق على كيفية توزيعها.

يقرّر الأطباء أنه بحاجة إلى زرع كبد. يعرب إخوته عن استعدادهم لإعطائه جزءًا من أكبادهم. ولكن الإخوة، لأنهم فلاحون خاضوا بأقدامهم العارية في طين الأرض وماء الترع، مصابون بدرجة أو

أخرى بالمرض نفسه. أخيرًا قدّمت له زوجة أخيه جزءًا من كبدها. أخفت أمر الجراحة عن أمها وأبيها، قالت: سأقضي بضعة أيام في القاهرة مع زوجة شعبان. بعد العملية، زرت شعبان ثم زرتها وهي بعد ترقد في سرير بالمستشفى. شكرتها على ما قدّمته. قاطعتني: بتشكريني على إيه يا دكتورة، ده شعبان!». كانوا يحبّونه، يفخرون به، ويفخرون أكثر أنه وقد تعلّم في المدارس والجامعات، وسافر إلى الخارج وعاد أستاذًا جامعيًّا بقي شعبان، ودودًا وعطوفًا وابنهم.

تلت عملية زرع الكبد أيام عصيبة. شعبان غائب، لا يعي شيئًا مما حوله. ولكن العملية نجحت. غادر المستشفى، عاد سالمًا إلى بيته وجامعته.

وأذكر أن الدكتور هاني حنفي، الذي أشرفت على رسالتيه للماجستير والدكتوراه، دعانا إلى بيته في طنطا. فذهبنا، أنا وشعبان وتميم. ركبنا القطار من محطة مصر، بعد ساعة أو أكثر قليلًا كان بإمكاننا أن نلمح هاني وهو يقف وسيمًا وأنيقًا كعادته، على رصيف المحطة. اصطحبنا إلى بيته. فرحة هاني مُعدية، شملت ثلاثتنا وزوجته وابنته. أكلنا وتحدّثنا وضحكنا وسخرنا من الأوضاع هنا وهناك، وتناقشنا في حال الجامعة والبلد. ثم غادرنا. قبل أن نركب القطار تجوّلنا في محيط مسجد السيد البدوي، في الشوارع والأزقة. أمشي بجوار هاني، أتحدّث معه. يتأبط شعبان ذراع تميم، يسيران خلفنا بخطوة أبطأ، يتحدّثان. ثم حملنا القطار إلى القاهرة. أجلس على مقعد وشعبان وتميم يجلسان على مقعدين متجاورين أمامي. وجه شعبان

شديد الشحوب. وصلنا إلى محطة مصر، وقفنا ننتظر سيارة أجرة. ولما أتت سيارة طلبت من شعبان أن يركب أولًا. رفض. حاولت إقناعه. أصرّ. ركبنا السيارة، وبقيت أتطلع إليه من الزجاج الخلفي للسيارة، أرى وجهه رماديًّا مكتومًا في جوٍّ رماديٍّ مكتوم تُحَوِّلُهُ شدّة التلوث في ضوء مصابيح الشارع، إلى هواء كأنه بخار داكن له كثافة ووزن يُرى بالعينين، ويكاد يُلمس باليدين.

قال تميم: هل حكى لكِ شعبان كيف كان يَدْرُس في جامعة القاهرة، في السنة التمهيدية للماجستير؟ لم يحكِ. كان مجنّدا، ويواصل دراسته، أحيانًا يدرُس في الجامع، أحيانًا يضطر لعدم النوم ليلتين أو ثلاث ليالٍ لإكمال بحث يتعيّن عليه تقديمه. يسير في الشارع ذاهبًا إلى الجامعة أو عائدًا منها، يفاجأ بالدموع تبلل وجهه. يبكي من شدة التعب. قلت: لم يُشر لذلك أبدًا.

حكى لي شعبان عن طفولته، ولكنه حكى بما لا يثير الشفقة بل الاعتداد: كنت صغيرًا، في السادسة ربما، أساعد أبي في الحقل. قال أبي: يا واد يا شعبان، خد بالك، حاسب الميّه تكسر القنطرة وتغرّق الأرض. كسرت المياه القنطرة الطينية. وقفت أمنع الماء بجسمي، أحاول سدّ الثغرة بكتفيّ وذراعيَّ المفتوحتين على اتساعهما. يضحك. لم أستطع.

حكى أن شقيقه الأكبر محمد الذي يكبره بثلاثة أعوام هو الذي أصرّ أن يواصل دراسته. أقنع والده: شعبان ينفع في المدارس. اتركه يواصل تعليمه وأنا سأعمل معك في الأرض.

حدّثني شعبان تليفونيًّا: هل يمكن أن آتي لزيارتكِ؟ أهلا، تفضّل. سأكون عندكِ بعد نصف ساعة. وصل بعد ما يقرب من ساعتين. كان شاحبًا وواهنًا ومُنْكَمِشًا. جلس ربع ساعة ثم أخرج من حقيبته نسخةً من كتاب هوارد زِن الذي نقله إلى العربية: أردت أن تكوني أول من أهديه الكتاب. غادر. كان كتاب «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» والذي يقدم تاريخ هذا البلد من منظور المُهَمَّشين من أهله: السكان الأصليين والأفارقة الأمريكيين، والعمال والنساء، والمهاجرين، كتابًا ضخمًا صدر بالعربية في جزأين من القطع الكبير. قلت: يا إلهي كان يمكن للكتاب أن ينتظر. سأنتبه وأنا أتصفّح الكتاب أن الصفحة التالية لصفحة العنوان فيها سطران:

إهداء المترجم

إلى الدكتورة رضوى عاشور

حين اتصلت به في اليوم التالي للاطمئنان عليه، قالت لي زوجته: نعم اشتدّ عليه المرض. نصحته بتأجيل الزيارة، لم يقبل. قال أريد أن تكون أول من أهديها الكتاب.

بعدها سأزوره في بيته مرتين. يبدو أسوأ حالًا. قدماه متورّمتان، بطنه منتفخ. في وجهه بعض اضطراب تؤكده نظرة مشتتة في العينين.

في المستشفى، بعدها بأسبوع أو أسبوعين، كان محمد، أخوه الذي أصر على تعليمه، والذي لم ألتق به من قبل، يجلس في قاعة الانتظار على بعد خطوتين من غرفة العناية المُرَكَّزَة، وكذلك زوجته وشقيقان آخران. أما غالية أخته الوحيدة (تقطع الطريق يوميًّا من «منشية النور»،

تركب مواصلة ثم مواصلة ثانية فثالثة، ثم تمشي شارعين طويلين في حدائق القبة لتصل المستشفى)، فكانت تجلس بجوار سريره تمسك بالملعقة، تحاول أن تجعله يأكل بعض ما أعدّته له.

في لقائي الأخير بشعبان، كان محاطًا بالأجهزة والخراطيم. بدا واضحًا أنه يريد أن يقول لي شيئًا. أشار للممرّضة وأفهمها بحركة اليدين. ناولته قلمًا وورقة. كتب. أعاد لها الورقة. أطلعتني عليها: هذه أستاذتي، أرجو أن تحضري لها كرسي. ابتسمتُ: أنا مرتاحة كده يا شعبان. جاءت ممرّضة أخرى وطلبت مني مغادرة الغرفة. كان عاملان طبيّان يدفعان بجهاز ضخم يَدْرُجُ على عجل. قالت الممرّضة: سنقوم بالتقاط صور أشعة. شعبان يتطلع إليّ، عيناه تطلبان بإلحاح ألا أذهب. تُصِرُّ الممرّضة أن أغادر. أقول: سأعود بسرعة يا شعبان. أنتظر في القاعة المجاورة انتهاء الطاقم الطبي من مهمته. أعود إلى العناية المُرَكَّزَة، لا ينتبه شعبان لوجودي. كان مستغرقًا في نوم أو غيبوبة.

في المساء اتصلت بهاني: حالة شعبان سيّئة يا هاني. قال إنه سيأتي إلى القاهرة صباح اليوم التالي لزيارته. لم يطاوعه قلبه. غادر طنطا بعد المكالمة مباشرة، وصل في وقت متأخّر من الليل. كان شعبان غائبًا.

لن يراه هاني مرة أخرى، ولا أنا.

بعد ثلاثة أشهر من رحيله، كتبت مقدمة قصيرة من صفحتين للجزء التاسع من «موسوعة كمبريدج للنقد الأدبي». قلت فيها:

«قبل ثلاث سنوات، ضمّنا لقاء أول في بيتي: الدكتور شعبان

مكاوي، والدكتور محمد هشام والدكتور هاني حنفي ودعاء إمبابي ومنى عبد الوهاب (ولم تكن الدكتورة فاتن مرسي والدكتورة عزة مازن والدكتور إسماعيل عبد الغني [الذين شاركونا في ترجمة بعض فصول الموسوعة]، قد انضموا إلينا بعد)، تناقشنا مطوَّلا في الضوابط والأهداف والمعضلات. واليوم إذ ندفع بعملنا المشترك هذا إلى النشر، زدنا ونقصنا: كان على دعاء وهي تراجع مقالاتها للمرة الأخيرة التوقّف للإيفاء بمطالب وليدها البكر عبد الرحمن، وكان على منى أن تفعل الشيء نفسه لرعاية وليدتها الأولى سما. جاءنا صغيران جميلان. زدنا.

ورحل شعبان مكاوي بعد صراع طويل مع المرض على مرحلتين قاسيتين، سلّمني مقالات خمسًا قبل أن يدخل المستشفى لإجراء عملية زرع الكبد، وقبل أن يدخل المستشفى مجدّدًا كان قد حرص على مراجعة المقالات(...) بعناية تثير الدهشة والإعجاب في ظل وضعه الصحي المتردّي.

رحل شعبان مكاوي في ١١ مايو ٢٠٠٥ عن واحد وأربعين عاما.

نقصنا.

المشاركون في ترجمة هذا الكتاب وأنا، نهدي جهدنا لاسم شعبان مكاوي ولمعناه: فلاح جميل قطع الطريق بسرعة خاطفة من بلدته الصغيرة «منشيّة النور» إلى الجامعة ليتعلّم فيها ويُعَلِّم متسلحًا بالمعارف والمكارم، وفيض مدهش من الحضور والإنسانية».

* * *

لشهور كانت صورة أحمد الشحّات هي الشارة التي تمثّلني في حسابي على الفيس بوك. لم أرفعها إلا لأضع صورة لرسمتين نصفيّتين في إطار واحد لخالد سعيد ومينا دانيال، أشبه بأيقونتين. رأس الأول على خلفية هلال أبيض يشغل يسار الرسمة، ويمتد من أعلى رأسه إلى أعلى العنق. وتحيط برأس الثاني دائرة أقرب إلى هالة القدّيسين. يبدو خالد سعيد في الرسمة كالأصل، نحيفًا مستطيل الوجه، تشي ملامحه بهشاشة تعزّزها نظرة تساؤل في العينين، ويبرزها في اللوحة أبيض الوجه الممزوج بورديّ خفيف على الوجنتين والأنف، وزرقة فاتحة حليبية أعلى الجبين وعلى الفودين. ثوبه أشبه بجلباب درويش، يكشف عن الرقبة والنحر. ثوب مينا دانيال أيضًا جلباب درويش، يكشف عن نحره ورقبته، وإن كان في أعلى النحر، خطّان دقيقان متصالبان كأنهما حُفرا بمشرط حاد. وجه مينا منحوت، وملامحه محدّدة بخطوط سوداء، تبرز عظام الوجنتين. نظرة العينين وطول الأنف والفم المدوّر مكتنز الشفتين قليلًا، تحيل إلى صلابة ما أو غضب ربما، وإن كانت كسرة صغيرة في العين اليسرى تشي بإنهاك، يقابله شعرٌ أسود خشن يصل إلى أطراف الهالة الدائريّة من الجانبين. شعر خشن ذو قوام تمتد ظلاله خطوطًا سوداء خفيفة فوق الرأس وتتجاوز الدائرة إلى حدود الكتفين، تعطي القديس الصغير حضورًا وخصوصية. كأنما اجتمع في صورته وجه شهيد من شهداء المسيحيين الأوائل، ووجه من وجوه الفيوم، ووجه متمرد مثقلٍ بالنوايا (لا يضحك كمينا الأصل، ولا يطير إذ فرح، ولا يغني «ليه الدنيا جميلة وحلوة وانت معايا»، ولا يبدو فتًى صغير السن شرب

كوبًا من الشاي وغادر البيت على عجل وركب المترو في طريقه إلى مسيرة كغيرها من المسيرات التي شارك فيها من قبل).

ولم تكن صورة أحمد الشحّات التي وضعتها كعلامة خاصة بموقعي قبل أن أستبدل بها لوحة خالد سعيد ومينا دانيال، صورته وهو يصعد كالمعجزة الطوابق العشرين ليُنزل العلم الإسرائيلي، بل صورة التقطت له وهو يرفع العلم المصري على عمود إنارة بميدان التحرير يوم الثامن من يولية ٢٠١١. يقف بأعلى العمود متوازنًا متماسكًا، ساقاه منفرجتان على اتساعهما، وذراعاه ممتدتان أفقيًا، يشير بعلامة النصر بيده اليسرى: يرفع السبّابة والوسطى مباعدًا بينهما، ويمسك بيده اليمنى العلم، يُلَوِّح به. الغريب أنني لم أر الصورة ولم أضعها كعلامة دالة في صفحتى على الفيس بوك إلا بعد الواقعة الثانية. لأنها، (أعني الصورة الأولى) لم تشِع ويعرف الناس أن شاب التحرير هو شاب السفارة. والأغرب، أنني كنت في ميدان التحرير يوم الثامن من يولية ولم أره، لأن التحرير واسع، ولأنني حين نزلت يومها كنت في عجلة من أمري أريد اللحاق بزملائي وزميلاتي أساتذة الجامعة القادمين من عند الأوبرا ليدخلوا الميدان عبر كوبري قصر النيل. وعندما لحقت بأذيال المسيرة، سرت فيها. بعدها تجمّع بعضنا عند مُجَمَّع التحرير. ولما غادرت الميدان مشيت بمحاذاة الحائط الشرقي للمُجَمَّع وعبرت إلى شارع محمد محمود، ومنه اتجهت إلى البيت. أستغرب أنني لم أنتبه للشاب وهو يصعد العمود المرتفع ليرفع علم مصر عليه. لست آسفة على عدم وجودي قريبًا من المكان، لو رأيته

لتوقّف قلبي خوفًا عليه. ولا مبالغة في الكلام، لأنني لا أستطيع التطلع في مدينة الملاهي مثلًا لو ركب تميم لعبة من الألعاب التي ترتفع عاليًا، بل إنني حتى وقد تجاوزت الثلاثين أو على مشارف الأربعين عشت حالة من الجزع الشديد حين رافقت الطلاب في رحلة، أصرّوا فيها على صعود ألعاب من تلك التي تعلو وتندفع وتدور، لم أقدر أن أزيح النظر عنهم أو أتطلع إلى شيء آخر لأنني في النهاية مسئولة عنهم، فاضطررت اضطرارًا لمتابعتهم بعينيّ. يزداد وجهي شحوبًا حتى إذا ما نزلوا من الساقية المعلّقة ورأوا وجهي قالوا: إيه يا دكتورة إحنا اللي كنا مشعلقين فوق مش انتِ!

أعود إلى المشهد على اليوتيوب: أعني الشحّات وهو يصعد العمود الذي يتجاوز ارتفاعه الأمتار العشرة، فإذا وصل إلى قمته، قرفص مستندًا إلى قضيبين من القضبان الثلاثة المُتَفَرِّعَة أفقيًا كمِرْوَحَة أعلى العمود، في طرف كلّ قضيب منها مصباح بيضاويّ كبير. يقرفص، يفكّ العلم المعلّق على ظهره مربوطًا بطرفين من أطرافه حول رقبته. يعتدل واقفًا مشدودًا كرمح، ويرفع العلم. أتابع الصعود خطوة خطوة. أوقف الشريط لأتملّى كل تفصيلة. متى يرفع ساقه اليمنى وكيف، متى يثني الساق اليسرى. أين يُثَبِّت قدمه أو يلفّ ذراعه على العمود، متى يدفع بجسمه لأعلى ليقطع مسافة أخرى من العمود... أعيد تشغيل الشريط. أشاهده كاملًا. أعيده من الأول. لا جزع. لا تسارع في دقات القلب. لا أنفاس تضطرب أو تتعلّق. لا وجه ينسحب منه الدم فيزداد شحوبًا. أعرف النهاية السعيدة: نزل في

أمان الله، وبقي العلم مُرَفْرِفًا. ثم إنني أسترجع الشريط لأن المشهد مسجّل على خلفية المقطع الثالث والرابع من نشيد مصطفى صادق الرافعي وصَفَر علي. أطرب للحن والكلمات:

ويكَ يا من رامَ تقييد الفَلَك	أيُّ نجمٍ في السما يخضعُ لك
وطنُ الحرِّ سَمَّا لا تُمتلك	والفتى الحرُّ بأُفْقِهِ مَلَك
لا عدا يا أرض مصرٍ بكِ عاد	إننا دون حماكِ أجمعين
لك يا مصرُ السلامة	وسلامًا يا بلادي
إن رمى الدهرُ سهامه	أتّقيها بفؤادي

واسلمي في كل حين

قد يستغرب قراءٌ صغارُ السن أو أغرابٌ عن تاريخ هذا البلد، مدى طَرَبي لهذه الأبيات، ولموسيقى هي أقرب لمارش عسكري، ولكن بعض الشعز والموسيقى يأتي إلينا مُحَمَّلًا لا بالفن وحده بل بتاريخنا الخاص والمشترك، وذاكرتنا وذكرياتنا، فنحبّه لأننا نألفه ولأنه منا. (خذ مثلا أغنية أم كلثوم «يا ليلة العيد آنستينا»، هل هي مجرد أغنية؟ لحن عظيم وأداء جميل، لا شك عندي، ولكن السؤال لا يطرح القيمة الفنية للأغنية بل مكانتها في حياة الناس، لأن العيد لا يكون عيدًا إن لم نسمعها في البيت ليلة العيد). نعود إلى «لك يا مصر السلامة»، لا نحتاج لمعرفة أن هذه الأغنية كانت نشيدنا الوطني منذ عام ١٩٢٣، أي وسعد زغلول يقود مصر، رئيسًا لوزرائها، وأنها أُلغيت عام ١٩٣٦ بعد المعاهدة التي أخرجت أولاد

المدارس إلى الشوارع للاحتجاج عليها، فهذه معلومة لا تفرق كثيرا، ما يفرق أن أهل البلد سمعوها من جيل لجيل في لحظات المواجهة والخطر وضرورة لمّ الصفوف للدفاع عن بلادهم، وفي لحظات الاحتفاء بعيدٍ وطني أو نصرٍ تحقّق.

يعرف معظم القراء حكاية أحمد الشحّات يوم صعد كعنكب بشري مُعْجِز أو من بِدْعِ الخيال، على جدران عمارتين عاليتين حتى وصل إلى العلم الإسرائيلي المرفوع على سطح عمارة منهما: أعني العمارة التي تستأجر السفارة الإسرائيلية الطوابق الثلاثة الأخيرة منها. ولأن القراء شاهدوا التفاصيل ليلتها عبر البثّ المباشر في القنوات الفضائية ، ثم شاهدوها بعد ذلك ما لا يُحصى من المرات في برامج استضافت الفتى أحمد أو تحدّثت عن الموضوع، ثم صاروا يستعيدونها كلما عنّ لهم ذلك في عشرات التسجيلات على اليوتيوب، لن أكرر التفاصيل أو أحكي بغرض التأريخ كما فعلت في نصوص سابقة لي، لأن التاريخ هذه المرة، ليس تاريخًا مطمورًا أو مُهَمَّشًا أو منسيًّا، أستحضره وأحاوره بعد عقود أو قرون من حدوثه، بل هو تاريخ واقع، عشناه جميعًا. لن أضيف إلا تفاصيل قليلة قد لا يعلمها القارئ. مثلًا قد يفيده أن يعلم أن تبادل السفراء بين مصر وإسرائيل حدث بعد عام من توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل، وأن الإسرائيليين استأجروا أول ما استأجروا، بيتًا في شارع محيي الدين أبو العز الممتد من شارع التحرير في الدُقِّي إلى شارع جامعة الدول العربية في حيّ المهندسين. كان مبنى السفارة في منتصف المسافة

تقريبًا بين أول الشارع وآخره. ومن عجائب الصدف أن هذا البيت ملاصق لبيت مستأجر من قِبل جامعة الدول العربية لسكنى الطالبات الفلسطينيات المغتربات اللائي يدرسن في القاهرة. فوجئت الطالبات بأن جيرانهن الجدد هم الإسرائيليون. لم تكن البنات مُسَلَّحات سوى بكتب الطب والهندسة والآداب وغيرها تبعا لمجالات تخصصاتهن. ما العمل؟ أشرعن النوافذ والشرفات ورحن يصرخن ويُوَلْوِلْن، ولولا بعض الهتافات ضد الوافدين الجدد، لظنّ المارة الغافلون عن ما يحدث أن الفتيات يُوَدِّعْنَ فقيدًا غاليًا. وصلت أول رسالة للإسرائيليين: غير مرغوب فيكم في مصر التي تُرَحِّب بكافة الخلق، وتُعَلِّق لافتة كبيرة في مطارها، تستقبل بها القادمين من مشارق الأرض ومغاربها، تقول: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

لم يغادر الجيران الجدد الذين استُقبلوا بالنواح مقرهم في اليوم التالي ولا اليوم الذي بعده. كان عليهم أن يفكّروا ويتدبّروا ويجدوا مكانًا مناسبًا لهم، أي مناسبًا أمنيًّا. ومن الواضح من المكان الذي اختاروه لاحقًا أن الشرط الأمني لم يكن الدافع الوحيد لاختيارهم، بل كانت هناك دوافع أخرى لا تقتصر على مركزيّة المكان، أي قربه من المناطق الحيويّة في العاصمة، (لا في ضاحية كالمعادي مثلا، حيث يسكن السفير وبعض أعضاء سفارته)، بل تمتد إلى ما يمكن وصفه بالشهوات: شهوة إذلال أعدائهم بسفارة تطل على النيل وتشرف عليه من علٍ. شهوة أن تكون سفارتهم على بعد خطوات من تمثال نهضة مصر وجامعة القاهرة ونصب شهدائها وبرج ساعتها

التي تعلن دقاتها توقيتات البلد، وقاعة احتفالاتها الكبرى التي صار اسمها قاعة جمال عبد الناصر. باختصار أرادوا أن تكون سفارتهم في مركز من المراكز الثلاثة للحركة الوطنيّة في العاصمة. ولولا أن المركزين الآخرين، أعني شارع الأزهر وميدان التحرير، مزدحمان بالمارة والسيارات والباعة والشارين على مدار اليوم بما لا يكفل أمنًا، لفاوضوا على شراء القصر المقابل للجامعة العربية (المقر السابق للخارجية المصرية) في ميدان التحرير، أو استئجار قصر الغوري أو وكالته. ولكنهم صدّروا العنصر الأمني واختاروا عمارة سكنية عالية مؤمّنة بعمارتين ملاصقتين، بها عشرات الشقق وربما مئات السكّان. استأجروا الطوابق الثلاثة العليا، ورفعوا علمهم فوقها. فما كان من بعض سكان العمارات الثلاث إلا أن بدأ في البحث عن مساكن أخرى، وعوضه على الله، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. ولأن لا أحد يريد شراء هذه الشقق أو استئجارها. اضطروا للبقاء فيها على ما في الأمر من همٍّ وغمّ. ولم يكن الهمُّ والغمّ من الجيران الجدد بقدر ما كان من الأمن المصري الذي سدّ الشارع الصغير الذي تقع فيه العمارة، من الجانبين، ومنع المرور فيه إلا بعد تفتيش وسين وجيم وإبراز إثبات الشخصية، فلا يقدر أحد على استضافة أهل ولا أصحاب إلا وينبّههم إلى ما يمكن أن يلاقوه، لأن الطريق إليهم شاق وطويل، فعلًا لا مجازًا. أما الحركة الطلابيّة ومظاهراتها، فما عاد يمكنها أن تتجه إلى التحرير مثلًا مرورًا بكوبري الجامعة، أو تعبر الكوبري فتلتقي كالمعتاد بطلاب كليات طب الأسنان، والطب والصيدلة في الجانب الآخر من النهر، بل تعيّن

عليها أن تتجه قسرًا ناحية كلية الفنون الجميلة والشارع المؤدي إلى المدينة الجامعية وبين السرايات، أو شارع الدُّقِّي من ناحية، أو في اتجاه ميدان الجيزة وكوبري عباس من الناحية الأخرى. أصبحت منطقة كوبري الجامعة حيث تعبر المظاهرة من الجيزة إلى القاهرة، منطقة أمنية، يكاد وصول المظاهرات إليها يكون من المستحيلات. وإن جرت محاولات لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، لكسر هذا المحظور.

إذن كان التظاهر عند السفارة من المحظورات التي كسرتها ثورة يناير. وفي أول ذكرى للنكبة بعد الثورة أي في الخامس عشر من مايو ٢٠١١، وكنت في واشنطون لم يبق لي من جلسات السايبر نايف سوى جلستين، قرر الشباب أن يحيوا الذكرى بالتظاهر أمام السفارة. واجهتهم قوات الأمن والشرطة العسكرية. ألقت عليهم القنابل المُسَيِّلة للدموع. ضربتهم بالهراوات. سبّتهم ولعنت آباءهم وأمهاتهم. أوقعتهم على الأسفلت وسحلتهم. قبضت عليهم وساقتهم مُكَبّلين إلى سيارات الشرطة المغلقة. كررت: «كله ينزل على ركبه».

بعد ثلاثة أشهر من الواقعة نقلت وكالات الأنباء خبر استشهاد مُجَنَّدَيْن مصريين قصفتهما طائرة إسرائيلية، وسرعان ما تأكد أن عدد الشهداء ارتفع إلى خمسة. تلاحقت الأحداث وجرت في ثلاثة فصول موزّعة على ثلاثة أسابيع ، تحديدًا من ١٩ أغسطس (يوم استشهاد الجنود) إلى ٩ سبتمبر الذي امتدت مجرياته حتى فجر اليوم التالي.

حدثت مقدِّمات الفصل الأول مساء الخميس، أي بعد ساعات

من خبر مقتل المُجَنَّدين. حاصر الشباب القنصلية الإسرائيلية في الإسكندرية، وأنزلوا العلم المرفوع عليها. صباح الجمعة بدأت أفواج من المتظاهرين في القاهرة تعبر كوبري الجامعة أو تأتي من ناحية الدُّقِّي والمهندسين وإمبابة أو من ناحية الجيزة وما وراءها، وتحتشد عند السفارة: وراء الأسلاك الشائكة التي نصبها الحراس أمامها. في الشارع الضيِّق أسفل الكوبري. فوق الكوبري المطل على الأسلاك الشائكة ورجال الأمن وزملائهم المتظاهرين. في الجانب المقابل من الطريق عند سور حديقة الأورمان. أمام بوابة حديقة الحيوان. حول تمثال نهضة مصر الذي يتوسطهما فاصلًا بين اتجاهي الشارع. ولما كنا في رمضان، ولما كانت القاهرة مُغْرَمَة بالسهر في الصيف كمعظم مدن المتوسط، وإن كانت تفوقها شغفًا بهذا السهر، كانت المئات التي ترابط حول السفارة في النهار، وتفطر ساعة المغرب وهي معتصمة حولها، تزداد مع تقدم المساء وتتزايد أعدادها فتغدو آلافًا. وكلما تقدّم الليل تتضاعف الآلاف. تهتف وترفع أعلامًا وتطلق شماريخ (وهي نوع من الألعاب النارية في شكل صواريخ مصنّعة يدويًا). وكما في التحرير في أيام الاعتصام الثمانية عشر وفي غيرها، غدا التظاهر حالة شعبية كاملة العناصر: بياعو الشماريخ (رجال أو نساء) يُرَوِّجون لبضاعتهم بالنداء: «إضرب إسرائيل بخمسة جنيه»، «صِيب العلم الإسرائيلي ووقّعه، بخمسة جنيه». ولم يقتصر الأمر على باعة الشماريخ بل امتد ليشمل نَصْبَات الشاي والقهوة والمشروبات الغازية والماء، وباعة البطاطا والذرة المشوية والترمس، فضلًا عن البند الثابت في كل المظاهرات: باعة الأعلام.

شاركنا المتظاهرين (أنا ومُريد وتميم) مساء الجمعة. وكنا ننوي النزول مساء السبت. فتأخر تميم لسبب أو آخر. فلما قال: بنا. كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل. نزل وحده. رأى وتابع مشهد تسلُّق أحمد الشحّات طوابق العمارة. قال: في الطوابق الأولى كان بإمكاننا رؤيته وتتبّعه وهو يتعلّق بماسورة أو شرفة أو مُكَيِّف، ولكنه حين صعد أكثر لم يعد ميسورًا لنا رؤيته بوضوح أو تتبّع حركته بسبب الظلام، لكن العلم كان على ظهره، يتطاير، يدلّنا على موقعه. نرى بقعة ملونة على الجدار، تتحرك لأعلى. ثم فجأة اختفت. لم نعلم ماذا حدث. بعد دقائق عاود الظهور، كان وصل إلى سطح البناية وراح يجذب العلم الإسرائيلي لينزعه. اختفى العلم، لم يعد قائمًا في مكانه. تعالت الهتافات. مرّت دقائق، خمس أو أكثر. ثم شاهدنا العلم المصري يرفرف فوق العمارة. غدت الهتافات التي لم تنقطع منذ لحظة تسلّق الشحّات للمبنى، غدت هديرًا تترد أصداؤه في الجهات الأربع: شمالًا وجنوبًا مع مجرى النيل وشرقا إلى المنيل والقصر العيني وغربًا إلى جامعة القاهرة وما حولها.

كان ابني يقف بين الخَلْق معلّقة عيناه وقلبه بالفتى أحمد، يهتف أو لا يهتف، وأمه وأبوه مثله يتابعان المشهد على شاشة التلفزيون كما يتابعه ملايين المشاهدين في ٢٢ بلدًا عربيًّا، وكل من يمتلك قناة فضائية في أركان المعمورة من أبناء وبنات المهاجرين من تلك البلدان. نتابع تفاصيل الصعود، كيف ومتى قفز أو صعد أو نزل. نسمعه يحكي في مؤتمر صحفيّ أو برنامج تلفزيونيّ. نرى

الفتى نحيلًا صغير السن، يتطلع بعينين سوداوين فيهما تلقائية وبراءة وشيء من القلق. ولكننا نعلم أن الولد صار، بلا رجعة، أيقونة في تاريخنا الوطنيّ. ولأن الأمن يفتِّش في الصدور فقد علم في الحال بهذا الأمر وخطورته فسارع بالدفع بشخص آخر يقول مرة إنهم كانوا مجموعة صعدوا معًا، ومرة إنه هو من أنزل العلم، وثالثة يتهم الشحّات بالكذب. ثم دفع بآخرين يردِّدون الكلام نفسه. وهي بطبيعة الحال أساليب عصرية تناسب زماننا. ففي زمان غير هذا الزمان، كان الأمن يكرر ما فعله مع سليمان الحلبي: يحرق يده التي تجرّأت على هذا الفعل، ثم يخوزقونه في تل العقارب ويتركونه على الخازوق حتى يموت أو تنهشه الجوارح قبل أن يُسلم أنفاسه الأخيرة. أما في زمن الثورة وتجرّؤ الخلق على مديريات الأمن وقياداتها، فكانت الحكمة تقتضي استخدام أساليب أخرى، خاصة وأن الفتى أحمد كان محروسًا لحظة بلحظة بالآلاف المؤلفة في موقع الحدث، وبعشرات الملايين عبر شاشات البث المباشر. نزل الولد في أمان الله. رفعه الناس على أعناقهم ماجوا به ومن حوله وهم يهتفون بالصوت الهادر: تسقط تسقط إسرائيل. ثم أودعوه سيارة إسعاف خوفًا عليه من اندفاع الحشود الهائلة لحمله، أو من مندسٍّ يصيبه بأذى، حملته وغادرت.

أختم الفصل بالسؤال نفسه الذي بدأت به، لأنني لم أجد له إجابه: لماذا عندما أردت الحديث عن أحمد الشحّات، حضر شعبان مكاوي بقوة. هل من وجه شبه بينهما؟

الفصل السادس عشر

في زمان الثورة

علينا الاعتراف بأن أجهزة الدولة في بلادنا وعلى رأسها جهاز الأمن لا يفوتها الاستفادة من تجارب الآخرين، تحدِّث نفسها وتجدِّدها يومًا بعد يوم. سارعت إلى إنشاء جدار عالٍ تتراكب حجارته الضخمة على بعضها، لتشكّل حاجزًا بين المتظاهرين ومبنى السفارة الإسرائيلية. وهنا لا بد من تنبيه القراء إلى ثلاثة أمور، أولها أننا الآن على أعتاب الفصل الثاني من الحكاية، وثانيها أن أجهزة الدولة لا يروقها وصف إسرائيل بأنها الديمقراطية الوحيدة في منطقتنا المُسَمّاة بالشرق الأوسط، وأنها الأوفر حداثة والأكثر تقدّما. ومن هنا لم تقبل أن تكون إسرائيل وحدها هي التي تنشئ جدارًا عازلًا، وسعت إلى منافستها في عقر الدار التي تمثّلها في بلادنا. أما الأمر الثالث فقد أرادت ألا تُثقل على الميزانية مراعاة لعجلة الإنتاج المتوقّفة بفعل «المطالب الفئوية» و«البلطجيّة» الذين يدّعون أنهم ثوار، وللأزمة الاقتصادية الناتجة عن هذا التوقّف. لم تستخدم ألواحًا معدنية

كتلك التي استخدمتها لبناء الجدار العازل بين مصر وفلسطين، اختصرت التكاليف وقررت أن تنشئه بأحجار كبيرة أشبه بكسّارات الموج. ويبدو أن الشبه دفع بابتسامة اغتباط على وجه من اتخذوا هذا القرار وولّد في عقولهم خططًا مستقبلية سوف ينفّذونها خلال الأسابيع التالية، فيبنون جدرانًا مماثلة بأحجار شبيهة، في شارع محمد محمود، وشارع منصور وشارع الشيخ ريحان وشارع القصر العيني، لا تهدف إلى حماية سفارة إسرائيل هذه المرة، بل حماية وزارة الداخلية.

ما إن بُني الجدار حتى حمل الشباب الألوان والدلاء والفُرَش وغطّوه بالرسوم الملوّنة، وكتبوا عليه ما راق لهم من كلمات وشعارات. فتحوّلت الحجارة بالمنقوش عليها من صور زاهية الألوان إلى جداريّة لافتة، ربما راقت لسِيكْيرُوس أو دي رِيفيرا الفنانَيْن المكسيكيين العظيمين اللذَيْن رسما جداريات ونظّرا لقيمتها في زمان الثورة في بلدهما. والحق أن الشباب كَفُّوا ووَفُّوا حين حوّلوا جدارًا أجردَ رمليَّ اللون كئيبَ الشكل يقلّب المواجع إلى نُصب فنيّ مبهجة ألوانه، يثير في النفس الارتياح، لا لأنه يؤكد أن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة مضاد في الاتجاه، بمعنى أنه يطمئنهم على أن قوانين الطبيعة تبقى هي قوانين الطبيعة، لا تقدر عليها لا حكومة ولا إسرائيل، أقول لا هذا فحسب، بل لأنهم تواصلوا مع أسلافهم القدامى بتقديم فنٍّ جميل له منافعه، ثم عدّلوا عليهم فيما يخصّ ديمومة الفن بفكرة نقيضة تقول بنفع آنيّ وإمكانية الاستبدال حسب الضرورة والحاجة (وهو ما سيتّضح لاحقًا).

ولكن في زمان الثورة يحدث دائمًا ما يفوق المتوقّع ويسبق الخيال. في يوم الجمعة التاسع من سبتمبر المعروف بجمعة «تصحيح المسار»، احتشد في ميدان التحرير مئات الآلاف، وكانت كاتبة هذه السطور بينهم. في الرابعة أو بعدها بقليل خرجت من الميدان مسيرة كبيرة متّجهة إلى نادي القضاة تنادي باستقلال القضاء وإلغاء المحاكمات العسكرية وتهتف بين كل مطلب ومطلب: «يسقط يسقط حكم العسكر» «ياللي بتسأل إحنا مين، إحنا شباب خمسة وعشرين»، يحمل العديد منهم على قمصانهم إشارات ورقية لاصقة صفراء اللون مكتوبًا عليها: لا للمحاكمات العسكرية. سرنا من التحرير إلى شارع شامبليون المتفرع من الميدان، إلى أن وصلنا إلى تقاطع شارع شامبليون مع شارع محمود بسيوني، رأينا مسيرة أخرى قادمة من ميدان طلعت حرب. لحقت بنا وتداخلت المسيرتان وواصلتا باتجاه نادي القضاة. كنا عدة آلاف نشغل الشارع بطوله وعرضه، فلما وصلنا إلى مقصدنا، كانت أول المسيرة في شارع ٢٦ يولية، بالقرب من دار القضاء العالي، وجناحها الأيسر في شارع عبد الخالق ثروت أمام نقابة الصحفيين، ومؤخرتها ما زالت في بداية شارع شامبليون. وعندما توقفنا غدت الهتافات أعلى لأننا أردنا أن يصل صوتنا إلى الجمعية العمومية لنادي القضاة المنعقدة ساعتها فيه، ليرجّح كفة أنصار الثورة على كفة أعدائها في انتخابات مجلس إدارة النادي.

في الوقت الذي غادرنا فيه التحرير قاصدين نادي القضاة، غادرته مجموعة أخرى أقل عددًا، معظم المشاركين فيها في

العشرينيات من أعمارهم أو ربما دونها. ساروا بهِمَّة وبلا هتافات على الأرجح، لا يحملون شعارات ولا أعلامًا، بل عزمًا ونوايا وأدوات. تجاوزوا حيّ جاردن سيتي ثم قطعوا البحر الصغير إلى المنيل من الجسر المقابل لبوابة القصر العيني أو من كوبري قصر محمد علي واتجهوا في خط مستقيم إلى كوبري الجامعة ليقطعوا البحر الكبير. وما إن وصلوا إلى مبنى السفارة حتى قفز بعضهم أعلى الجدار وأخرج مطارقه وراح يُعمله فيه، وأتى البعض الآخر بماسورة حديدية كبيرة وراح يدكّ بها جانبًا آخر منه. ولم تكن يدا شاب واحد هي التي تمسك بالماسورة بل أيدي ما لا يقل عن عشرة شباب يدفعون بها المرة تلو المرة بمجمل طاقتهم وعزمهم. والبعض الثالث ينتظر دوره في العمل أو يهتف «يا رب»، مع كل ضربة في الجدار. وفجأة بدأ شاب يدق على دربكة يواكب إيقاعاتها التصفيق على الواحدة ونص وعبارة: «ولسّه. ولسّه. ولسّه». اشتبك الأمن بالشباب، ولكن الشباب والعديد منهم يقفون أعلى الجدار الذي يهدمونه، كانوا مشرفين على الأمن وفي أيديهم حجارة أشكالًا وألوانًا. تراجع الأمن.

لا داعي للإطالة في وصف المشهد لأن بعضكم كان جزءًا منه، والبعض الآخر شاهده لاحقًا على الفضائيات. وكنت من هذا البعض الثاني لأنني بعد وقوفي في التحرير من الواحدة بعد الظهر ثم مشاركتي في المسيرة إلى نادي القضاة عدت إلى البيت، وقد تجاوزت الساعة السابعة مساءً، وتجاوز نشاطي قدراتي البدنية، ليس بسبب المشاكل

الصحية الآنف ذكرها، بل لأنني تجاوزت الخامسة والستين وإنكار هذه الحقيقة بالكلام أو الفعل لا جدوى منه.

بدا أن الستار على وشك أن ينزل ختامًا للمشهد، رغم احتشاد عشرات الآلاف على كوبري الجامعة وتحت السفارة وفي المنطقة المحيطة بها. كأن هذا الحشد يُكَلِّل إنجازات يوم مثمر بدأ بمليونية، وانتهى بإسقاط الجدار، ولم يخلُ من مناوشات عند وزارة الداخلية بين المتظاهرين وسكّان الوزارة. ولكن جعبة جمعة تصحيح المسار بدت ذلك المساء أشبه بجعبة الحاوي، تطلع منها كل عجيبة. قفزت مجموعة من الشباب إلى عمارة السفارة. صعدوا ركضًا على السلم. أنزلوا العلم الإسرائيلي الذي كان أنزله أحمد الشحّات وأعادت الحكومة أو الإسرائيليون رفعه. لحق بهم شباب آخرون، ركضًا على السلم مثلهم. ولم يعلم الخلق المحتشدون تحت السفارة أو المتسمِّرون أمام البث المباشر في التلفزيون، أين ذهب هؤلاء الشباب، إلا حين أمطرت السماء أوراقًا بلا حصر، كبيرة وصغيرة. راح المتظاهرون يقفزون أو يندفعون يمينًا أو يسارًا، كلٌّ يحاول أن يلتقط ورقة منها ويجتهد في قراءتها، إن كانت بالعربية، أو يكتفي بملاحظة أنها مكتوبة بالعبرية تحمل خاتم السفارة الإسرائيلية. ولأنهم طيبون، فكّر البعض في تسليم الأوراق إلى الجهات الأمنية في الدولة التي يهمها قطعًا الحصول على تلك الوثائق. ولأنهم طيبون، لم يدر بخاطر أي منهم أن فرقة خاصة من قوات الكوماندوز المصرية كانت في اللحظة نفسها تقوم بنجدة ستة من موظفي السفارة الإسرائيليين

وتهريبهم من الشارع الخلفي في سيارة عسكرية. وأن الجيش كان نشر ٢٦ مدرّعة ودبابة حول السفارة لتأمينها.

تعرفون كيف توالت الأحداث، وتعقّدت وادّعت الرواية الرسمية أن المتظاهرين حرقوا ودمّروا واعتدوا على مديرية أمن الجيزة ورجال الأمن وسياراتهم، وعلى السفارة السعودية المجاورة للسفارة الإسرائيلية، بل وامتد نشاطهم التخريبي وتوغّل في شارع مراد حتى وصل إلى مكان القنصلية الفرنسية. في حين نقلت الصور شوارع يغطّيها دخان كثيف من الغاز المُسَيِّل للدموع (سيعاني منه كل سكان المنطقة المحيطة لا المشاركون في الاشتباكات وحدهم). وستعكس الأرقام حتى في الرواية الرسمية شيئًا مما حدث: ثلاثة قتلى من المتظاهرين، وألف وأربعة وتسعون مصابًا نقلوا إلى المستشفيات، منهم ٥٣ من رجال الأمن، و١١١ معتقلًا سيقدم بعضهم لاحقًا للمحاكمة بتهمة الشغب والاعتداء على المنشآت العامة. استمرت الاشتباكات من مساء الجمعة حتى السابعة من صباح السبت، وكان سفير إسرائيل وكل طاقم السفارة وأسرهم (وعددهم ٨٠ فردا)، غادروا مصر في الساعات الأولى من الفجر. لم يبق في المحروسة سوى واحد منهم هو نائب السفير. بعدها انتشرت عشرات المدرّعات في المنطقة، وأغلقتها. وتعالت أصوات كورس متناغم ومُتَّصِل في الإعلام يُرَدِّدُ خطابًا مكررًا عن حضارة مصر وسمعة مصر والتزامات مصر والمحنة التي تعيشها مصر، وعن المخربين والبلطجيّة والهَمَجْ. بعد ظهر السبت سيُصدر وزير الإعلام بعد اجتماع مجموعة من

الوزراء بالمجلس العسكري بيانًا يعلن فيه أن كل من يثبت أنه شارك أو حرّض على هذه الأحداث، سيحال إلى محكمة أمن الدولة العليا طوارئ (وهي محكمة مشكّلة بموجب قانون الطوارئ، لا يُقبل الطعن في أحكامها). ثم تُصدر وزارة الداخلية بيانًا طويلًا سأسمح لنفسي باقتباس بعض الفقرات من خاتمته:

«وفى إطار المصارحة والموضوعية، تود وزارة الداخلية أن تضع أمام المخلصين من أبناء الشعب المصري العظيم عددًا من الأمور الهامة: أن وزارة الداخلية سبق وأن أكدت أنها تتعهد أمام الله وأمام الشعب المصري العظيم بأن عقيدتها وفلسفتها الأمنية قد تغيرت بالكامل في أعقاب ثورة يناير المجيدة من أجل حماية أمن وأمان المواطن المصري والالتزام بالشرعية وسيادة القانون (...)، إلا أنه كان يتم اصطناع أو اختلاق وقائع وأحداث تؤدي إلى الاحتكاك والتصادم مع قوات الأمن أو ترويج دعاوى مضللة تؤدي إلى الهجوم على أقسام الشرطة أو استغلال أحد الأخطاء أو التجاوزات الفردية من أفراد الشرطة وتضخيمها لإحداث مزيد من الفرقة والوقيعة مع الشعب بالإضافة إلى زيادة حجم بعض الترديدات الإعلامية والسياسية لدعاوى واتهامات غير حقيقية للشرطة سواء بالخيانة أو تعمد القصور والسلبية في الأداء وحماية عناصر الإجرام والبلطجة، وهو ما كان يهدف بالقطع لغل يد الشرطة وإضعاف معنوياتها وارتعاش مواجهاتها بما يؤدي إلى إخراجها من المعادلة الأمنية بالشارع المصري».

«لقد التزمت قوات الشرطة بأقصى درجات الحكمة والصبر وضبط النفس طوال فترة أحداث الأمس وحرصت على تنفيذ ما تعهدت به حتى اضطرت للتعامل باستخدام الغاز المُسَيِّل للدموع عند محاولة اقتحام مديرية أمن الجيزة، وهى إحدى الوسائل الدولية المقررة لإبعاد الحشود وتفريقهم ومنعهم من عمليات التدمير والتخريب. تناشد وزارة الداخلية قادة الفكر والرأي والإعلام المصري بتحمُّل مسئولياتهم الوطنية تجاه مصر بحيادية وموضوعية تامة لكشف الأقنعة الزائفة والمضللة التي تستهدف إحداث الفتنة والوقيعة الكبرى بين أبناء الشعب المصري سواء كان عمدًا أو جهلًا أو تحقيقًا لأهداف وأجندات خاصة».

أعتقد أن عليَّ أن أُوَضِّح للقارئ والقارئة لماذا توقفت عند هذا المشهد الثالث، رغم أنهما لا بد لاحظا أنني لا أميل إلى تكرار ما شاهده الناس على الشاشات، أو عرفوا تفاصيله من الصُّحُف أو المصادر الإلكترونية. أردت التوقّف بشيء من التفصيل لأنني أعتبر أحداث التاسع من سبتمبر نقطة دالة وربما فاصلة لسببين: أولهما أن قدر العنف الذي استخدم ذلك اليوم يؤكد أن السياسة الخارجية المصرية وفي المركز منها العلاقة بإسرائيل والولايات المتحدة، معيارٌ من معايير معدودة كاشفة لموقع السلطة الحاكمة وموقفها الفعلي من الثورة ومطالبها. يمكن احتواء الثورة بتقديم هذا التنازل أو ذاك، بإتاحة مساحات أكبر من الحريّات هنا أو هناك، بفضح بعض الفساد، بمحاكمة الرموز الأبرز للحكم السابق، أما تبديل السياسة

الخارجية فيدخل في نطاق التمرّد على النظام العالمي، وهو على رأس الممنوعات، لا يضاهيه إلا الخروج على المنظومة الرأسمالية الحاكمة للكوكب. فكيف يُسمح لشباب في العشرينيات من أعمارهم في أيديهم مطارق وفي رءوسهم نوايا وأحلام، أن يحاولوا هدمه؟! ستعمل أجهزة الدولة القمعية على سحقهم في الوقت الذي ينشط إعلامها بوصفهم بالتخريب والهمجية والبلطجة وتهديد أمن دولة مصر وسمعتها.

أما الأمر الثاني فيخصّ الأمن الذي يبدو أنه استطاع، في ثمانية أشهر أن يستجمع قواه، ويستعيد سلطته التي انكسرت مساء الجمعة الثامن والعشرين من يناير. وهو ما يتضح لاحقًا لا في سلوكيات فردية لضابط هنا أو هناك، بل في ممارسات الجهاز نفسه معززًا بالشرطة العسكرية وطاقم من البلطجيّة يُشَكِّلُ لهما إسنادًا في عمليّاته المنظّمة والمنتظمة، فلا يفصل بين الواقعة والواقعة إلا ثلاثة أسابيع أو أربعة. حدثت مجزرة ماسبيرو بعد شهر واحد من أحداث محيط السفارة، في يوم التاسع من أكتوبر ٢٠١١. واجهت الشرطة العسكرية وعساكر أمن الدولة مسيرة سلمية للأقباط (التي شارك فيها بطبيعة الحال، مسلمون) بالاستفزاز أولًا عبر بلطجية يلقون عليهم بالحجارة والزجاجات الفارغة، ثم بالقتل المباشر بالرصاص الحيّ والخرطوش ومصفّحات تندفع وسطهم قصدًا، تدهسهم دهسًا، (استخدموا هذا الأسلوب من قبل في السويس وفي القاهرة يوم ٢٨ يناير). وأطلقت الدولة إعلامها يحرّض المسلمين

على المسيحيين ويدّعي أن الأقباط يهاجمون الجيش، وأن عددًا من الجنود قُتل. وخلّفت المذبحة ٢٧ قتيلًا ومصابين أشك أن لدينا إحصاءً دقيقًا بعددهم. وقبل أن يُتِم شهداء ماسبيرو أربعين رحيلهم، حدثت مواجهات شارع محمد محمود ولحق بالشهداء شهداء. لن ينتظروا طويلًا ليلتقوا بالوافدين الجدد من مجلس الوزراء والعباسِيّة. وسينشغلوا حتمًا باستقبال القادمين من استاد بور سعيد، لا لكثرة عددهم فقط بل لأنهم شبابٌ صغار فاجأتهم المَقْتَلَة غدرًا وهم يشاهدون مباراةً رياضية، ما زال بعضهم أولاد مدارس، عرف الموت قبل أن يدخل دنيا أو يعرف حياة.

الفصل السابع عشر

مقال قصير في التاريخ والجغرافيا وتصاريف السياسة

عادة ما ما يُنكر هذا الضيف أو ذاك في البرامج التلفزيونية نظرية المؤامرة أو يستهجنها أو يتهكّم عليها. وأستغرب الكلام، أستغربه جدًّا لأن جزءًا كبيرا من تاريخنا الحديث حدّدته المؤامرة، ورسمت مساره. يكفي مثل واحد ساطع سطوع شمس يولية، أُذَكِّر به القارئ والقارئة. وإن لم يكونا على دراية به فليكلِّفا نفسيهما ويعودا نصف يوم إلى كتب التاريخ ليقرآ عن «الثورة العربية الكبرى»، ثورة الشريف حسين في الجزيرة العربية التي انتهت بدخول الجيوش البريطانية القدس واحتلال بريطانيا وفرنسا للعراق وسوريا التاريخية (أي سوريا ولبنان و وفلسطين والأردن حاليًا). وربما يتعمّق فهمهما للأمر لو أتيح لهما الاطّلاع على بعض الخرائط المرتبطة باتفاقية مايو ١٩١٦ التي وقّعها مارك سايكس وفرانسوا جورج بيكو وممثل روسيا القيصرية الذي لا أعرف اسمه. تُقَسِّم الخريطة بلاد الشام (سوريا التاريخية)

بالورقة والقلم والخطوط المُلَوّنة: لفرنسا المنطقة الزرقاء (سوريا الساحلية أي لبنان الحالي، وشمال سوريا وجنوب تركيا)، ولها أيضا المنطقة «أ» البيضاء على الخريطة، والتي يحددها خط أزرق يحيط بها (سوريا الحالية فضلا عن جزء من شمال شرق العراق). ولبريطانيا المنطقة السمراء (فلسطين) والمنطقة الحمراء (الجزء الأكبر من العراق)، ولها كذلك المنطقة «ب» البيضاء على الخريطة، يحدِّدُها خط أحمر يحيط بها (وتشمل الأردن الحالي، وإن امتدت من العقبة إلى كركوك في شمال العراق، وإلى غرب البصرة جنوبه).

ولأنني أميل إلى الوَسْوَسَة فيما يخصُّ التاريخ والجغرافيا تحديدًا (رغم أنني في حياتي الخاصة أبعد ما أكون عن هذه الوَسْوَسَة). وما دام المثل يقول إن المؤمن لا يُلدغ من جُحْرٍ مرتين، ونحن لُدِغْنا من ذات الجحر مرّات، أتعجّب من الكلام بخِفّة عن نظرية المؤامرة. وأزيد تعجّبا لأن المتحدّث الذي يُمكن أن تغيب عنه اتفاقية سايكس بيكو لأنها من زمان، ولأن عقل الإنسان «مش دفتر»، وإن كان، فقد امتلأت صفحاته بمشاغل الحاضر، ولا مكان فيه لمُجْرَيات الأمس، فما بالك لو كان هذا الأمس يبعد عنا قرنًا من الزمان، لا يمكن أن يغفل عن ما يحدث له الآن. على أي حال لن أطيل في إيراد أمثلة من الماضي تدحض حُجَجَ المُستخفّين بنظرية المؤامرة، فقد يَثْقُل هذا الحديث على بعض القراء غير المهتمين بالتاريخ والجغرافيا. أما من يهمّه الأمر ويرغب في حديث مستفيض عن الشواهد التاريخية على الموضوع، فيمكنه الاتصال بي لمناقشة الأمر تليفونيًا أو إلكترونيًا أو

تحديد موعد في مقهى نلتقي فيه. وأرجو ألا يعتبر المهتمون بالأمر كلامي وعدًا، فمن المحتمل أن يزيد عددهم إلى حد يتعذّر معه الحديث معهم جميعًا أو لقاؤهم كلهم، لأنني ما زلت أواصل عملي رباعيّ الدَّفْع، (الجامعة والكتابة ومهامي كمواطنة تساهم بدرجة ما في العمل العام، ورعاية شئون بيتي وأسرتي)، مما لا يسمح بالتفرّغ للكلام، حتى وإن كان هذا الكلام على درجة كبيرة من الأهمية.

قبل الثورة، كثيرًا ما كنت أكرر أن حكّام مصر، أعني مبارك ورجاله، ليسوا كالملك فاروق. بالمقارنة يبدو الملك البدين، بفساده وخطاياه أقرب إلى شخصية في فيلم كارتون، شرُّها محدود، لا يخلو من صِبيانيّة. حين أعلموا الملك في قصر رأس التين في الإسكندرية، أن الشعب لا يريده، وقّع الملك في هدوء على وثيقة تنازله عن العرش. ورأيناه (في الأفلام التسجيلية، وفيما دوَّنه المؤرخون) يمشي في هدوء ليركب «المحروسة» لتحمله إلى منفاه، في إيطاليا. لم يُدِر الملك من منفاه الخطط المُرَكَّبَة لاستعادة عرش مصر أو حرقها على رءوس الضبّاط الذين استولوا عليها. استكان لقدره وواصل حياته متمررًا أو مكتئبًا أو غير مبالٍ، يتخفّف من همومه بالأكل النَّهِم ولعب الورق، وربما بهوايات أخرى لا نعلم عنها شيئًا، هكذا إلى أن مات.

منذ سنين وأنا أكرر: ليسوا كالملك، لن يتركوا كراسيهم إلا بدم كثير.

وبدا لي وأنا أتابع مُجْرَيَات الثورة من بعيد، أنني على حق، خاصة حين غدا واضحًا أن النظام لم يقبل بسقوطه الفعليّ وانكسار

جهاز قمعه مع نهاية يوم الجمعة الثامن والعشرين من يناير، فأعلن حظر التجوّل متحججًا كما ورد في بيان لوكالة الأنباء الرسمية بـ«أعمال النهب والتدمير والحرق والاعتداء على الممتلكات العامة والخاصة، بما في ذلك بعض البنوك والفنادق». بعد البيان مباشرةً، انسحب الأمن وبدأ الحرق والنهب، حتى إن بعض شباب التحرير انتقل لحماية المتحف المصري واستغاث من محاولة لاقتحامه. وفُتحت أبواب السجون...إلخ. مما تعرفونه من تفاصيل. ولم يكن المطلوب مجرد تشويه صورة المتظاهرين وإرباكهم وإشعارهم بأن بيوتهم وأمهاتهم أو أطفالهم في خطر، وفصل الطبقة الوسطى التي شارك شبابها وبناتها بمختلف شرائحهم، مع جموع الشعب، بل ترويع عموم المصريين وإشعارهم بأن أمن مبارك ونظامه بكل سوءاته أفضل من تلك الفوضى المخيفة.

كَوَّن الأهالي لجانًا شعبية. حموا بيوتهم. واصلوا اعتصاماتهم في ميادين التحرير، اعتصامات لا تتناقص بل تتزايد يومًا بعد يوم، إلى أن حاصروا القصر فهرب الرئيس إلى شرم الشيخ أولًا، ثم تنحَّى.

حين عادت لي قدرتي على التفكير الرائق بعد الجراحات الثلاث المتعاقبة، قلت لنفسي: كنتِ على خطأ. ذهبوا دون ما تخيّلتِه من دم، لا لأنهم أقل سوءًا مما تصوّرتِ، بل لأن الثوار قدّموا حلولًا عبقرية واستطاعوا بأعدادهم واحتشاد كل طاقاتهم المادية والثقافية، ودهائهم وخفة روحهم أن يحقِّقوا ما أرادوا بالحدِّ الأدنى من الدماء.

تدريجيا وببطء وعلى مدى شهور لاحقة جاوزت العام، سأعيد

النظر في قناعتي المُسْتَجِدّة وأعود إلى فكرتي القديمة، وإن كان السياق الذي تمّت في إطاره فاق خيالي. خطة جهَنَّمِيَّة، لا أتحرّج من وصفها بالمؤامرة:

إرضاء الجماهير الغاضبة ضرورة. يمكن التضحية بمبارك وأسرته وبعض رموز حكمه، تضحية مؤقتة أو دائمة. المهم النظام. التغنّي بالثورة وبشعب مصر العظيم، وطمأنته أن ثورته مُصانة وأنها غيّرت بقدر أو آخر مسار البلد. لأن المهم هو النظام. تعيين وزارة يرضى بها الميدان، ينزل رئيسها إلى التحرير كأنما يطلب بَرَكَة الثوّار قبل أن يسمِّي ويبدأ عمله. لأن المهم هو النظام. ولكن ما معنى النظام؟ يعني إعادة إنتاج العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الظالمة التي ثار الشعب عليها. إذا تململ الشعب، ورفع الثوّار أصواتهم بالاعتراض، نُلقي القبض على رموز أخرى ونحاكمهم بل نحاكم مبارك نفسه ونُرضي الناس برؤيته وراء القضبان يُنادى عليه باسمه الرباعي فيجيب: أفندم، كأنه مُجَنَّد أو مواطن مطحون له معاملة في مصلحة حكومية، لأن المهم، في نهاية المطاف، هو النظام. سيضمن المجلس العسكري سياسة مصر الخارجيّة، ويضمن نظامها الاقتصادي، ويضمن ألا يحدث أي تغيير حقيقي إلا اضطرارًا وبعد بذل الغالي والنفيس في إعاقته. المناورة واللفّ والدوران لكسب الوقت، حتى يتم بناء سلطة القمع، فضّ الاعتصامات بالعنف، تعقّب الثوار. ضربهم وسحلهم واعتقالهم وتعذيبهم وتقديمهم لمحاكمات عسكرية، أو ببساطة قتلهم دهسًا مُتَعَمَّدًا بسيارات مُصَفَّحَة، تُكسِّر

جماجمهم وتُقَطِّع أوصالهم، أو بإصابة مباشرة بالرصاص أو الخرطوش في الرأس أو العينين، أو بغاز أعصاب مُحَرَّم دوليًّا.

لن يذهبوا سوى بدمٍّ كثير. لم يكن حدسي القديم خاطئًا، ولكن خيالي لم يستبق هذه المداورة الجهنمية حيث يسفك الدم، لا في المواجهة الأولى وحدها، بل بعد «انتصار» الثورة، في مذبحة تلو مذبحة، وواقعة بعد واقعة، دائمًا على خلفية الحديث عن «ثورة يناير المجيدة» و«الشعب المصريّ العظيم».

الفصل الثامن عشر

ماتْرُوشْكَا

يوم جمعة. بكّرت في الخروج من البيت. ركبت سيارتي. اتجهت إلى العباسِيّة كأنني أقصد الجامعة، ولكنني حين تجاوزت بوابة المستشفى التخصُّصي في شارع الخليفة المأمون، لم أدُر يسارًا فيسارًا مرة أخرى لأعود بضعة أمتار توصلني إلى حرم الجامعة، بل سرت في خط مستقيم إلى نهاية سور المستشفى ثم انعطفت مع السور يمينًا، تجاوزت المطبّ القريب من كلية التمريض وواصلت إلى البوابة الصغيرة التي تحمل لافتة مكتوبًا عليها «جامعة عين شمس: دار الضيافة». دخلت. أوقفت سيارتي في الساحة الجانبية التي عادة ما نصفُّ فيها السيارات. اتجهت مشيًا إلى البوابة مرة ثانية. كان النهار غائمًا، فيه بللٌ طفيف كأنها أمطرت أو على وشك. وصلنا تباعًا إلى البوابة. عندما اكتمل عددنا توزّعنا على ثلاث سيارات. كنا عشرة، أستاذان من كلية الطب: الدكتور عمرو الشلقاني والدكتور خالد كمال، ومدرس مساعد ومعيدة من كلية الهندسة: سامي عفيفي وإيمان طارق.

ومدرسة ومعيدة من كلية العلوم: الدكتورة رهام حسّان ونادية القاضي، ومدرس مساعد من كلية الألسن هي ندى حجازي والإعلاميتان دينا عبد الرحمن ونجلاء بدير وكاتبة هذه السطور. تحرّكت القافلة الصغيرة قبل التاسعة صباحًا.

كنا نقصد قرية أكياد بالقليوبية.

لا أدري من صاحب الفكرة. ولا إن كانت من نقصدها بالزيارة على عِلْمٍ مُسْبَقٍ بها. ولكن زميلنا سامي المدرس المساعد بكلية الهندسة كان يعرف الطريق، يتقدم موكبنا الصغير ونتبعه. بعد ساعة أو أكثر قليلًا دخلنا في سكك ترابية تمرّ ببيوت ومحال صغيرة أحيانًا، وبالحقول في أحيان أخرى. ضيّعنا الطريق، قضينا بعض الوقت نبحث ونسأل ونعود أدراجنا في سكة قطعناها إلى أن وصلنا البيت المقصود. أوقفنا السيارات. نزلنا. بدا واضحًا سبب صعوبة الوصول، البيت خارج القرية، في مكان ناء تحيط به الحقول. بيت كبير نسبيًّا رجّحت أنه حديث البناء. له دَرَج رخاميّ عالٍ يوصلنا إلى الطابق الأول. صعدنا. طرق أحدنا الباب. دقائق انتظار. ظهرت سيدة، شغّالة في البيت على الأرجح: جئنا لزيارة هند. هند ليست هنا. أين هي؟ في بيت خالتها. أين بيت خالتها؟ في القرية. في أي مكان بالقرية؟ لا أدري. هل يمكن لأحد أن يرافقنا إلى بيت خالتها. لا أحد هنا إلا أنا. هل يمكن أن تعطينا العنوان أو تصفي لنا موقع البيت؟ لا أعرف. أوشكت أن تغلق الباب. خطت نجلاء بدير خطوةً صغيرة تجاوزت بها العتبة، لم يعد بالإمكان إغلاق باب البيت. قالت: نحن قادمون من

سفر، لا يصحّ أن نذهب هكذا. على الأقل قدّموا لنا شاي. تفضّلوا. تفضّلوا. لم تكن المرأة هي التي دعتنا للدخول بل نجلاء. دخلت فتبعناها. وبدا لي سلوكها مدهشًا، أعني الحسم والجرأة والبساطة التي تصرّفت بها. توزّعنا على مقاعد البهو الخارجي. كان البيت واسعًا وللبهو امتدادٌ آخر فيه مقاعد ضخمة كتلك التي جلسنا عليها. قدّرت أن أصحاب البيت عملوا في الخليج لفترة ما، أو عاشوا سنوات فيه. قبل أن يأتي الشاي، ظهرت سيدة كبيرة السن، بيضاء البشرة، ممتلئة. لحق بها رجل ثم رجلان أو ثلاثة. أنكروا وجود هند في البيت. قدّموا لنا الشاي. ثم حمل أحدهم كمّا من البرتقال على صحون. وضعها أمامنا قائلًا: تفضّلوا. مضيفًا أن البرتقال من شجرهم.

نعرف أنه غير مرحب بنا، لا يريدوننا أن نلتقي بهند، ينكرون وجودها، يرجّح بعضنا أنها في غرفة ما من غرف البيت، والبعض الآخر متأكد من ذلك. هواء الغرفة مُشْبعٌ بالتوتّر. هجومٌ مبطّن من جانبهم. نتحلى بالصبر. يحاول كل منا على طريقته الشرح والتفسير، وإن لم يكن واثقًا من ضرورة هذا الشرح أو جدواه. يظهر شخص متفوّق في الغِلْظَة. يتحدّث باستخفاف ويستعفي. غدا الهجوم معلنًا على هند وعلى الثورة وعلينا. تتصدى دينا عبد الرحمن لكلام الرجل بتهذيب وحسم. فجأة اندفعت امرأة إلى داخل البيت. بدت كعاصفة صغيرة تدفع زجاج النافذة فتشرعه على مصراعيه لدوامات الريح. ترتدي جلبابًا أسود وطرحة، تصيح: جيتوا ليه؟ عاوزين إيه؟ سيبونا في حالنا. إحنا مش وش أقسام وقضايا. كفاية اللي حصل. سيبوا هند

في حالها. ورغم سخط السيدة وعنفها في الكلام المتحامل علينا، لم تثر فينا أي قدر من العدوانية. غريب. رحنا بلا سابق تشاور أو اتفاق، نهدِّئها ونتحدّث معها بلطف. ما زلت أتساءل، بعد أكثر من عام من تلك الزيارة: هل كان مصدر تعاطفنا معها إحساسنا أنها صادقة، صدقًا لم نلمسه في الآخرين؟ أم أننا التقطنا أن غضبها لم يكن سوى شكل من التعبير عن خوفها واضطرابها من موقف لا عهد لها بمواجهة مثيل له؟ أم لأننا وغالبيتنا من النساء، لا بد واجهنا في حياتنا الشخصية أو حياة صديقات وقريبات هذه العاصفة التي تجمع بين فزع الأمومة واستبدادها حين تكسر البنت مرة وإلى الأبد قيودها وتخرج عن طوق القمع المكرّس؟ لا أدري. رحنا ننقل لها رأينا في ابنتها. في عملٍ ترى أنه جلب لها الفضيحة، ونرى أنه فعل شريف وجميل. بدا الدكتور خالد كمال أكثرنا تأثرًا. قال لها: أنا مثلك ريفيّ. أقدّر مشاعرك وقلقك من تقوُّلات الناس. وقف. اقترب. قال لها: سأُقبّل يدك على تربيتك لابنتك. انتفضت فجأة، وما زالت واقفة، لم تجلس منذ اندفاعتها إلى داخل البيت. قالت باعتداد: نحن من المُتَصَوِّفَة. وأبي قال لي: إن أراد أحد أن يُقَبِّل يدك سارعي بتقبيل قدمه. لا تقبِّل يدي، وإلا قبّلت قدمك! كان الكلام والصوت والإصبع المشرعة تهدّد أنها ستفعل. تراجع الدكتور خالد كمال. كانت الميلودراما بلغت حدّها. أقول ميلودراما، رغم أن مشهد السيدة كان فيه جلال مأساوي. إلا أنني في الوقت نفسه كنت أواصل محاولتي كسب مودة زوجة الجد التي قد تكون بما خِلْتُه حسًّا براجماتيًّا في كلامها تقول لنفسها: ما المشكلة؟ دول دكاترة كبار، أساتذة جامعة، ونجلاء بدير صحفية مشهورة ودينا

عبد الرحمن لها برنامج يومي في التلفزيون. وعمرو الشلقاني وخالد كمال أطباء يزوروننا في بيتنا، وقد نذهب إلى القاهرة و...إلخ. وأنا منهمكة في أفكاري وتمثّلي الكاريكاتوري للمشهد الحزين، انتبهت أن نجلاء بدير ودينا عبد الرحمن والأخريات اختفين. هل ذهبن جميعا ومرة واحدة إلى دورة المياه؟ والرجال، أين ذهب الرجال؟ ذهبوا لصلاة الجمعة. أين النساء؟ وإذا بالسيدة الممتلئة تقول لي ببساطة: ادخلي شوفي هند، كلهم دخلوا!!!! كأنها لم تنكر قبل قليل وجود هند في البيت. لم تعقد الدهشة لساني وحده بل امتدت إلى ساقيّ. استغرق حل العقدة دقيقة أو دقيقتين، ثم قمت.

كانت هند تبكي وتصيح. والأم تصيح دون أن تبكي، والأخ يُهَدّد بالضرب. تكرر هند أنها لم تقترف أي خطأ وستواصل المشاركة في الثورة، والنزول إلى المظاهرات، وستذهب إلى كليتها. وجه طفلة، تمامًا كوجهها في الفيديوهات التي رأيتها لها وهي في المستشفى وفي المحكمة. أسمر مدوّر، تحت العين اليسرى كدمات زرقاء كبيرة، جفن العين كحليّ مكتوم. في الوجه تورّم يخل بملاحته. رأسها ملفوفٌ بالضماد، وكذلك يدها اليسرى. كانت تجلس على كرسيّ متحرك تنتحب وتصيح.

الأرجح أن شريط الفيديو المسجّل لهند قد تم وهي في المستشفى قبل زيارتنا بأيام قليلة، كان وجهها في الشريط، الكدمات والضماد، كما رأيناها يوم الزيارة، وإن كان صوتها يوم التسجيل أكثر وهنًا وخفوتًا. في الشريط حكت هند: «أوّل حاجة عملوها قلّعوني

الحجاب وجرجروني من شعري وعرُّوني أمام الناس كلها... أكثر من ٢٠ عسكري ضربوني بالشوم على راسي واتجمعوا عليّا وداسوني تحت رجليهم وكأنى حشرة... عند سور مجلس الشورى جرجروني إلى الداخل، واستقبلنى الضبّاط والعساكر بالألفاظ النابية والضرب بالأرجل في البطن والرأس». والتهديد: «أهلا أهلا إحنا مستنيينك من الصبح إحنا هنعمل فيك وهنسوّي»، ثم إلى «غرفة التعذيب» بمجلس الشورى، الضرب مجددًا، يستهدف أماكن الإصابات، ثم «دخل ضابط وطلب مني ومن البنات أن نردد وراءه إحنا... مش سامع قولوا كمان» لفظ بذيء ما اقدرش أقوله، واستمر في ضربنا حتى الساعة الواحدة ليلًا، وكل ضابط يدخل يقول لنا: «أنا ماجربتش العصا الحديد دي عليكم ويضربنا بها حتى تنكسر، كما تم تهديدنا بالاغتصاب».

في تسجيل لاحق بعد زيارتنا بشهور تقارب العام. كانت هند في كامل لياقتها، تقف في الجامعة، أنيقة الملبس مُبتسمة. اختفت الكدمات التي كانت تخفي ملاحة الوجه. قالت: أنا متّهمة بخمس تهم: الاعتداء على قوات الأمن بالطوب، الاعتداء على قوات الأمن بالمولوتوف، إحراق المجمع العلمي، التحريض على إثارة الشغب والفوضى في الشارع المصري، إتلاف الممتلكات والمنشآت العامة المُعَدَّة للنفع العام. (التهم المكررة التي عادة ما يلصقها الأمن بالمتظاهرين). ولكنها في نهاية الشريط بكت. لا لم تكن تتحدث عما فعله بها الأمن بل كانت تتحدث عن أمها. تقول: «كنت دائما أتمنى

أن تحصل أمي على شهادة الأم المثالية. أن تشعر بالتقدير على ما بذلته في تربيتي. أن تفخر بي لأنها ربتني أحسن تربية. وأنا شايلالها جميلها على رأسي من فوق. ساعتها أوطّي على رجلها وأبوسها قدّام أهل البلد وكل اللي قال كلمة في حق هند. أشوف أمي اتكرّمت بسبب هند اللي ما عملتش حاجة غلط. ويوم ما تتكرم أمي يبقى أنا اتكرمت». عندها غلبها البكاء، فغطّت وجهها بيديها.

لم أخبرك أيها القارئ الكريم أن أم هند هي خالتها التي ربّتها وربّت شقيقها، بعد وفاة الوالدين.

لم نصل بعد إلى هند مليحة الوجه الباسمة. ما زلنا في أكياد. آثار القيد الحديدي الذي ربطوها به إلى سرير المستشفى ما زال على رسغها أو حاضرا في خيالها. هي بعد حبيسة في بيت منعزل بين الحقول. على رأسها ضماد يُخفي آثار عشرين غرزة، وعلى يدها ضماد. يحولون بينها وبين الزوار. يمنعونها من استخدام التليفون أو الإنترنت. يدلون بتصريحات باسمها، ينفون أن لها علاقة بالمظاهرات أو المتظاهرين. ينكرون أنها رفضت استقبال رئيس المجلس العسكري وهي في المستشفى احتجاجًا على يديه الملوثتين بالدم. يصرّحون للصحف: لم يحدث. لم تقل. لم تفعل. تصادف مرورها بالمكان.

ونحن نغادر البيت. مدت دينا عبد الرحمن يدها بهدوء وتلقائية، أمسكت بذراعي لمعاونتي على نزول الدرج. انتبهت دينا قبل أن أنتبه، قلت لها: شكرًا. حاولت أن تكون خطوتي أكثر اتزانًا، كأن

كل شيء على ما يرام. نعم. ثَقُل عليّ الأمر، وثقل أكثر عندما ضيّعنا الطريق مرة أخرى فوجدتنا نسير في شوارع لا أعرفها على مشارف العاصمة قد لا يجد مُخرج إيطالي موهوب كادرًا أفضل منها للتعبير عن الفقر والإهمال والغُلب في حدِّه الأقصى. (سألني مُريد ذات يوم إن كانت كلمة «غلابة» متداولة في أي دارجة عربية خارج مصر. قلت: لا أعرف). عندما نصل إلى القاهرة ونعود إلى دار ضيافة جامعة عين شمس لنأخذ سياراتنا ونعود إلى بيوتنا، وجدنا أنفسنا ودون سابق اتفاق نصعد إلى دار الضيافة. كنا بحاجة إلى شرب القهوة، ربما. وربما كنا بحاجة لاستراحة قصيرة. نجلس فيها معًا، لنتكلم أو لنصمت. يدور في رأس كلٍّ ما يدور.

كانت حكاية هند التي قُبض عليها مع زميلاتها الثماني أثناء التظاهر السلمي عند مجلس الوزراء، وتعرية البنت التي لا نعرف اسمها (وسماها الناس «ست البنات»)، واجتماع العسكر عليها وضربها، جزءًا من حكاية الفتيات اللائي عُذبن وسُحلن على مدى الشهور السابقة، كأن سحل النساء وإهانتهن، من كشف العذرية إلى الضرب المبرِّح إلى التهديد بالاغتصاب خطة مقصودة. أين؟! في المتحف المصري. في مجلس الشورى. على خلفية خطاب عن حضارة عمرها سبعة آلاف عام، وطنطنة عن أعراس الديمقراطية. نعم أيها القارئ الطيّب، أتفق معك. السلطة في بلادنا مُغْرَمَة بالمفارقات الفجّة.

لا تكتمل حكاية هند وزميلاتها و«ست البنات» إلا ببقية أحداث مجلس الوزراء: ضرب العسكر للمتظاهرين بالعصيّ والخرطوش

ورشّهم بالماء، وإلقاء كسر الرخام عليهم من فوق سطح مجلس الشورى، مع فواصل قصيرة يشير فيها العسكر بأصابعهم وأيديهم إشارات بذيئة. واقتحام المستشفى الميداني وتدمير ما فيه من أدوية وأدوات. وسقوط ١٢ شهيدًا (منهم الشيخ عماد عفت وعلاء عبد الهادي ومحمد مصطفى) و ٨٠٠ جريح، واحتراق عدد من الكتب النادرة في المجمع العلمي.

وحكاية مجلس الوزراء الممتدة زمنيًّا من السادس عشر إلى العشرين من ديسمبر ٢٠١١ تدخل بدورها في إطار أكبر من الأحداث الدموية المتوالية التي ألمّت بنا أثناء حكم العسكر، يسبقها على سبيل المثال، أحداث محمد محمود ويعقبها مجزرة استاد بور سعيد. حكاية في حكاية داخل حكاية ثالثة هي بدورها تفصيلة من حكاية أكبر. لا تثير البهجة في النفس كالدُّمية الروسية المسمّاة بماترُوشْكا، حيث الأم الخشبية الملوّنة تحمل داخلها دمية أصغر منها، والأصغر تحمل أصغر وهكذا. نبسطها أمامنا فنجدها ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا أو عشرين. نجمعها مرة أخرى، نضع الأصغر في الأكبر، واحدة تلو الأخرى حتى نغلق أكبرها. فنٌّ شعبيٌّ جميل، دُمى مُلَوَّنَة بألوان بهيّة لنساء متطابقات على اختلاف أحجامهن يتشاركن ألوان الثوب والزهور المرسومة عليه وعلى المنديل الذي يغطي الرأس. ولكن حكاية هند التي نضعها في حكاية أكبر فأكبر. حكاية حزينة قابضة. وكأن الخطة والغرض والمأمول المبتغى قتل الشباب والصبايا أو إصابتهم إصابة معوّقة.

أريد أن أحكي عن تَقَصُّد إصابة العيون.

يُقَدِّر الدكتور يحيى صلاح الدين أستاذ أمراض العيون بالقصر العيني (كلية طب جامعة القاهرة) مصابي الثورة بخمسة آلاف، منهم نحو ١٨٠٠ أدت إصابتهم في العين إلى فقدان البصر. كما يرى أن نسبة من أمكن علاجهم والاحتفاظ ببعض قدرتهم على الإبصار حوالي ٥٪.

في أحداث محمد محمود كان استهداف عيون المتظاهرين واضحًا. بل كان استهداف العيون جزءًا من خطة الأمن منذ الأيام الثمانية عشر الأولى، إلا أن نسبة الإصابات في العيون في أواخر نوفمبر ونصف ديسمبر، أي في أحداث شارع محمد محمود ومجلس الوزراء، كانت أعلى. يقول الدكتور يحيى إن الخرطوش المستخدم، وهو خرطوش جديد، تحتوي البلية الواحدة فيه خمس بليات، وإن ٩٥٪ من الإصابات كانت في العين، وإنه أجرى أكثر من ثلاثين جراحة في اليوم الواحد.

لم يكن الأمر صُدفة بل خطة ممنهجة ومكررة. في الأيام الأولى للثورة، تشهد الدكتورة نهلة صبحي إخصائية طب وجراحة العيون بالقصر العيني، المسئولة عن إجراء فحوص الأَشِعَّة فوق الصوتية على عيون المصابين يومي ٢٨ و٢٩ يناير في القصر العيني، إنها قامت بإجراء هذه الأَشِعَّة يوم ٣٠ يناير على حوالي ٦٠ عينًا، وفي اليوم التالي على ٤٠ عينًا. وتضيف:

«ما رأيته على جهاز الأَشِعَّة في جميع الفحوصات بلا استثناء، هو تدمير عنيف بأنسجة العين المختلفة (كالشبكية والجسم الزجاجي

أو العصب البصري)؛ أى إصابات تؤدي إلى إحداث عاهات بصريّة مستديمة وغالبًا ما تجعل حالة العين ميئوسًا من علاجها نتيجة للتهتّك الشديد . كان هناك ٣ حالات قد أصيبت بالعين اليمنى واليسرى.

بعض الرصاص كان يخترق العين مرتين، مرة من الأمام ومرة من الخلف ثم يستقر خلف العين أو يخترق العظام ويستقر في أجزاء من المخ (كما تبيّن من الأَشِعَّة المَقْطَعِيَّة). حتى الحالات التى مر الرصاص بجانب العين ولم يخترقها، أظهرت علامات لتدمير عنيف للشبكية والمشيمية نتيجة للاحتكاك السريع والحرارة المنبعثة. بعد هذين اليومين من الفحوصات تأكدت أن كل هذه الإصابات لا يمكن أن تكون قد حدثت عن طريق الصدفة أو الخطأ غير المقصود كما يردد البعض. خاصة أن المرضى قد أصيبوا في أنحاء مختلفة من القاهرة وبعض المحافظات المحيطة بالقاهرة».

لاحظي يا سيدتي القارئة أن شهادة الدكتورة نهلة صبحي تشير إلى مصابي يومي ٢٨ و٢٩ يناير ٢٠١١، وأن كلام الدكتور يحيى يخصّ أحداث محمد محمود ومجلس الوزراء، بعد ما يقرب من عشرة أشهر، أما بيان أطباء عيون الثورة الذي سأقتبس منه جزءًا الآن، فيتناول أحداث أوائل فبراير ٢٠١٢، وكانت احتجاجًا على استشهاد ٧٢ شابًّا من شباب النادي الأهلي، ذهبوا إلى بور سعيد لحضور مباراة كرة قدم، وعادوا في الأكفان. يقول البيان الصادر في ٧ فبراير ٢٠١٢:

«أعلنت جمعية أطباء عيون الثورة اليوم أن في الفترة من ٢

إلى ٥ فبراير الجاري استقبلت أقسام وعيادات العيون في القاهرة أعدادًا كبيرة من المصابين بانفجار في العين نتيجة إصابتهم بطلقات خرطوش بأنواع متعددة وبأحجام مختلفة. وأضافت الجمعية أن عدد الحالات التي استقبلها مستشفى القصر العيني القديم وبعض المستشفيات الخاصة جاوز الـ ٥٠ حالة وأدّت هذه الإصابات إلى فقدان تام للإبصار.

وأكدت الجمعية أن هذه الإصابات مطابقة لما تم توثيقه من إصابات ناتجة عن طلقات الخرطوش في العيون منذ اندلاع الثورة في ٢٥ يناير ومرورًا بالأحداث المتتالية والمواجهات السابقة وخاصة حالات استهداف العيون في أحداث شارع محمد محمود في النصف الثاني من نوفمبر الماضي. وجاءت الإصابات نتيجة مباشرة لإطلاق الخرطوش في اتجاه وارتفاع الوجه والعيون».

الفصل التاسع عشر

ولا تَحْسَبَنّ...

لا تسمح لنا القاهرة بالتقاط أنفاسنا. نركض على مدار اليوم. تفاجئنا كارثة، وقبل أن نحزن عليها بما يليق، نجد أنفسنا منهمكين في أمر لا فكاك من أهميته وضرورة المشاركة فيه، ثم فجأة نُجَمِّد المشاركة أو نواصلها ونحن نقفز إلى حَيِّز آخر، فقد جَدَّ جديد، شاغلٌ هبط كأنما من السماء وبقدرة قادر على رءوسنا واستقر راكبًا على أكتافنا، أو استحقاق معلوم مُسَجَّل مسبقًا على جدول أعمالنا حان وقته فتوجّب علينا الإيفاء به. نضطر للمشي أو الجري المُتَعَرِّج أو التقافز بشكل لا بد من تدريسه في الأكاديميات والمعاهد المتخصّصة، في ثلاث أو أربع سكك تتوازى أو يتقاطع بعضها ببعض.

في يوم الحادي عشر من سبتمبر، بعد أقل من ٤٨ ساعة من إعمال الشباب مطارقهم في الجدار ونجاحهم في هدمه، وما تلا من مواجهات واشتباكات امتدت حتى صباح اليوم التالي وحوّلت الطرف الغربي

لكوبري الجامعة إلى ساحة معركة يغطيها الدخان، يختلط فيها أبيض المُسَيِّل للدموع بأسود الحرائق وأحمرها، ويتَلَوَّن كسر الحجارة الذي يغطي الشارع بدم المتظاهرين، كانت وفود الأساتذة تتوالى على الطرف الشرقي من الكوبري في أتوبيسات كبيرة وصغيرة، وسيارات خاصة وسيارات أجرة وعلى الأقدام، كلها تقصد نادي هيئة تدريس جامعة القاهرة بالمنيل. كانت مدرّعات الجيش وسيارات الشرطة المصفّحة في مواقعها الجديدة غرب النهر، تُغلق المنطقة المحيطة بجامعة القاهرة. وفي شرق النهر في الطرف الآخر من الكوبري، عقد الأساتذة (قُدِّر عددهم بخمسة آلاف من مختلف جامعات مصر)، مؤتمرهم العام. اجتمعوا وتحدّثوا وصاغوا توصياتهم ثم حملوا مطالبهم واتجهوا في مسيرة إلى مجلس الوزراء. عند مجلس الوزراء كُلِّفَت مجموعة منهم بتسليم المطالب إلى المجلس، أما الباقون فوقفوا يهتفون وهم يتطلّعون بدهشة أو غضب إلى أفراد الشرطة العسكرية في شرفات المبنى المشرف عليهم، وربما يتساءلون «لماذا يشرعون السلاح؟ أين العدو؟!».

وبين مجزرتين، مجزرة ماسبيرو في التاسع من أكتوبر ومجزرة محمد محمود في العشر الأواخر من نوفمبر، كانت الجامعات تشرع في الإعداد لانتخاب قياداتها. تنهمك الأقسام في مناقشة مشروعات اللوائح والقوانين والمقترحات الخاصة بتنظيم الانتخابات. وتقوم كل كلية بانتخاب لجنة مُنَظِّمة للإشراف على انتخابات عميدها ورؤساء الأقسام فيها، ثم انتخاب من يمثلونها في المُجَمَّع الانتخابي الذي يختار رئيس الجامعة.

وبين المواجهات الدامية في محمد محمود في أواخر نوفمبر، ومجزرة مجلس الوزراء في منتصف ديسمبر، سيجتمع المُجَمَّع الانتخابي لجامعة عين شمس لاختيار رئيس للجامعة. ولما كنت عضوًا، في هذا المُجَمَّع الانتخابي أُمَثِّل كليتي مع ثلاثة من زملائي، فقد اتصل بنا عدد من المرشحين لرئاسة الجامعة بهدف التعرّف والتحاور بشكل مباشر قد لا تتيحه الأيام الثلاثة المقررة لتقديم عروض المرشّحين. اجتمع المُجَمَّع الانتخابي الممثِّل لست عشرة كلية هي مجموع كليات الجامعة. استمع إلى المرشحين وحاورهم، ثم عُقدت الانتخابات.

فاز الدكتور علاء فايز، أستاذ جراحة الأطفال بكلية طب عين شمس بأعلى الأصوات. لم يُصدر المجلس العسكري قرار التعيين إلا بعد ما يقرب من شهر من هذا الفوز. استلم الدكتور علاء مهام عمله في الأول من يناير ٢٠١٢. نشعر بالاعتداد لأن أول رئيس مُنْتَخَب لجامعتنا جرّاح مشهود له في مصر وخارجها. له إنجازات علمية وعملية مشرِّفة، فهو ينتمي لأول فريق من الجرّاحين أجرى عمليات زرع الكبد في مصر، وهو متخصص في جراحة المريء لمن يسمّون بأطفال البوتاس، (الأطفال الذين يتناولون البوتاس خطأً في العشوائيات والمناطق الفقيرة)، وهو مؤسس وحدة جراحة الأطفال في جامعة عين شمس وغيرها من الوحدات المجّانية التي نجح عبر التبرّعات، في توفير الملايين اللازمة لإنشائها.

وبين مجزرة مجلس الوزراء في منتصف ديسمبر ومجزرة استاد بور سعيد في الأول من فبراير، ستشيِّع الجامعة اثنين من أبنائها:

علاء عبد الهادي الطالب في السنة النهائية بكلية الطب ومحمد مصطفى المسجّل في كلية الهندسة. سيشارك علاء فايز، أول رئيس مُنْتَخَب للجامعة، طلابه مسيراتهم الاحتجاجية على فقد زميلهم علاء عبد الهادي، يقيمون له نصبًا تذكاريًّا سريعًا في كلية الطب: حائط متواضع من مستطيلات الطوب المتراكبة، عليه لوحة من الرخام مكتوب عليها:

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا

بل أحياء عند ربهم يرزقون

كُتبت سطور الآية في شبه قوس كأنما يظلل المكتوب تحتها. يليها في خطوط مستقيمة:

شهيد كلية الطب

الدكتور علاء محمد عبد الهادي

ولد في ١٨/ ١٢/ ١٩٨٨

استشهد في ١٦/ ١٢/ ٢٠١١

ثم شيّعت الجامعة محمد مصطفى. طالب الهندسة الذي أصيب إصابات بالغة في أحداث مجلس الوزراء. لساعات وقف علاء فايز مع زملاء له في غرفة العمليات، في محاولة لإنقاذه. اتصل بي تليفونيًّا: انتهينا من العملية الآن. حاولنا، ولكن حالته سيئة. ألمح إلى أن الولد لن يعيش، أضاف: ربنا معه.

استشهد محمد مصطفى. شيّعه زملاؤه. شيّعته الجامعة. شيّعه علاء فايز.

وبين مجزرة استاد بور سعيد في الأول من فبراير ومجزرة العباسِيّة في الثاني من مايو، ستتعرف الجامعة تدريجيًّا على رئيسها المُنتخب الذي سيبدو جديدًا لا في ممارساته اليومية فحسب، بل في شكله وهندامه وتلقائيته. يتحرك بين الكليّات بلا كلل، يلتقي بالأساتذة هنا وهناك، يعقد مجلس الجامعة المقرر كل شهر في كلية مختلفة من كليات الجامعة. يكلّف كلية الحقوق بمتابعة قضايا طلابه، من استشهد منهم، ومن اعتقله الأمن أثناء المظاهرات. نفاجأ به في حرم الجامعة بلا ربطة عنق، يرتدي بنطلون جينز وجاكت من قماش مختلف، أو يرتدي بدلة وربطة عنق لأن هناك وفدًا ما أو لقاءً رسميًّا. لا يجد وقتا ليُلقي، على الأرجح، نظرة خاطفة على المرآة ويرفع يديه بتلقائية ويضبط هندامه. ثبتته الصورة على خلفية حائط مكتبه في قصر الزعفران، مبتسمًا كعادته، تميل ربطة عنقه ميلًا خفيفا إلى اليمين.

بعد أربعة أشهر من قيام علاء فايز بعمله رئيسًا للجامعة، وبعد أربعة أشهر ونصف من استشهاد علاء الصغير الذي لم يكن تخرّج من كلية الطب بعد، وفي ظل اعتصامات ومظاهرات في العباسِيّة، شيَّعت جامعة عين شمس علاء الكبير، أول رئيس مُنْتَخَب لها. لم يسقط برصاص الشرطة في شارع محمد محمود ولا أمام مجلس الوزراء، ولا ذهب ضحية في استاد بور سعيد وهو يقصد متابعة مباراة كرة قدم. راح في حادث سيارة صباح الأول من مايو، وهو

يوم عطلة رسمية. وكان في طريقه إلى أرض العبور لمتابعة المنشآت الجديدة للجامعة.

ولا ندري إن كانت المفاجأة والصدمة ورفض الفقد هي التي جعلتنا نتساءل إن كان الحادث مجرّد قضاءٍ وقدر، أم حادثًا مدبّرًا. كان لتساؤلاتنا منطقها، لأن علاء الكبير رفض إغلاق الجامعة يوم الاثنين، فنشرت الجرائد بعد ساعات من قراره أنه قرّر إغلاقها. (شكى من ذلك التزوير في آخر رسائل إلكترونية أرسلها إلى بعض زملائه). في صباح اليوم التالي، الثلاثاء الأول من مايو، تهشّمت سيارته في حادث أودى بحياته، ونجا رغم الإصابات، السائق والسكرتير. مساء اليوم نفسه وحتى فجر اليوم التالي، كانت المجزرة في محيط العباسِيّة تتوسّع. تم اقتحام مستشفيات الجامعة، وكان علاء فايز، رئيس الجامعة والمسئول الأول عن مستشفياتها غائبًا عن المشهد، لأنه كان مُسَجّى في المستشفى ينتظر تشييع جنازته صباح الأربعاء.

كتبت نجلاء بدير وهي تعرفه عن قرب، مقالًا عنه بعد وفاته مباشرةً تحدّثت فيه عن إنجازاته. ختمت المقال بالعبارة التاليَة: «سألنى كثيرون هل موت علاء فايز مدبّر؟ كنت أجيب: نعم، دبره الله ليرحمه من أن يرى ما حدث أمام باب جامعته، ومستشفاه».

صباح الأربعاء في طريقي إلى الجنازة، لم أركب سيارتي تحسبًا من البحث دون جدوى عن مكان قريب من المسجد أصفّ فيه السيارة. ركبت سيارة أجرة. قلت للسائق إنني أقصد مسجد «أبو بكر الصديق» في مساكن الشيراتون (لم أكن أعرف لا المسجد ولا مساكن

شيراتون). بعد مغادرتنا لنفق الأزهر وقطع بضعة أمتار في شارع صلاح سالم، بدا واضحًا أن الطريق شبه مغلق. تصرّف السائق: انعطف يمينًا إلى منطقة المقابر وشق طريقًا متعرجًا بين الأزقّة، ومن زقاق إلى زقاق وصلنا إلى شارع عريض مكّننا، رغم ازدحامه، من قطع الطريق إلى مساكن شيراتون. وأخيرا بدا المسجد على بعد شارعين. كانت السيارات تسدّ الطريق إليه. طلبت من السائق أن ينزلني. واصلت على قدميّ. فاتتني مراسم الجنازة داخل المسجد، كانت كثرة من المشيعين تقف على الأرصفة المحيطة. وكانت سيارة إسعاف تغادر. لم أعرف إن كانت هي السيارة التي تحمل الجثمان. بقيت واقفة لا لأنني كنت أُعَزِّي من أعرفه من الواقفين فحسب، بل ربما لأنني مثلهم راغبة في إبقاء هذا الخيط بيننا وبين علاء فايز، وإن كان خيط جنازته. لأنني أعرف، كما يعرفون، أننا إذ نعود إلى بيوتنا نسلِّم بالفراق، نذهب في طريق، ونتركه يذهب وحده في طريق آخر.

في اجتماع المُجَمَّع الانتخابي لاختيار رئيس جديد للجامعة، قلت إن ما ورد في الجرائد والتصريحات العابرة ما زالت هي مصدرنا الوحيد لمعرفة ملابسات الحادث الذي أودى بالرئيس الذي انتخبناه. لم تُصدر إدارة الجامعة أي بيان رسمي عن الحادث وما توصّل إليه التحقيق، وهو ما يقتضيه احترام المجتمع الجامعي واحترام المُجَمَّع الانتخابي. علينا متابعة الأمر وإلا كأننا انتخبناه للموت. لم يقبل البعض كلامي، تعالت أصواتهم ترفض ما رأوه تشكيكًا وإثارةً للبلبلة، بل غضب أحدهم من عبارة «انتخبناه للموت» ووجد فيها ما يسيء،

لأن هذه إرادة الله. لم يصدر أي بيان من الجامعة حتى كتابة هذه السطور. ولم أذهب لحفل التأبين الذي أقامته إدارة الجامعة، ربما لأنني لم أكن قادرة أو راغبة في رؤية بعض الوجوه التي رأيتها يوم العزاء في مسجد آل رَشَدَان: ماجد الديب الرئيس السابق للجامعة، ورئيسها الأسبق أحمد زكي بدر واللواء سين واللواء صاد من أعضاء المجلس العسكري.

تحمّليني يا سيدتي القارئة، تحمّلني يا سيدي القارئ. أريد العودة بكما إلى الوراء قليلًا، تحديدًا إلى يوم الأحد التاسع والعشرين من إبريل ٢٠١٢: كنت أجلس إلى مكتبي في البيت حين دق جرس التليفون. زميلة من زميلاتي تتصل بي من الكلية، تخبرني أن مجموعة داخل الحرم، تقف وراء بوابة الجامعة، تُلقي بزجاجات فارغة على المتظاهرين خارجها. قالت: أراهم الآن من نافذة مكتبي. لا لبس في المشهد. واضح أنهم من البلطجيّة المسجّلين طلّابا. وضعت السماعة واتصلت بالدكتور علاء فايز. نقلت له ما سمعت. استغرب. استبعد إمكانية حدوث الأمر. قال: الشباب المسئولون عن الأمن عند البوابة ولا يمكن أن يسمحوا بذلك. عدت للاتصال بزميلتي. أكّدت: الضرب مستمر. الغريب أن كمية الزجاجات الفارغة المتوّفرة لهم كبيرة، كأنهم أعدّوا العدة مسبقًا لهذه المعركة. ما زلت أتابع ما يجري من النافذة. عدت إلى رئيس الجامعة، لم أتصل به تليفونيًّا بل كتبت له رسالة سريعة باللغة الإنجليزية على التليفون. ما زالت الرسالة محفوظة على تليفوني تحمل التوقيت: الثالثة وخمس وعشرين

دقيقة بعد الظهر. وهذا نصها مُتَرْجَمًا: «آسفة على الإزعاج. اتصلت بزميلتي للتأكّد من دقة ما نقلته لي. قالت إنها شاهدت شبابًا ترجّح أنهم بلطجية أو رجال أمن في ملابس مدنيّة، يلقون بزجاجات على المتظاهرين. كانوا داخلِ الحرم الجامعي. وتعلم أن قسمنا يُطِلّ على بوّابة الجامعة. مع تمنياتي الطيّبة. رضوى».

كانت هذه الرسالة والمكالمة التي سبقتها هي آخرَ اتصال بيني وبين الدكتور علاء فايز. أمام مسجد «أبو بكر الصديق» ومئات المعزّين يغادرون المسجد أو يقفون أمامه، صافحني أستاذ من كلية طب جامعة عين شمس، التقيت به مرة أو مرتين في التحرير. قال: مساء أول أمس حدّثني الدكتور علاء في التليفون، نقل لي ما قلتِه له. قال لي: حسّيت إن الدكتورة رضوى مش واثقة فيّ. وبدا متأثّرًا لذلك أو متألّمًا منه. لم أجد ما أقوله. زادتني المعلومة همًّا على همّ.

يوم الأربعاء فجرًا وعلاء فايز في المستشفى ينتظر تشييع جنازته، استشهد أبو الحسن إبراهيم الطالب في السنة الثالثة بكلية طب عين شمس. شيّعه زملاؤه من مسجد النور الذي يقع على بعد خطوات من ميدان العباسية حيث سقط. وبعد صلاة الظهر وسيارة الإسعاف تحمل جثمان علاء فايز لتنقله من مسجد «أبو بكر الصديق» إلى المقابر، كانت سيارة إسعاف أخرى تستعد للمغادرة في رحلة طويلة إلى الأقصر في جنوب الوادي تحمل جثمان الطبيب الأسمر الذي لم يمهلوه حتى يتم دراسته.

حين غادرت بيتي صباح الأربعاء متّجهة إلى مساكن شيراتون

لم أكن أعلم باستشهاد أبو الحسن، ولم أربط بين تعطّل حركة السير والجنازة الأخرى التي يحتشد لها الثوار. بعدها سأفكّر: تزامنت الجنازتان، كأن الله أراد أن يتشارك الكبير والصغير اللذان لا يحملان الاسم نفسه هذه المرة، في توقيت التشييع، لأنهما رغم اختلاف السن والخبرة المهنيّة زميلان درسا في الجامعة نفسها والكلية نفسها، وذهبا معا لا يفصل بينهما إلا بضع ساعات. لم ألتق بـ«أبو الحسن» ولكنني حدّقت طويلًا في صوره: نحيل متوسط الطول، يبدو دون العشرين رغم أنه أوشك أن يتمها. أسمر، جبينه عريض وحاجباه مقرونان خفيفًا، وفي عينيه نظرة تحيّرت في قراءتها (أظنها نظرة حزينة يميّزها سكينة أو هدوء أو شيء آخر لم أتمكن من تحديده). آخر ما كتبه أبو الحسن في صفحته على الفيس بوك، قبل ساعات من رحيله: «أكتب بدمي حياة ثانية لأوطاني». وعندما ذهب زملاؤه بعد رحيله، إلى غرفته بالمدينة الجامعية ليجمعوا أوراقه وكتبه وملابسه، وجدوا صورة علاء عبد الهادي معلّقة على الجدار. قالوا: شهيد يعلّق في غرفته صورة شهيد. أتطلّع في صور «أبو الحسن»، في المظاهرة وهو يرتدي تي شيرت مكتوبًا عليه ٦ إبريل (المجموعة التي ينتمي إليها)، وهو يجلس على العشب مع زملائه في الكلية، وهو يقف على شاطئ البحر يفرد ذراعيه على امتدادهما كأنما يوشك أن يطير، وهو نائم في خيمة أثناء الاعتصام، وهو في المستشفى الميداني. أمر بسرعة على صوره وهو مصاب يغطي الدم وجهه أو بعد إزالة الدم عن الوجه المستقرّ في الموت. يلحّ عليَّ السؤال: تُرى ما الذي مرّ بخاطره لحظة اخترقت الرصاصة

رأسه من جهة أذنه اليمنى، هل تمتم بالشهادة وهو يفكّر في أبيه وأمه؟ هل كانت صورة علاء عبد الهادي هي الماثلة أمام عينيه؟ أم السؤال: ترى من يحل محلي في المستشفى الميداني؟ (هل كان يعمل في المستشفى الميداني؟ في اعتصام العباسية أم قبلها كذلك في التحرير ومحمد محمود ومجلس الوزراء؟ لا أدري). ربما لمحت عيناه مسجد النور الذي أصيب على بعد خطوتين منه ففكّر: سيصلّون عليّ في هذا المسجد. أم لم يتح له التفكير في شيء، أي شيء لأن الألم باغته فسقط شهيدا قبل أن ينتبه أنها الرصاصة القاتلة.

استشهد أبو الحسن فجر الأربعاء، كما استشهد أحد عشر شابًّا سواه وأصيب المئات. وكان مستشفى الدمرداش (مستشفى جامعة عين شمس) يرفض استقبال المصابين، وكان البلطجيّة (المرسومة خطة تحركاتهم في قسم الوايلي، كما يؤكد البعض) يحاصرون مستشفى دار الشفاء، ويعدّون أسلحتهم البيضاء ومسدساتهم والخرطوش والرصاص الحيّ وقنابل المولوتوف لتنفيذ خطتهم المزدوجة في القتل والحرق الموجّه إلى المتظاهرين من ناحية وأهالي العباسية من ناحية أخرى، لضرب هؤلاء بأولئك. ولكن كارثة فجر الأربعاء ستتضاءل مقارنةً بمجريات يوم الجمعة. ويصعب حصر الشهداء والمصابين لأن الشرطة كانت تقتحم المستشفيات وتتصرف داخلها بعنف غير مسبوق أثار خوف أطباء المستشفى الميداني من إرسال المصابين إلى المستشفيات والشهداء إلى المشرحة. لن أعيد عليكما يا قارئَيّ الكريمَين تفاصيل

تعرفانها أو يمكنكما الاطلاع عليها بالصوت والصورة في عشرات المواقع بالشبكة الإلكترونية.

ما أريده منكما وألح فيه، هو أن تنتبها يا صاحبيّ وأنتما تقطعان شارع غمرة باتجاه ميدان العباسية وأن تنظرا مليًّا عن يمينكما ويساركما. لأن جغرافيا هذا المكان كما سيتضح لكما بعد سطور قليلة لن تبقى مجرد جغرافيا. عن يمينكما عمارات سكنية من ثلاثة وأربعة وأحيانًا خمسة طوابق، بعضها طرازه قديم يعود إلى الثلاثينيات أو الأربعينيات من القرن العشرين والبعض الآخر أحدث نسبيًّا، تحتها محلات وورش وصيدليات. لا يقطع صف العمارات المتجاورة إلا مداخل شوارع جانبية ضيّقة. ومبنى كبير لجمعية خيرية تابعة لمستشفى دار الشفاء ثم مبنى المستشفى نفسه. تمتد هذه البنايات مع انعطافة بسيطة يمينًا إلى ميدان العباسية والجسر العلوي المتجه إلى طريق صلاح سالم. عن يساركما بعد أن تتجاوزا الكلية الأمريكية للبنات مبانٍ معدودة ثم محطة بنزين. بعدها مباشرة الكاتدرائية المُرقُصِيّة، مقر الكرسي البابوي لأقباط مصر. تعقبها مجموعة من المباني كلها تابعة لكلية طب جامعة عين شمس، منها المستشفى الجامعي المعروف باسم مستشفى الدمرداش. نتجاوز مستشفى الدمرداش وحديقة صغيرة كانت منطقة عشوائية قررت السيدة الأولى السابقة أو الأسبق أن تكون حديقة للأطفال بها مكتبة لهم. وبعد انتهاء مراسم الاحتفال بالحديقة وبالأطفال التي نقلها الإعلام المرئي والمكتوب بفترة لا أذكر إن كانت أسابيع أو شهورًا، أُغلقت الحديقة

(يمكن ملاحظة السلسلة الحديدية والقفل الكبير على بوابتها). هنا أيضا شوارع جانبية تتفرع من الطريق، ثم مطب صناعي يبطئ حركة السير. المسجد الذي أمامكما الآن هو مسجد النور. سيصبح إلى يساركما وأنتما تواصلان مع مجرى الشارع إلى تقاطعه مع شارع لطفي السيد، تعبران النفق الصغير إلى شارع الخليفة المأمون، حيث حرم جامعة عين شمس على جانبي الشارع والمدينة الجامعية جهة اليسار ومستشفى عين شمس التخصصي في الجهة اليمنى.

ظهر الجمعة غادر تميم البيت للمشاركة في المسيرة التي تنطلق من جامع الفتح برمسيس إلى العباسيّة احتجاجًا على مجزرة يوم الأربعاء. اتصل بي تليفونيًّا قال: لم أشهد مسيرة بهذا الحجم من قبل. نحن الآن في شارع لطفي السيد. صعدت على الجدار الموازي لخط المترو. أرى المسيرة ممتدة من بداية الشارع عند مطلع كوبري أكتوبر إلى نهايته الذي يصب في ميدان العباسية. ربما يتجاوز العدد المائة ألف.

كنت أتابع المشهد على التلفزيون. ولكن ما أضافه تميم هو أن المسيرة وهي في شارع غمرة وقبل الوصول إلى الكاتدرائية اتجهت إلى شارع جانبيّ أوصلها إلى شارع لطفي السيد لتفادي أية مشكلة قد يسببها مندسون بإلقاء الحجارة على الكاتدرائية. قال: عند جامع الفتح في رمسيس بدا أن المسيرة يغلب عليها السلفيون. ولكننا الآن من كل الاتجاهات، هناك شباب من ٦ إبريل وكفاية وغيرهما. أنهى تميم المكالمة وعدت لمتابعة التغطية المباشرة للقنوات المختلفة.

الشرطة العسكرية أقامت حاجزًا من الأسلاك الشائكة في مجرى شارع الخليفة المأمون وتكتّلت وراءه. في الجانب الآخر، أمام السلك مباشرةً آلاف من المتظاهرين. في وسط الشارع إنشاءات مسوّرة بألواح الصفيح تتعلق بإنشاء خط مترو. (سيستخدم المتظاهرون بعض هذه الألواح كمتاريس يحمون بها أنفسهم عند بدء الهجوم عليهم. كان بعض المتظاهرين يتسلق سور الجامعة لمتابعة المشهد حين سقط متظاهر في جانب الشرطة العسكرية. راح العسكر يوسعونه ضربًا. اتصلت بتميم. قال: يا ماما الشارع ضيّق مقارنةً بحشود المتظاهرين، لو هاجموا ستكون كارثة. خد بالك من نفسك. لا تقلقي. سأضطر للمغادرة بعد نصف ساعة، عندي اجتماع بالقرب من التحرير في الساعة الخامسة.

أفلت تميم بقدرة قادر أو ببركة دعا الوالدين كما تقول العبارة الدارجة، لأنه حين سار باتجاه مسجد النور، وجد سيارة أجرة حملته إلى التحرير. وأفلتت نوّارة وعدد من زملائها بعد ركض صعب باتجاه طريق صلاح سالم. كانت المجزرة تتوسع. لا توفر أحدًا في طريقها. بدأت برش الماء المكثّف على المعتصمين وهدم خيمهم وإحراقها وإطلاق غاز مُسَيِّل للدموع ورصاص حيّ وخرطوش. (لم يحاول أيٌّ من المتظاهرين كسر بوابات جامعة عين شمس والاحتماء بالحرم الجامعي الواسع والممتد على جانبي الشارع. حاولوا الإفلات ركضًا باتجاه ميدان العباسية فوجدوا قوات الشرطة العسكرية والأمن والبلطجيّة الذين في خدمتهم يحاصرونهم. يتعقبونهم في شارع غمرة وفي شارع لطفي السيد وفي الشوارع الجانبية وفي محطات

المترو. يذبحون ويسحلون ويقتحمون المستشفيات للقبض على الشباب المصابين. أما من لجأ إلى مسجد النور من نساء ورجال فقد تمت محاصرتهم داخله حتى تم القبض عليهم وأخرجوهم منه كأنهم أسرى حرب. استمرت المَقْتَلَة من الرابعة والنصف حتى ساعات متقدمة من الليل. الشوارع والمباني التي وصفتها لكما قبل عدة فقرات كانت مسرح المَقْتَلَة والشاهدة إلى يوم الدين على تفاصيلها.

حين اتصلت بي نوّارة وسألتني إن كنت في البيت وإن كان يمكنها أن تأتي، كنت أعرف بهجوم الشرطة العسكرية والأمن على المعتصمين، ولكن لا أعرف التفاصيل ولا أتمثّل بالتالي أنها مذبحة. جاءت. جلست معي. سألتها: هل أعد لك طعاما؟ لا شكرا. إيه رأيك في ساندويتش؟ لا أريد، شكرا. فنجان قهوة؟ لا. لم تكن تريد شيئًا. تجلس في صمت. حاولت أن أخفِّف عنها فرحت أملأ الفراغ بالكلام. قامت من المقعد المجاور لي وجلست على كرسي من كراسي مائدة الطعام، راحت تكتب تغريدات على تليفونها المحمول. بعد ساعة أو ساعتين اتصل بها زميل من زملائها. قالت: يا دكتورة فلان حايوصّلني البيت. (بيتها في العباسية). متأكدة أنكما ستتمكنان من الوصول بأمان؟ سنحاول.

كثيرا ما أستعيد هذا المشهد. أخجل من نفسي لأنني حاولت أن أصرف انتباه نوّارة بالكلام. لم أكن أعرف حجم ما حدث. حين عرفت وتمثّلت، قلت: أي حماقة هذه يا رضوى، تحاولين صرف انتباه ناجية من المجزرة بعد ساعتين من حدوثها؟!

آسفة يا نوّارة.

الفصل العشرون

أزمات مرورية

لا لم أنتهِ بعد من الحديث عن القاهرة التي لا تسمح لنا بالتقاط أنفاسنا، وتضطرنا للركض المتزامن في سكك متوازية ومتقاطعة. وعلى غير القاهريين من القرّاء ألا ينسوا أن القاهرة التي وُلدتُ وأعيش فيها، تعاني من أزمات سير لا تنتهي، فيستغرق الوصول من بيتي إلى الجامعة وهي مسافة يمكن قطعها في اثنتي عشرة دقيقة بالسيارة، سواء عن طريق كوبري أكتوبر أو عن طريق شارع صلاح سالم ونفق الأزهر، ساعة ونصفًا. تزدحم الطرق فجأة وتنسد فيتعطّل السير، والأدهى أنك لا تعرف السبب: يظل السبب غامضًا إلى أن تعرفه في اليوم التالي، أو يبقى معلقًا يحيِّرك إلى أن تغادر هذه الدنيا وفي نفسك شيء منه. ولأن القاهرة سبعة عشر مليونًا، وأنا لسوء الحظ، ابنتها وأشبهها، تغدو الأزمات المرورية ملمحًا من ملامح حياتي اليوميّة، بل سمة من سمات دماغي حيث تزدحم الأفكار والمشاغل وتتقاطع في اختناقات مرورية، تُعجز

أي عسكري مرور مهما بلغت مهارته. خذ مثلا أسبوعين لا أكثر من شهر أكتوبر التالي:

مساء الاثنين، غادرت الكليّة في الخامسة مساء، بعد انتهاء لقائي الأسبوعي مع طلاب الدراسات العليا. كنت راضية عن محاضرتي، وعن تفاعل الطلاب، وما دار بيننا من حوار. أتعجّل العودة إلى الكتابة والتفرّغ لها حتى الأسبوع التالي. أقول لنفسي لن أغادر البيت إلا يوم الخميس، وهو عطلة رسمية لا اختناقات مرورية فيه. أقوم حسب الموعد المسبق، بفحص الرنين المغناطيسي على رأسي الذي تم إصلاحه، كما أسلفت وأوضحت في فصول سابقة. ولأن معمل الفحوص في المعادي، يمكنني زيارة خالاتي قبل الفحص أو بعده. زيارة تأخّرت عدة شهور. أعود بعدها إلى البيت ولا أقترب من الباب، إلا ظهر الاثنين التالي، لأذهب إلى الجامعة.

ارتحت للخطة، ولو أن صوتي أقل قدرة على إنتاج النشاز وإفساد الألحان، لانطلقت أردّد أغنية أم كلثوم «الأمل لولاه عليّا»، حتى يحملني الطرب فيجلجل الصوت: «أنا أنا أنا أنا، أنا عندي أمل»، غير مبالية بأبواق السيارات ولا عوادمها، ولا الزحف البطيء داخل نفق الأزهر واضطراري للتحديق والبحلقة لأن إدارة النفق خفّضت الضوء لسبب غير مفهوم، فبدا النفق ضبابيًّا مُعْتِمًا يهدد بحوادث كارثية.

وصلت البيت بعد السادسة مساء. وكعادتهما كان مُريد وتَميم في انتظاري لنتناول طعامنا معًا. أكلنا. لم يكن بمقدوري بعد هذا الغداء المتأخّر (أو العشاء المُبَكِّر)، سوى الجلوس ساعة لمراجعة بعض ما

كتبت. لا طاقة لإضافة جديد. على الأمل أن ينتظر. لا ضير: الأمل حالة مستقبلية. الأمل غدًا.

«غدا» (أي اليوم التالي المحجوز للأمل) قمت من فراشي. شربت قهوتي. جلست إلى الكومبيوتر وفتحت الملفّ، كتبت فقرةً واحدة. اتصلت بي ماهرو ابنة خالتي (نعم هذا هو اسمها وهو اسم فارسي يعني وجه القمر، اختاره لها جدي الدكتور عبد الوهاب وكان أستاذًا للغة الفارسية ومحقق «الشهنامة»)، لتخبرني أن فادية صقر رحلت. لم أعد بطبيعة الحال إلى الكتابة، وإن راودتني فكرة الكتابة عن فيفي، أرسم جسمها النحيل وهي طفلة، وجسمها الممتلئ بعد أن تجاوزت الخمسين. ظُرفها وضحكتها الطيبة، ومشاركتها في المظاهرات، ولم يمضِ على خروجها من المستشفى إلا يومان، (جاءت والدرنقة ما زلت مُعَلَّقَة بجسمها وإن أخفتها تحت ثوبها). وآخر لقاء لنا في التحرير، وعشرات اللحظات التي جمعتنا ونحن أطفال وصبايا في بيت حلوان، بيت جدي وجدها، لأن الأخوين عبد الوهاب وعبد الفتاح كانا يقيمان في بيت واحد ذي طابقين. لم أكتب عنها ولا عدت إلى كتابي، ولا قمت لأذهب إلى المعادي حيث بيت العزاء.

دق التليفون مرة أخرى: هالو رضوى. إتس إصْمَت. تفترض السيدة الهندية أنني أعرفها جيدًا. لا بد إذن أنني أعرفها. هل التقيت بها أثناء زيارتي للهند قبل ثلاثة أعوام؟ أين؟ هل هي المؤرخة كبيرة السن التي قابلتها في دعوة العشاء في بيت صديقتنا ريتو في دلهي؟ هل هي الناشرة التي قابلتها في مدراس التي صار اسمها شيناي، من

هي عصمت؟ هل هي عصمت أم قسمت أم إسمت؟ تحرّجت من السؤال (هل يجوز إن حدثتك سيدة بهذه الأُلفة أن تسألها: من أنتِ؟).
اقْتَرَحَت عليّ أن نلتقي في اليوم التالي مساءً في المركز الثقافي الهندي لنشاهد فيلمًا يعرضه المركز، ثم نجلس في مكان ما. وافقتُ رغم نيّتي في الاتصال بها قبل موعد العرض مباشرة للاعتذار عن مشاهدة الفيلم، واقتراح اللقاء في مقهى قريب. بعد دقائق، تليفون آخر من سيدة أخرى تقول: صاد الأستاذة النرويجية ستكون هنا يوم كذا، تدعوك على عرض لترجمة جديدة لمسرحية إبسن «عدو الشعب» تُعرض على خشبة مسرح الجمهورية. اعتذرت. ثم اتصلت سيدة رابعة تريد مقابلة صحفية. حاولت الاعتذار لها بلباقة. أصرّت. قلت إذن أرسلي لي الأسئلة وسأجيب عنها في أقرب فرصة. راحت تترافع بهِمَّة عن أهمية اللقاء في المقابلات الصحفية. أطالت. قلت لها: حاضر. نتصل بعد أسبوعين. مضى اليوم، لم أكتب شيئًا.

استيقظنا يوم الأربعاء على أخبار العدوان على غزة. نتابع القصف ونتحسّب من هجوم بريّ. لا تأتي صور القصف والمصابين والشهداء والعمائر المُدَمَّرَة منفردة بل تحمل معها أضعاف أحمالها: ذاكرة العدوان السابق في ٢٠٠٨-٢٠٠٩ والعدوان الأسبق على لبنان في ٢٠٠٦. أتصل بالسيدة الهندية. أؤجل اللقاء.

يوم الخميس سأرتدي الأسود لأنني أنوي الذهاب بعد فحص الرنين المغناطيسي للعزاء في فادية صقر. يبدو أنني نسيت أن الفحص من النوع نفسه الذي جرى لي في سيارة «السيمنز» الكبيرة التي كانت

تصفُّ بالقرب من مدخل مبنى الباسكريّا في مستشفى جورجتاون. مرة أخرى، الطنين والرنين والهدير والدَقْدَقَة والدَمْدَمَة والقَرْقَرَة، تصم أذنيّ وتصبّ فيهما بلا رحمة. لا نفع ولا جدوى لسدادتَي الأذنين اللتين أعطوهما لي. أرقد على مائدة معدنية، رأسي محشور فيما يشبه الصندوق، مثبّت إلى المائدة برابط يلتف على جبيني. في رسغي كانولا يحقنون فيها محلول الصبغة في منتصف الوقت بين بداية الفحص ونهايته. أخيرًا غادرت الغرفة. رأسي مثقل بالأصوات التي صبّت فيه، خطوتي غير ثابتة. أمسك مُريد بيدي إلى أن وصلنا السيارة. ركبنا واتجهنا إلى البيت. سأتّصل بالسيدة الهندية وأعتذر لها. تفاجئني باسمها كاملا فأعرف من هي، وأننا التقينا عدة مرات في القاهرة، وسبق لها زيارتي في البيت مرتين أو ثلاثًا، قبل أكثر من عشر سنوات. أشعر بالحرج والذنب. يخفِّف منهما السؤال: لماذا لم تقل لي اسمها الكامل من أول اتصال؟

يوم الجمعة سأرتدي ذات الملابس التي كنت ارتديتها في اليوم السابق، أعني ملابس الحداد، للقيام بالزيارة المؤجلة إلى بيت العزاء. أذهب مع مُريد. نعود إلى البيت لمتابعة الأخبار. سأحاول يومَي السبت والأحد الجلوس للكتابة، وأوفّق في كتابة صفحة أو صفحتين، ولكن التركيز كان صعبًا لأن الثلاجة فجأة توقفت عن العمل، ولأن نادية التي تتردد علينا مرتين في الأسبوع للمساعدة في شئون البيت تسألني: «دكتورة، تشربي قهوة؟»، «دكتورة، هل أضع الغسيل في الغسالة؟»، «دكتورة، اطلبي البقال، ينقصنا مسحوق غسيل، وسائل

كذا لتلميع الأثاث). ولأن صديقة قديمة من الخليج اتّصلت بي وقالت إنها في مصر ولا بد أن تزورنا. ولأن تميم قرر السفر مع وفد شعبي إلى غزة. وسافر فعلًا صباح الأحد. ولأن الشباب نزلوا إلى شارع محمد محمود مساء الأحد ليبدءوا إحياء الذكرى الأولى لمواجهات العام السابق، فاشتبكت الشرطة معهم. نتابعهم على بعض القنوات التي تنقل الحدث مباشرةً ثم ننتقل إلى قنوات أخرى لمتابعة القصف على المعبر، والوفد (أكثر من خمسمائة شاب وفتاة) عند المعبر، وتميم معهم. نتابع القصف على المخفر الملاصق لمستشفى الشفاء في غزة، والوفد في المستشفى، وتميم معهم.

يوم الاثنين، وأنا أستعد للقاء طلاب الدراسات العليا، اتصل بي تميم تليفونيًّا ليُعلمني أنهم مرّوا من المعبر وسيبدءون رحلة العودة إلى القاهرة. (لم يُسمح لهم بالبقاء في غزة إلا ساعات، لأن هذا ما اشترطته السلطات المصرية). وصلوا مدينة غزة في الحادية عشرة مساء وطلبوا منهم ركوب الأتوبيسات للعودة في الخامسة فجرًا). لم يَدُر بخاطري وأنا أقود السيارة عائدة للبيت بعد المحاضرة أن أترنّم بأي أغنية لأم كلثوم أو لسواها.

وصل تميم البيت في التاسعة والنصف مساء. استمعنا له، وتابعنا ما ينقله الإعلام عن تفاهم وشيك لوقف إطلاق النار في غزة، رغم تصاعد القصف وسقوط عدد أكبر من الشهداء، ومواصلة المقاومة إطلاق الصواريخ على المواقع الإسرائيلية. ورغم اطمئناني على وصول تميم وزملائه من رحلتهم إلى غزة، لم أتمكّن من النوم

تلك الليلة ولا الليلة التالية إلا في السادسة صباحًا. كانت بي رغبة حقيقية في النوم لكي أستيقظ في وقت مبكر نسبيًّا يتيح لي الكتابة في النهار. وعلى غير الأرق المعتاد منذ الصبا، والتي لا أعرف له سببًا واضحًا، كان الأرق ناتجًا عن صوت طلقات الأعيرة النارية المتقطّعة التي أسمعها. لا أعرف إن كانت قنابل مسيِّلة للدموع أو طلقًا ناريًّا أو خرطوشًا.

أكاد أوقن أن أحدا من القراء مهما بلغ انتباهه، لم يرد بخاطره أن الشهداء والمصابين وقصف الطائرات وتدمير العمائر، والغاز المُسَيِّل للدموع وطلقات النار والخرطوش يمكن أن تكون عناصر في هذا الاختناق المروري في الدماغ الذي يجعل الكتابة المُتَّزِنة ضربًا من المستحيل.

ثم تتسارع الأمور وتتعقد ويسقط المزيد من الشهداء والمصابين، وقد فاجأنا الرئيس المنتخب بإعلان دستوري يقسِّم البلد ويربك الناس ويثير فيهم قشعريرة السؤال إن كانت المواجهات الوشيكة تصديًا لمحاولات سرقة الثورة، أم انقساما مخيفًا للشعب الواحد ينذر باقتتال أهلي؟ هذا موضوع طويل لن أخوض فيه لأنني لا أريد أن أدرجه في فصل عن الاختناقات المرورية، وأتورّط أكثر في الخلط بين التعبير الهزلي عن نثر الحياة اليومية ومفرداتها، ومأساوية مشهد حزين في فصل مستجد ومكلِّف من فصول الثورة.

الفصل الحادي والعشرون

مقال قصير عن الكتابة

ليسمح لي القارئ والقارئة أن أتوقّف في هذا الفصل لأتحدّث عن الكتابة، لا بوصفها منتجًا أو وظيفة، ولا إبداعًا له شروط كالموهبة والمعرفة والدرَبَة، بل بوصفها فعلًا يتشكل في الدماغ وعلى الورق (أو على شاشة الكمبيوتر)، لا ينحصر في توفير أدوات إنتاج ومكان ينزوي فيه الإنسان حين يأتي عفريت الكتابة بما يأتي به وينفرد به ويلازمه على مدار الساعة. نعم، الكتابة فعلٌ أنانيٌّ وطارد يفرض درجةً من العُزلة الداخلية، ينفيك عمن حولك أو ينفي من حولك، يضعهم على الرفّ إلى حين، لأنك حتى وإن كنت تجلس معهم، تشاركهم الأكل أو الكلام، فأنت في مكان آخر، منشغلٌ به ومأخوذ. نعم الكتابة فعلٌ أنانيٌّ وطارد. لا تفوتني المفارقة، لأنها فعلٌ ينفي الآخرين ليخاطبهم ويصيغ علاقته بهم، ويشكِّل ما يشكِّل بلغتهم، (لأن لا أحد يمتلك لغة بمفرده). ينفيهم ليكتب حكايتهم. يُقصيهم ليراهم أكثر. يبتعد ليقترب، ويعزلك

ليتيح لك تبديد وجودك المُفْرَد وإذابته في وجودهم ومكانهم وزمانهم. عجيب!

في عام ٩٤ جاء مُريد إلى القاهرة، وكانت فترة نفيه ما زالت قائمة. أتى بإذن خاص يتيح له الإقامة في مصر لأسابيع معدودة. كنت بدأت في كتابة «الرحيل»، الجزء الثالث والأخير من «ثلاثية غرناطة». ويبدو أن كتابة الجزأين الأوَّلَيْن، كانت عرّفتني تمام المعرفة بالمكان والزمان والشخصيات فصرت أكتب بيُسر وسرعة، كأن أحدهم يُمْلِي عليّ الكلام. أجلس إلى مائدة الطعام الصغيرة في بيتنا السابق بحي المهندسين، ويجلس مُريد على مقعد في غرفة المعيشة على بعد مترين مني، لأن مائدة الطعام امتداد لغرفة المعيشة. أرى مُريد وأرى تميم إن كان عاد من المدرسة، وربما أسمع شيئًا مما يقولان وهما يتحدّثان بصوت خافت نسبيًّا. ولكنني مأخوذة بعفريت الكتابة، لأن مريمة التي ماتت محمولة على كتفَي حفيدها، في الجزء السابق من الرواية، وحفيدها علي الذي غدا يتصدّر هذا الجزء، وقبر مريمة الأشبه ببستان تتملَّكني تمامًا بما يؤَمِّن لي هذا الحاجز العجيب الذي يضمن استمراري هناك، رغم وجودي هنا التي تخصني جدًّا على بعد أمتار مني: زوجي وابني.

نعم أعتقد أن إبداع نص فنيّ من أعقد اختراعات البشر وأكثرها عجبًا، لا بسبب ذلك المزج الغريب بين الذاتيّ والمشترك، والمعرفة الموعيّ بها وغير الموعيّ بها، والآني والممتد، والمُجَرَّد والمُجَسَّد، بل لأنها تنقل احمالًا متراكمة على بساطٍ هشٍّ من الحروف والكلمات

والجُمل المفيدة. ربما لا تفي الصورة بالغرض، لأن الكلمات الحاملة، لها من المغناطيس طاقة الجذب، ومن الرادار قدرة الالتقاط، ومن الشجر الجذور المغمورة في طين الأرض، ومن العمائر التركيب، ومن الأحلام الالتباس والغموض المراوغ. باختصار شديد، تحمل الكلمات تاريخًا وجغرافيا، وطيّات متراكبة من طبقات الأرض ودخائل البشر وتجاربهم ومصائرهم وأحلامهم وتهويمات خيالاتهم.

في بودابست، في عطلة صيف عام ١٩٨٩، كنت أجلس في شرفة شقتنا (مُريد كان يعمل في بودابست). أجلس في استرخاء في ضوء شمس ممتع دفؤها في بلاد قد يأتي الصيف فيها بأمطار ورعود وأيام غائمة وباردة. لا أجلس على مقعد، بل على شلتة حمراء، هي شلتة مقعد من مقاعد مائدة الطعام. أُمَدِّدُ ساقيّ وأُفَكِّرُ في واقعة مضى عليها عامان: فقدنا لصديقنا ناجي العلي. أستعيد تفاصيل الواقعة- متى وأين سمعنا بالحادث. رحيله بعد ثمانية وثلاثين يومًا من الاغتيال. أستعيد وجه زوجته وأولاده. لا أدري كم بقيت في جلستي. ثم غادرت الشرفة. اتجهت إلى المكتب الأخضر إلى يسار الداخل من باب البيت. أتيت بدفتر جديد وقلم رصاص. فتحت الدفتر. لوهلة بدا لي أنني سأكتب عن ناجي العلي. كتبت: «آمنة تخشى البحر، ولكنها تكذب على قلبها». من هي آمنة؟ لماذا تخشى البحر؟ وما الذي يدفعها للكذب على قلبها؟ كان فعلَ الكتابة وهنا المفارقة، فعل تلقٍّ وإنصات يُعرِّفُني بحكاية آمنة التي هبطت عليّ ذلك النهار الصيفيّ في شرفة مشمسة تحيط بها أصص زهور الخُبّيزَة الحمراء

التي زرعها مُريد. لا سابق معرفة، لا فكرة عنها، لا مشروع يخصّها. أتت بلا موعد. تتبعت حكايتها إلى أن نشرتها باسم «سراج». انتهيت من الرواية، وهي رواية قصيرة لا تتجاوز المائة صفحة، في شهرين أو أقل قليلًا. بعدها راجعتها عدة مرات. لكن الجملة الأولى بقيت كما هي، بلا تعديل في حرف أو فاصلة.

ولأن هذا الكتاب، ليس رواية بل سيرة ذاتية، تتطابق فيها المؤلِّفة والراوية والمرويُّ عنها، تختلف المسألة بعض الشيء، أو ربما تختلف كثيرًا. لا تأتيني لا أدري من أين، امرأة اسمها آمنة أو مريمة أو ندى أو رُقَيَّة، يشرد الخيال خلفها ليلتقط لحظة عاشتها أو بيتًا أقامت فيه. لا أحتاج في حالة كتاب السيرة الصريح الذي أكتبه سوى النظر حولي وورائي وفي داخلي لأرى أو أتذكَّر. كأنني أنقل نقلًا، فالأحداث مكتوبة سلفًا، وكذلك الشخصيات والأماكن والأزمنة، ومن قال ماذا، وماذا حدث عندما، ومتى أحسست أو فكّرت في كذا. ربما أضيف تعليقًا أو خاطرة أو بعض تأملات هنا أو هناك. تظل المُهِمَّة رغم ذلك، أبسط، ويبدو الخيال بلا وظيفة أو دور؛ ينفرد العقل بمهام حَكْي ما سبق لي أن خبرته ورأيته وسمعته وأحسست به. كأنه آلة تُلْقِمُها الذاكرة ما تُلْقِمُها، فتُنتج الكلام.

ولكن ما أقوله ليس صحيحًا في جُمْلته. وإن لم يَخْلُ تمامًا من الصحة، فهو لا ينطبق إلا على جزء منه. وإلا كيف أُفَسِّر التفاوت بين فصول تُكتب بيُسر، وهي دائما الأقوى، وفصول تتعثّر كتابتها وتستدعي المُراجعة مرة واثنتين وثلاثًا؟ كيف أفهم لماذا ومن أين

هبطت عليَّ جملة ما أبدأ بها فصلًا فتفتح باب الكلام المتدفِّق؟ ثم من قال إن الأحداث والشخصيات مكتوبة سلفًا؟ لا يعني حضورها في أرض الواقع، أنها مكتوبة، إذ يتعين عليك لكتابتها قراءتها وصياغتها واكتشاف علاقات تربطها في سياق متماسك له معنى. ويتعيّن إدراجها في لغة كثيفة لا تقنع بمُهِمَّةِ التوصيل وحدها، بل تظل تختلس النظر يمينًا ويسارًا وإلى الخلف، وتمدّ يدها وتأخذ لأن القناعة ليست من صفاتها.

والذاكرة؟ هل هي خادم سيّدها تحمل له ما يأمر به أم أنها سيدةٌ لعوبٌ مراوغة، تتواطأ مع الخيال وتجاريه؟ هل هي المسئولة عن تنظيم هذه المادة وهيكلتها والتضمين والإسقاط والتصدير والمواراة، أم أن الخيال هو المسئول؟ هل هو الخيال أم العقل المنظِّم؟ ربما وبصرف النظر عن هذه الأسئلة وإجاباتها المحتملة، يكون فعل كتابة نص سيرة صريح كهذا الذي أكتبه، محكومًا كغيره من النصوص (الروائية مثلًا) بتلك الخصوصية في التعامل مع الكلام، بكل ما راكمتُه، أنا المؤلفة، من معارف وخبرات وقناعات ومشاعر وذائقة ووعي وانتباه، تتكثّف جميعا وتتلخّص في نظرة، هي نظرتي إلى الدنيا ونفسي.

الفصل الثاني والعشرون

شارع مدرسة الحرية

بعد عام من مولدي انتقلت الأسرة المُكَوَّنة من المحامي وابنة الدكتور عبد الوهاب وطفلين، طارق ابن الأربع سنوات ورضوى التي تجاوزت عامها الأول أو أوشكت، إلى شقة في الطابق الرابع والأخير من بناية تطل على النيل وكوبري عباس، على بعد خطوات من شارع الروضة الفاصل بين شطرَي الجزيرة الممتدة من مباني القصر العيني شمالا، إلى مقياس النيل جنوبًا، يحدّها من الشرق كوبري الملك الصالح وثلاثة جسور أخرى صغيرة، ومن الغرب كوبري عباس (لم يكن كوبري الجامعة أُنشئ بعد).

سأتعلّم المشي والكلام في هذه الشقة، وأتحوّل من طفلة تحبو أو تتعثر في خطواتها الأولى إلى تلميذة في الحضانة ثم في المرحلة الابتدائية تحمل حقيبة بها دفاتر وكتب وأقلام. تقف كل صباح أمام البيت في انتظار سيارة المدرسة، التي تعيدها إلى المكان نفسه بعد الظهر.

كان النيل حاضرًا بقوّة في المشهد، أطلّ عليه من شباك غرفة نومي، ومن شرفة البيت. أتابع المراكب السابحة على صفحته. أطيل النظر في مجراه الواسع وفي الكوبري المُقام عليه. أتطلّع ناحيته وأنا أنتظر أتوبيس المدرسة، وأتابعه عند العودة لأنه مقياس لا يخيب لقربي من البيت. لا أذكر من طلاب الحضانة والصف الأول الابتدائي سوى ولد واحد، أتعرّف عليه بيُسر في صورة الصفّ المدرسيّ. أشير إليه، أقول: هذا شريف. ولدٌ طويل مقارنةً بالأطفال الذين يشاركونه الصورة، شعره أملس له قصة تغطّي جبينه. حين تقف سيارة المدرسة أمام بيته، (بناية تختلف عن باقي بنايات الشارع، واجهتها مقوسة) ويغادرها شريف، أعرف أنني وصلت إلى البيت. تتحرك السيارة في خط مستقيم متجاوزة ثلاث عمارات أو أربعًا وتتوقف لأنزل.

من سن الرابعة والنصف حتى أتممت الرابعة عشرة سوف أنتقل يوميًّا باستثناء أيام العطلات، من منيل الروضة إلى مدرسة «ليسيه باب اللوق»، والتي دائمًا ما يلي اسمها على أتوبيس المدرسة وكراريسها والشهادات الشهرية اسمٌ فرعيّ هو: البعثة العِلمانية الفرنسية. لاحقًا بعد العدوان الثلاثي وتأميم المدرسة عام ١٩٥٧، سيتغيّر الاسم إلى ليسيه الحرية. والمدرسة كما يعلم قرّاء عديدون من متابعي أخبار هذه الأيام، تمتد مبانيها وأسوارها في ثلاثة شوارع، هي محمد محمود ويوسف الجندي والشيخ ريحان. إن كنتَ قادمًا من جهة ميدان التحرير، تتجاوز باب الجامعة الأمريكية في شارع محمد محمود فتجد بوابةً خشبية هي بوابة «البِتي ليسيه» أي مدرسة الصغار،

المخصّصة لدخول تلاميذ الحضانة وفصول الصفوف الابتدائية الأولى (أو هكذا كان الأمر في زماني)، بعدها بأمتار في الشارع نفسه بوابة خشبية كبيرة مكتوبٌ عليها جران ليسيه (أي مدرسة الكبار)، تفضي البوابة لمدرسة البنات من الصف الثالث أو الرابع الابتدائي، على ما أذكر، إلى نهاية المرحلة الثانوية. فإن انعطفت يمينًا مع سور المدرسة إلى شارع يوسف الجندي تلقَ في منتصف الطريق بابًا كبيرًا تصعد بضع درجات للوصول إليه، هذا هو مدخل الإدارة. تواصل، تنعطف يمينًا مرة أخرى فتلتقي ثلاث بوابات، بوابة الـ«ليسيه دو جارسون» (أي مدرسة الأولاد) ثم بوابة الجراج (تدخل منها أتوبيسات المدرسة وتخرج)، تليها بوابة المسرح. لصق المسرح قاعة إيوارت التابعة للجامعة الأمريكية. تشغل مدرسة الليسية والجامعة الأمريكية مُرَبَّعًا واحدًا يمتد من ميدان التحرير غربًا إلى شارع يوسف الجندي شرقًا، ومن شارع محمد محمود شمالًا إلى شارع الشيخ ريحان جنوبًا. يفصل المنشأتين حائط مشترك. ولا أدري إن كان هذا الحائط يقسم المُرَبَّع إلى قسمين متساويين. وإن بدا لي أن مساحة الليسيه أكبر.

آمل ألا يكون القرّاء ملّوا هذا الوصف الذي كنت أودُّ أن أعززه بزيارة قصيرة لمصلحة المساحة لأحصل على المزيد من المعلومات عن هذا المُرَبَّع، والمُرَبَّع الأكبر الذي يقع فيه. كما أرجو ألا يتسرّعوا في استنتاج أنني على وشك التوَرُّط في مساحة من الحنين إلى المدرسة، أو تمجيد أيام زمان. تحلّوا ببعض الصبر، لأن مهمتي صعبة

نوعًا ما. فالمُرَبَّع المذكور والشوارع الثلاثة والميدان، والمُرَبَّع الأكبر الذي يشملها ويتكون من تقسيمات متعدّدة داخله، فيهما عدد مدهش من المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، منها المشترك ومنها ما يخصّ البنين أو البنات، منها الحكوميّ، ومنها التابع لإرسالية دينية، ومنها الخاص المملوك لمستثمر ما، معلوم أو مجهول. والعجيب أن المقررات الدراسية لأي من هذه المدارس لا تتيح للمدرّس أو المدرّسة اصطحاب التلاميذ إلى الشوارع التي تحيط بمدارسهم، لكي ينتبهوا إلى موقعهم من الإعراب.

في مدرسة الليسيه فرانسيه، كان متوقعًا منا قبل أن نتم المرحلة الابتدائية أن نتقن تصريفات الأفعال الفرنسية التي لا تقتصر على الماضي والمضارع كما في اللغة العربية، بل تنقسم إلى ١٦ زمنًا، على ما أذكر. وكان متوقعًا منا أن نقرأ بمساعدة بسيطة من قبل المُعَلِّمين نصوصًا من المسرح الكلاسيكي الفرنسي في القرن السابع عشر، ونصوصًا نثرية وقصائد قديمة وحديثة نحفظها عن ظهر قلب. يكرر المُعَلِّمون على أسماعنا يوميًّا، بل ومرات متعدّدة في اليوم الواحد، ضرورة وجود كتابين على المكتب، لا تجوز المذاكرة أو كتابة الواجب المدرسيّ في غيابهما، هما القاموس وكتاب النحو. لا يا قرائي الطيبين، ليس المقصود «لسان العرب» أو «مُختار الصحاح»، ولا أيًّا من الأجزاء الأربعة لكتاب الشرتوني في النحو مثلًا، بل قاموس فرنسي ـ فرنسي، قد يكون «لاروس» أو «روبير» وأيًّا من كتب النحو الفرنسية المُعْتَمَدَة من المدرسة.

ولن يضير هنا استطراد آخر لمشهد ظل طافيًا بين آلاف المشاهد التي انطمرت في حيِّز ما من الذاكرة غير الموعيّ بها. كان علينا أن نحفظ قصيدة «الضمير» لفكتور هوجو. قصيدة طويلة من سبعين بيتًا، نقلتها كلٌّ منا عن اللوح، بخطها الحريص أو الأشعث، فشغلت ثلاث صفحات من دفترها. تتناول القصيدة شعور قابيل بالذنب لقتل أخيه، تتبّع حركته مع أسرته، عبر الشعر الموزون المُقَفّى، وهو يحاول الهرب من عين كبيرة تلاحقه. يركض قابيل شاحب الوجه معقود اللسان ويرتجف. يرحل إلى حدود البسيطة. يختبئ في خيمة. يتحصّن خلف جدار. يبني له الحدّادون مدينة من الجرانيت مفاصلها من الصُّلب، يسكن قلعةً لها أبراج مشيّدة، يحوّل ظلها النهار إلى ليل. يحفر له أولاده ومناصروه قبرًا عميقًا يدفن نفسه فيه. ولكن العين كانت دائمًا هناك تحدّق فيه وتملؤه بالهلع.

تصوّروا أيها القراء الكرام وقع هذه القصيدة على أطفال لم يبلغوا الثامنة أو التاسعة من أعمارهم. أحمد الله أن معرفتنا بالفرنسية كانت تحول دون وصول كامل شحنة الفزع المرسومة في القصيدة. كان علينا حفظها عن ظهر قلب سواء فهمنا كلّ تفاصيلها أو لم نفهم إلا بعضها. لم تكن القصيدة وأجواؤها الكابوسية هي المشهد، بل زميلتنا جُويْس. طفلة في وجهها نمش. نحيلة وطويلة، لها رأس مدوّر صغير تؤكد استدارته قصة غير مُحْتَرِفَة لشعر أملس يغطي بالكاد النصف الأعلى من أذنيها. نادت المدرّسة. قامت جويس. تقدّمت إلى المنصّة الخشبية حيث مكتب المُدَرِّسة. استدارت لتواجهنا وبدأت في إلقاء القصيدة.

ركبتاها تصطكّان، ويهتزّ جزعها خفيفًا للأمام والخلف بشكل آليّ: هل ترتجف زميلتنا من أجواء القصيدة أم من وقفتها أمام المُدَرِّسة، أم كان الاهتزاز مواكبةً عصبية ما لإيقاعات القصيدة ومثانيها (لكل بيتين ذات القافية)؟ لا أدري. كل ما أذكره أن وقفة جويس أصابتنا جميعًا بالذعر، صار ذعرًا على ذعر لأن أحدًا منا لم يتح له الإفصاح عنه. صرنا على يقين أن أيًا منا لن يتمكن من الوقوف لإلقاء القصيدة حتى وإن كان حفظها عن ظهر قلب، وربما أسمعها في الليلة السابقة لأمه أو أبيه، سواء كان يعرف الفرنسية أو لا يعرفها. لا أذكر على من نادت المُدَرِّسة بعد جويس، لإلقاء القصيدة. ولكنني متأكدة أنني عشت رعب اللحظة، وأن المُدَرِّسة لم تنادِني. ثم تفصيلة أخرى: أعتقد أن المحنة التي مرت بها جويس أمام عيوننا جميعا بدّدت الضغينة التي كنت أحملها لها، رغم أن المسكينة لم تكن السبب فيها. قبل عام من واقعة قصيدة «الضمير» ذهبت إلى المدرسة مَزْهُوَّة كأنني فتحت عكا. كانت أمي المُغْرَمَة بالرسم اعتادت إلى جانب تلوين بيض شم النسيم بغليه مع قشر البصل أو البقدونس أو البنجر، تخصُّ كلًّا منا ببيضة تُشَكِّل عليها ما يجود به خيالها من مشاهد، وتُلَوِّنُها بالفرشاة والألوان. حملت بيضتي المختلفة إلى المدرسة، كنت في الصف الثاني الابتدائي على ما أذكر. وفرّجت المدرسة على البيضة فإذا بها تقول: جميلة جدًّا، سنجري عليها قُرعة (أسمتها تومبولا)، وطبعًا كدت أسقط من طولي من شدة المفاجأة. أردت الاندفاع في مرافعة عن حقي في البيضة، مؤكدة أنها هدية من أمي، ولا يجوز عمل قُرعة عليها كأنها بلا صاحب. لم أفعل كبرياءً أو لسبب أكثر أرضية، أن لغتي الفرنسية لن تسمح لي بالمرافعة المُعادِلة

لإحساسي بالظلم. لم أُعَلِّق. تمت القُرعة وفازت جويس بالبيضة المرسومة. لم أسألها إن كانت فرحت بها، ولا اقتربت منها في ذلك اليوم ولا في الأيام التالية. ولم أنس البيضة. بعد واقعة «الضمير» لم يعد هناك مكانٌ للبيضة.

حين تركت المدرسة في مطلع صيف ١٩٦٠ بعد أن استجاب أبي لإلحاحي بالانتقال إلى مدرسة عربية، كنت تعلمت أشياء كثيرة ومررت بتجارب كثيرة، منها الخوف (لم تكن القصيدة وحدها بل عشرات المواقف ربما أبرزها «كاستانييت» المشرفة الطويلة النحيفة التي كانت تحمل في يدها تلك الآلة الخشبية الأقرب لصاجات راقصات الفلامنكو، وإن كان لها وظيفة النذير. ما إن نسمعها نتيقّن أنها على وشك أن تنقضّ علينا بتوبيخ ما أو عقاب. ماذا فعلنا؟ الأرجح سمعتنا نتحدّث باللغة العربية).

الآن فقط وبعد نصف قرن أنتبه أن الأمر المُلْزِم بمنعنا من الحديث في المدرسة باللغة العربية قد يكون السبب الأول في محبّتي لهذه اللغة، وشعوري بأن حصة اللغة العربية هي فسحة من نوع ما، أقرب لخروج السجناء من زنازينهم ليروا الفضاء والشمس. ولأنني كنت طفلة ثرثارة أوصف بأنني غَلَبَاوِيّة فلك أن تتصور أيها القارئ الكريم وضع رضوى المحرّم عليها أن تتكلم بلغتها التي تتقنها وتُمَكِّنُها من الترافع بما يليق بابنة محامٍ (سألني مدرس التاريخ ذات يوم وأنا أجادله في مسألة ما، اتضح لاحقًا أنه على حق فيها: إنتِ يا بنت أبوكِ محامي؟ قلت: نعم. فاتني أن سؤاله لم يكن استفهاميًّا).

ربما في مرحلة لاحقة وتحديدًا بعد تأميم المدرسة لم يعد أحدٌ منا يلتزم بهذه التعليمات. بقيت اللغة الفرنسية هي لغة الدراسة لكافة المواد باستثناء المواد الاجتماعية المستحدثة (تاريخ مصر وجغرافيتها والتربية الوطنية والدين). أما اللغة الإنجليزية فلها حكاية طريفة، لأن السيدة التي كانت تُدَرِّسها كانت من أصول روسية، سمعنا أنها من نبلاء روسيا القيصرية. عجوز قصيرة صغيرة الحجم، تبدو في ملبسها وسلوكها وتصفيفة شعرها وقفازاتها المنسوجة من الدانتيلَّا ومظلّتها المصنوعة من الحرير على ما أذكر، خارج المكان والزمان. نَتَعَفْرَت عليها ولا ننتبه لدرسها، فتتفاوت درجاتي بين النجاح بالكاد والدرجة النهائية. لن أكتشف أنني أميل إلى دراسة اللغات، وأنني سريعة التحصيل فيها إلا بعد انتقالي إلى مدرسة أخرى. فاجأني أن أدائي في دروس العربية والفرنسية والإنجليزية أفضل من زميلاتي في الفصل. تطري عليَّ المُدَرِّسات، فأستغرب.

وعليّ أن أعترف أن من مترتّبات تجربتي في هذه المدرسة الفرنسية، سؤالًا مقيمًا سيلازمني إلى ما بعد تخرّجي من الجامعة، حول قدراتي. في المدرسة الجديدة التي انتقلت إليها وقفزت عن عام دراسي كامل بعد امتحان قبول في كافة المواد، كانت النتيجة دائما مُرْضية. على مدى ثلاث سنوات كنت الأولى على الصف والأولى على كل صفوف الفرقة الدراسية. ومع ذلك بقي السؤال مُعَذِّبًا للطفلة والصبية. تفتقد الثقة في الذات وتجتهد لتؤكد لنفسها أنها تستطيع أن تفي بالمطلوب. هل هو

شيء في الجو يصيب البنات؟ أعني الثقة والتساؤل عن القدرة، أم أنها المدرسة الفرنسية وهواء يتنفسنه على مدار اليوم الدراسيّ مُحَمَّل بشوائب العنصرية وعوادمها ؟ الله أعلم.

لم أنوِ التوقّف داخل المدرسة للتعليق على بعض تفاصيل حياتي فيها بل عرّجت عليها لأن أحدًا فيها لم يقل لي ولا لزميلاتي: من هو يوسف الجندي؟ ومن هو محمد محمود؟ والمؤكد أن حكاية صغيرة عن كل منهما ولو بشكل عابر كانت تُطلق خيالاتنا (أعلن يوسف الجندي استقلال قريته أثناء ثورة ١٩١٩، فصارت تعرف في التاريخ باسم جمهورية زفتى، أما محمد محمود فكان نُفِيَ مع سعد زغلول إلى جزيرة سيشيل، وعاد منها ليحكم ويصير رئيسًا للوزراء ووزيرا للداخلية دورات متعددة فارتبط اسمه بالقمع والتمييز ضد فرقائه السياسيين). المؤكد أن معلومات قليلة عن محمد محمود، كانت كفيلة بأن تثير فينا نقاشًا وتفتح باب المناظرة والتفكير في تصاريف السياسة وتحوّلات أربابها وأسباب هذه التحولات. بل إن أحدا لم يقل لنا في المدرسة إن المبنى الملاصق لنا، أعني مبنى الجامعة الأمريكية، هو المقرُّ الأول للجامعة المصرية بعد افتتاحها عام ١٩٠٩.

وللدقة لا بد من الإشارة أن حجب المعارف الثمينة، أو التي أظنّها ثمينة، عن التلاميذ لم تكن حِكرًا على المدرسة الفرنسيةِ، لأنني حين انتقلت إلى مدرسة عربية (كلية البنات بالزمالك). لم تقل لنا مديرة المدرسة السيدة خيرية حمدي رحمها الله، وكانت سيدة ذات حضور، تدير المدرسة بصرامة وكفاءة، يخافها حتى الرجال من

كبار الأساتذة، لم تقل لنا، ولم تقل لي رغم محبتها الواضحة لي، إن «باحثة البادية» شقيقة زوجها.

حين ترحل خيرية حمدي سأعرف أنها أرملة عصام الدين حفني ناصف، الأخ الأصغر لملك حفني ناصف. سأتوقف طويلًا أمام الأمر. أتساءل: لماذا لم تقل لنا؟ ألم تتخيل المرَبِّيَة الفاضلة أثر ذلك على صبايا صاعدات إلى المُمْكِن؟ بعدها وبالصدفة مرة أخرى، سأعرف أن عصام الدين حفني ناصف كان كاتبًا له مكانته، وكان أسّس حزبًا اشتراكيًّا في عام ١٩٢٧. أستغرب لأن السيدة التي كانت تدللني لأنني الأولى في المدرسة وتعطي لنفسها الحق في ملحوظات خاصة كأن تقول لي فجأة: بكرة توزيع الشهادات، غيّري هذه التسريحة (تصادف أنني في ذلك اليوم، لممت شعري في ذيلين صغيرين على جانبي الوجه كطفلة في الرابعة)، صفّفيه بشكل لائق، أقول إن هذه السيدة لم تحك لي ولا لنا، محمولها الخاص من التاريخ الذي يشعرنا بأن الحكايات المُلْهِمَة أقرب مما نتصور، نلمسها لمس اليد ونحن نصافح السيدة الخمسينية، أو نستمع إليها في طابور المدرسة كل صباح.

سأعرف بعض هذه الأمور وأنا طالبة جامعيّة، ولكنني لم أعرف كما لا يعرف ملايين المصريين الذين يمرّون يوميًّا بميدان باب اللوق ما عرفتُه بالصدفة من ملفٍّ قديم للصور. عشت تسع سنوات في مدرسة على بعدِ شارعين من ميدان باب اللوق، وتردّدت مرات بلا حصر على المقرّ القديم لمكتبة الجامعة الأمريكية وعلى الجامعة

نفسها، ثم انتقلت أنا وأسرتي للسكن في المنطقة فكان شراء الخبز أو الخضراوات أو الجرائد يقتضي عبور الميدان إلى الجانب الآخر من شارع الفلكي حيث السوق. بل والأدهى أنني وأنا أكتب روايتي «قطعة من أوروبا» قرأت عشرات الكتب والمقالات عن القاهرة الخديوية. لم تصادفني إشارة ولو عابرة للحقيقة التالية:

خذ عندك يا سيدي القارئ. وسجّلي يا سيدتي القارئة: بيت أحمد عرابي كان في ميدان باب اللوق. أين؟ عندما أصل الميدان بعد ناصية واحدة من تقاطع شارع هدى شعراوي بشارع الفلكي، تكون محلّات الإلكترونيّات عن يميني ومقهى سوق الحميدية ومحل عبد المعبود للقهوة ومقهى الحرية عن يساري، وأمامي في الجانب المقابل للميدان سيّد عمارة: حاتي الجيش، ومنتجات العياط لعسل النحل وفي امتدادهما قبل تقاطع الميدان بشارع منصور الغرفة التجارية، وبعد التقاطع مكتب البريد والبنك، وفي الزاوية محل زهرة اليمن للبنّ. أدور بعينيّ في الميدان أعبره ثم أواصل السير باتجاه محل العطارة وأدور بعينيّ ثم أعبر ثانية بحثًا عن المكان المحتمل لبيت عرابي. لا لافتة، لا علامة. لا إشارة. لا شيء. هل كان في امتداد الميدان الحالي جهة عابدين؟ لا أجد من استعلم منه. متى هُدم البيت، بعد الاحتلال مباشرةً أم بعد سنوات من تحويله إلى مستشفى؟ حوّلوه إلى مستشفى؟ نعم. هذه معلومة مؤكدة حصلت عليها وأنا أتتبع خيوطًا في الشبكة العنكبوتية، فأجد الرد في موقع لصور قديمة. ماذا اكتشفت؟ خذي عندك أيتها القارئة الطيبة، وسجّل يا فتى:

وجدت مجموعة من الصور لمستشفى الليدي ستانجفورد المنشورة في مجلة «إلَاسْتْرِيتِد لندن نيوس» (أي أخبار لندن المُصَوَّرَة) عن «أحداث ١٨٨٢»، هكذا تسمي المجلة غزو جيش الاحتلال البريطاني لمصر. المجلة منشورة في ديسمبر ١٨٨٢، أي بعد ثلاثة أشهر من هزيمة عرابي في التل الكبير وإحكام الاحتلال البريطاني قبضته على البلاد. وتشير التعليقات المصاحبة للصور بوضوح أنها صور «مستشفى الليدي ستانجفورد» المُقام في بيت عرابي. وبالرجوع إلى الرسوم، نلاحظ الاهتمام بتقديم مزايا المستشفى وعنايته بالمرضى، مثلًا صورة لرجل واضح من الزعبوط الذي على رأسه أنه فلّاح أو من عامة الناس لا من الأفندية، تحمل له الممرّضة الإنجليزية إبريقًا تقدّم له منه مشروبًا ما. رسمة أخرى لممرّضة تناول مريضًا سيجارة، وثالثة لبعض المرضى في مرحلة النقاهة أحدهم يضطجع على أريكة يقرأ الجريدة، والثاني الملفوفة ذراعه بالأضمدة، يرتكز إلى سور الشرفة ويصرف الوقت بالفُرجة على الشارع والمارة فيه، وثالث يتبادل حديثًا وهو جالس مع الممرّضة. هؤلاء أفندية يدلّ على ذلك طربوش أحدهم والملابس الغربية للثلاثة الآخرين. هناك رسوم أخرى لقاعة الطعام، وقاعات الغسيل... إلخ.

وإن لم تلحظوا الأهمية البالغة لهذه الرسوم فلا بد من أن أضع لكم النقاط على الحروف: هي صورة للبريطانيين (بعد أن احتلّوا البلاد وكسروا جيشها) يمارسون عطفهم على المصريين، يعالجونهم ويعتنون بصحتهم. أين؟ في عقر دار أحمد عرابي الذي لا أعرف إن

كان العدد الخاص بالمجلة المذكورة تضمّن أيًّا من صوره. باختصار نحن إزاء مجموعة من الصور عن «عبء الرجل الأبيض» ومهامّه الحضارية النبيلة في استعمار الآخرين.

أردت الخوض في هذا الحديث لأنني أريد لسلمى سعيد وهي تلميذتي، التي أطلقت عليها المجنزرة ثلاث طلقات خرطوش في كل خرطوشة منها ستّون بِلْيَة أصابت وجهها واستقرّت في ساقيها، أن تعلم أنها أصيبت بالقرب من بيت عرابي، وأريد لأولادها من بعدها أن يعرفوا أن أمهم وهي صَبيّة في العشرينيات أُطلق عليها النار في هذا المكان. وأريد ألا ينسى أولادها ولا أحفادها ولا أحفاد أحمد حرارة ومالك مصطفى وماري دانيال وأشقّاء جابر صلاح أن أهلهم والمئات غيرهم ممن استشهدوا أو أصيبوا في هذا المكان، كانوا وهم يصنعون له تاريخًا جديدًا، يتواصلون مع تاريخ لم يحكوا لنا عنه أو حكوا حكايات منقوصة. والأهم أنني أريد أن أقول القليل الذي عندي ليتكامل مع شهادات من شاركوا في مواجهات شارع محمد محمود، وشارع الشيخ ريحان، وشارع يوسف الجندي، وشارع الفَلَكِي وشارع منصور وميدان باب اللوق، لكي لا يأتي يوم تُقام فيه عمائر عالية، فنادق أو شركات، أو قاعات للألعاب الرياضية وكمال الأجسام يتردّد عليها ناس يجهلون عن قصدٍ أو غفلة أن هذه العمائر قائمة على أرض روتها دماء. دماءٌ كثيرة.

لم تحكِ بعد يا رضوى عن محمد محمود. سأحكي، ولكنني قبل أن أنتقل إلى محمد محمود بأجزائه الثلاثة: محمد

محمود ١ في أواخر نوفمبر ٢٠١١ ومحمد محمود ٢ في أوائل فبراير ٢٠١٢ ومحمد محمود ٣ في ذكرى محمد محمود الأولى في نوفمبر ٢٠١٢، أعود إلى المدرسة التي دَرَسْتُ فيها من أكتوبر ١٩٥٠ إلى يونية ١٩٦٠، أي منذ كنت طفلة في الرابعة يعلّقون على صدرها قماشة وردية عليها اسمها وعنوان بيتها ورقم تليفون أهلها، لكي لا تركب الأتوبيس الخطأ، حتى أتممت الرابعة عشرة من عمري، أقرأ روايات نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي وديكنز والأختين برونتي، وأجادل أبي في شئون السياسة، وأختلف معه، أقول إنني قبل أن أنتقل للفصل التالي أريد العودة إلى المدرسة لأشهد أنا رضوى بنت مَيّة ومصطفى، أنني رأيت جنود الأمن يحتلون مبنى المدرسة ويضربون المتظاهرين من فوق سطحها ومن داخل فصولها، يضربونهم بالخرطوش ويُنكرون أنهم يفعلون، يلقون عليهم الحجارة والمولوتوف، ويستكثرون أن يدافع المتظاهرون عن أنفسهم بالحجارة والمولوتوف. يُلقون عليهم بكراسي المدرسة أو بعض أثاثها. هذه صور نُشرت في الجرائد وفي مختلف المواقع الإلكترونية ويمكنكم الرجوع إليها. ولكن الصورة التي أدهشتني وحيّرتني هي صورة أحد المدنيين العاملين على خدمة قوات الأمن (تُرَكِّز الصورة على يديه: سمراوان خشنتان، تحمل اليمنى كومة من الأحشاء الخشبية للبيانو، ما زالت بعض الأوتار ومفاتيح ضبطها الأشبه بأزاميل صغيرة عالقة فيها، واليسرى ما زالت داخل البيانو، خلعت للتو ثلاثة أخشاب مستطيلة). لا تكشف الصورة وجه المخرِّب، وإن نقلت لنا جسمه وملابسه من أسفل الكتفين إلى الركبتين. يرتدي بنطلونًا

وقميصًا وسُترة رياضية سميكة. أدهشتني الصورة وحيّرتني. هل تصوّر أن هذه الأخشاب على صغرها يمكن أن تستخدم سلاحًا ضد المتظاهرين أم أرادها لغرض آخر، لبيعها مثلًا؟ في صورة أخرى الأخشاب الصغيرة مُكَوَّمة على مفاتيح البيانو المُدَمَّر. هل اكتشف الرجل أنها لا تصلح لشيء فانصرف عنها، أم كان أعدّها ليستخدمها في الليل لإيقاد نار يتدفأ بها في فناء المدرسة؟ غريب أنني في تلك الصورة الثانية، تعرّفت فورًا على المكان، تذكّرت فتحات الأبواب المُقَوَّسَة، إسلامية الطراز. إنها غرف «البتي ليسيه» مدرسة الصغار، تلاميذ الحضانة والصفوف الابتدائية الأولى.

أحتاج فاصلا صغيرًا.

تعبت.

الفصل الثالث والعشرون

بين السيرة واليوميات

أعي منذ بدأت في كتابة هذا النص أنني أجمع فيه بين السيرة الذاتية والمذكّرات، وهما نوعان مختلفان من الكتابة، وإن اشتركا في التأريخ للذات وتقديم التجربة الشخصية وتصنيفها وتأمّلها والتعليق عليها، باسترجاع مراحل العمر بشكل متسلسل زمنيًّا أو يخلط بين الأزمنة. وأعي أنهما، أعني السيرة والمذكّرات، على تشابههما، يختلفان في أن المُتَوَقَّع غالبًا من الشكل الأول هو حكاية العمر بمختلف مراحله، أما المذكّرات فغالبًا ما تُرَكِّزُ على مرحلة بعينها أو تجربة بالذات من تجارب حياة ممتدة. ولكن ما جدّ عليّ دون سابق نِيّة أو إعداد، هو النقل المباشر لحدث يومي أسجِّل بعض تفاصيله ومشاعري تجاهه، وهو ما يدخلنا في نوع ثالث من الكتابة أقرب لليوميات، التي قد تدوِّنها سين أو صاد في مفكرة تحمل أعلى كل صفحة منها تاريخ اليوم، أو في دفتر تضيف إليه التاريخ بخط يدها، نُعَنْوِنُ به الكلام أو تُذَيِّلُه. لا استرجاع هنا، بل مواكبة آنِية، كل يوم

بيومه. وفي التعريف الشائع، تتميز اليوميات بأن كاتبتها أو كاتبها لا يسعى لمشاركة الآخرين فيها، فهو يكتبها لنفسه، كأنما يريد أن يتأمّل حاله ومجريات يومه، أو يعود إليها ليدقِّق أمرًا اختلط في الذاكرة، وربما استعان لاحقًا ببعض ما ورد فيها، إن كان كاتبًا. هنا لا بد من التنويه أن هذا التعريف المستقرّ لليوميات لم يعد مُسْتَقِرًّا، إذ فَكَّكَتْهُ أشكال الكتابة على الشبكة الإلكترونية، البرقيّ منها والمستفيض، بين «تغريدة» و«حالة» و«مذكِّرة» و«مُدَوَّنة» و«تعليق» وغيرها من أنواع التفاعل. باختصار، تناسخت اليوميات في عصرِ الثورة الإلكترونية من تعبير مغلق عن الذات لا يسعى إلى إشراك الغير فيه، إلى شكل من أشكال التواصل الاجتماعي الفوريّ واسع المدى.

لا تدخل هذه المقدمة في باب الزائد عن الحاجة أو الاستطراد أو الثرثرة. هي محاولة، على ما أظن، لغَرْبَلَة الأمور داخلي وإيجاد حل لكيفية التعامل مع سيل من الأحداث أقف أمامه متسائلة إن كانت محاولة مواكبته لا تخلو من حكمة أم هي ضرب من الحماقة أو الجنون.

كنت أكتب في أمان الله. أُنجز يوميًّا عدة صفحات، تُرضيني. ترجِّح لي السلاسة التي أكتب بها أن النص تشكَّل داخلي، لا يتعيّن عليّ سوى النظر والإنصات لنقله كلامًا أُسَجِّلُه على الكمبيوتر، دفقة أولى تلقائية وكاملة لها منطقها وقوامها، لا تتطلّب بعد ذلك سوى التشذيب المعتاد لفقرة هنا أو جملة هناك، أو ضبط للبنيان بالحذف أو الإضافة أو التقديم والتأخير.

أقول: كنت أكتب في أمان الله. كلما جلست أمام الكمبيوتر، يأتي الكلام، فأترك له أن يقودني إلى سكك أتبعه فيها. فجأة تعثّر. اضطربت الكتابة، وركبتني الوساوس.

قلت: هذه كتابة سابقة لأوانها. مستحيلة. ما معنى رصد أحداث يعرفها الناس ويسجّلها الإعلام المرئيّ والمسموع، وتقتلها مقالات الصحفيين بحثًا وبرامج التلفزيون مناقشة؟ ليبقى الكتاب ناقصًا، مُسَوَّدة نصٍّ غير مكتمل، ينشره من ينشره بعد موتي لا لمتعة القرّاء، بل لتقصّي الباحثين الذين عادة ما يشغلهم هذا النوع من الكتابات. بدا لي أنني استسلمت لقرار التوقّف عن الكتابة، لأنني لا أعرف كيف، أو لأنني مكتئبة، أو لأن سيل الأحداث المتلاحقة يغمرني بما لا يتيح لي إلا محاولة مقاومة الغرق. ثم بدا لي أنني وجدت حلًّا في شكل اليوميات. قلت أضمِّن الفصل لائحة زمنية، تسلسل لتواريخ الأسابيع الثلاثة الماضية. أرفق كل تاريخ بمجرياته بما يتيح للقارئ والقارئة متابعة هذا السيل عبر نقاط مقتضبة. رحت أكتب مُسَوّدة قائمة بالأيام وأحداثها:

يوم كذا قامت سيارات مُصَفَّحَة بالاندفاع العشوائي وسط الشباب في شارع القصر العيني إيفاءً بتقاليد الثامن والعشرين من يناير والتاسع من أكتوبر، مخلفةً شوارع ضبابية غائمة من كثافة القنابل المُسَيِّلة للدموع، ودماءً على الأسفلت. أصيب أحمد نجيب (١٨ سنة) إصابة بالغة، نقلته إثرها سيارة إسعاف إلى المستشفى. وكان جيكا (جابر صلاح، ١٧ سنة) الذي أصيب عند تقاطع شارعي

محمد محمود ويوسف الجندي قبلها بأيام، يصارع الموت في العناية المُرَكَّزَة في مستشفى القصر العيني.

يوم كذا، أصدر رئيس الجمهورية إعلانًا دستوريًّا يعطي فيه لنفسه سلطات مطلقة. إعلان خطير في مترتِّباته، أخطر ما فيه أنه شقّ البلد فانقسمت إلى فريقين: مُعَارِض ومُسَانِد. فور إذاعة البيان نزل المعارضون إلى التحرير. في اليوم التالي، نزل مئات الآلاف إلى الشوارع احتجاجًا على الإعلان الدستوري. ملأ المتظاهرون ميدان التحرير والشوارع المتاخمة، كما نزلوا بالآلاف في الإسكندرية والسويس والمحلّة وغيرها من مدن مصر. وكانت الاشتباكات في محمد محمود قد توقّفت وإن انتقلت إلى شارع القصر العيني ثم إلى ميدان سيمون بوليفار في الجانب الغربي قبليّ الميدان.

يوم كذا، شيّع الآلاف جيكا من مشرحة زينهم إلى ميدان التحرير. صلّوا عليه في مسجد عمر مكرم. سارت الجنازة في شارع محمد محمود. توقّفت حيث سقط. واصلت إلى مقابر الغفير. صرّح مدير أمن القاهرة أنه تم القبض على ٣٢٩ متهمًا في أحداث محمد محمود بينهم ٧٤ حدثًا. اليوم التالي، مليونية «للثورة شعب يحميها»، مظاهرات حاشدة في مدن الجمهورية واشتباكات بين المعارضين وأنصار الحزب الحاكم، ومحاولات لاقتحام مقرّاته. أعنف الاشتباكات شهدتها مدينة المحلّة الكبرى مركز النشاط الصناعي في مصر وطبقته العاملة. بعد يومين اشتباكاتٌ في دمنهور تؤدي إلى

إصابة ٧٦ شخصًا. يسقط إسلام، تلميذ في الخامسة عشر من عمره ينتمي للإخوان المسلمين. يستشهد.

يوم كذا، مليونية أخرى للثوّار في التحرير تردّ عليها في اليوم التالي مليونية للقوى الإسلامية عند جامعة القاهرة. يتصدّر فيها على المنصة قيادات سَلَفِيَّة، أشك أن بعضها له علاقة بجهاز أمن الدولة. تنتهي المليونية بانتقال حشود من الإسلاميين إلى المحكمة الدستورية لتحاصرها.

يوم كذا، دعوة لجبهة الإنقاذ الممثّلة للمعارضة ومسيرات لمئات الآلاف تتجه نحو قصر الاتحادية. اليوم التالي يدفع الإخوان بكوادرهم وبعض السلفيين من حلفائهم إلى مقر قصر الاتحادية، يهدمون خيم المعتصمين. مساءً تدور اشتباكات ويتقاذف الفريقان بالحجارة والمولوتوف. يقوم الإخوان بالقبض على عشرات المتظاهرين ويضربونهم ضربًا مُبرحًا ويسحلونهم ويُقَيِّدون بعضهم عند سور القصر ويسلّمون البعض الآخر إلى الشرطة. يصاب شباب من الجانبين بطلقات نارية وخرطوش، لا نعلم إن كانت عناصر مندسة، أم أفراد من هذا الجانب أو ذاك استخدموا سلاحًا. يدّعي الإخوان أنه سقط لهم سبعة شهداء يشيعونهم من الجامع الأزهر. يتضح لاحقًا أنهم يكذبون، ويدّعون لأنفسهم شهداء من الجانب الآخر. وإلى أن يكشف تحقيق مستقل حقيقة الأمر، يمكنني القول إن مصر فقدت تسعة من شبابها في تلك الليلة، يتحمّل دم الطرفين فيها قيادات الإخوان التي دفعت بشبابها إلى موقع المحتجّين، مع

دعاية مكثفة أن المعارضين لرئيس الجمهورية فلول مأجورة، معادية للثورة، تحمل أجندات أجنبية.

أتوقّف فجأة حتى بعد أن قلت لنفسي إن ارتباك القراء من هذه القائمة من الأخبار قد تكون وسيلة لمعادلة شعوري بتسارع الأحداث وهي تتغوَّل عليّ بلا رحمة. قررت أن في هذا الأسلوب استسهالًا غير مقبول. مجرد عرض لأخبار متراكبة لن ينقلها بهذا الشكل إلا مخبر صحفي مبتدئ، ويفوقها أي «تايم لاين» (أي تسلسل زمني للأحداث) على موقع من مواقع الشبكة الإلكترونية.

تراكمت عليّ الضغوط بشكل يصلح لكتابة نص كوميدي. كان سيل الأحداث يندفع على رأسي حين أصابتني نزلة برد، حُمَّى واحتقان في الحلق... إلخ. وعلى غير الحُمَّى المعتادة التي قال عنها أبو الطيب: «بذلتُ لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي»، تكرّمت عليّ الحُمَّى، وتركت لي عظامي إلا دائرة صغيرة أسفل الظهر تجعل الحركة أو الجلوس أمرًا شاقًّا مؤلمًا. ورغم استقراري في وضع أفقي على السرير، كان رأسي يُهَرْوِلُ هنا وهناك، يلفّ ويدور باحثًا عن إجابة عن السؤال: هل أتوقّف عن الكتابة أم أواصلها؟ وكيف أواصل؟ هل أضع الأحداث على الرفّ فأبدو لنفسي كامرأة مسّها خبل، يصرخ وليدها فتخفيه في خزانة الملابس لتحاشي صوت صراخه، وتغلق باب الخزانة وباب الغرفة التي بها الخزانة وربما باب البيت، وتذهب وهي تحمل الكمبيوتر إلى بيت الجيران تُعلمهم أنها تلجأ إليهم لتتمكن من الكتابة بهدوء؟ أم أدّعي أن لي قوة هِرَقْل

وقدرة مخلوق أسطوري تناسخ في شكل كاتبة، فأحمل الوليد الباكي تحت إبطي الأيسر وأستخدم يدي اليمنى في الكتابة وأواصل الفعل الإبداعي باتزّان؟ في حومة الأسئلة والحلول التي تبدو لي حلولًا لدقائق معدودة قبل اكتشافي سخفها، وصلتني رسالة قصيرة بالبريد الإلكتروني من الدكتور نيوكِرْك. وكنت أرسلت له قرصًا مُدْمَجا به نتائج فحص الرنين المغناطيسي الذي سبقت الإشارة إليه.

«عزيزتي السيدة عاشور»، هكذا بدأ الطبيب رسالته، وبعد سطر من التحية والتمنيات الطيبة لي وللأسرة يقول، (وهذه ترجمة حرفية لكلامه):

«وصلتني الفحوص وراجعتها. وعندما راجعها طبيب العلاج بالإشعاع، وجد منطقتين مثيرتين للقلق تبدو فيهما الأنسجة حول موقع الجراحة أكثر سُمكا. أقترح القيام بآشعة مقطعية (بت سكان) لنرى إن كان هناك أي نشاط في تلك المنطقة ونحاول تحديد طبيعة ما نراه في صور الرنين المغناطيسي. أنتظر أن يصلني ردّك قريبا».

طيب. ماذا بعد؟ لا بعد ولا قبل. عبارة مُريد الشهيرة: «اللي عليك عليك». ما إن تعافيت من البرد حتى ذهبت إلى المعمل لإجراء فحص الأَشِعَّة المَقْطَعِيَّة المطلوب، وهو أسهل من فحص الرنين المغناطيسي فلا أصوات مجنونة تصبّ بعنف في أذنيك. وهو أصعب من الرنين لأن عليك أن تظل تحتسي محلولًا ما (لترًا أو لترًا ونصفًا) طوال ساعة، تنتظر في غرفة صغيرة تبدو خانقة كزنزانة. وأخيرا ينادون عليك. تدخل غرفة فسيحة باردة. ترقد على مائدة معدنية. يطالبونك برفع

ذراعيك على طولهما لتصير بامتداد جسمك، وتظل في هذا الوضع المضني طوال فترة التصوير. ولكن الأشد إزعاجًا هو معرفتك من تجاربك السابقة أن ممرّضة ما ستعطيك حقنة في الوريد تختلف عن الحقن التي حُقنت بها قبل ساعتين: حقنة الصبغة. لا أدري إن كانت مؤلمة أو غير مؤلمة، ربما كانت مؤلمة وبها مخدّر فلا تشعر بالألم أو تشعر به، ولكنه يضيع في شعور آخر غريب يصعب عليك وصفه: يدخل السائل من وريدك إلى جسمك فيبدو لك أنك تسلم الروح، ولكن الموت هنا لا يكون حياديًّا بل له طعم نافذ يسري فيك. تتذوقه على لسانك وفي حلقك وتنفذ رائحته من أنفك إلى باقي خلاياك. يتحرّك بك السرير المعدني، يدخلك تحت الجهاز ويبعدك عنه إلى أن ينتهي الأمر. ترفع جذعك ورأسك، تعتدل جالسًا قبل أن تنزل عن المائدة. تريد مساعدة، لأن في رأسك دُوارًا ما، وخطوتك حين تضعها على الأرض لتمشي، لا تكون ثابتة. تنتظر دقائق في ذات الغرفة الصغيرة التي كنت تَعُبّ فيها المحلول، على مدى ساعة.

أستند إلى ذراع مُريد ونغادر.

الفصل الرابع والعشرون

عن وحيد القرن النبيل

كيف تقرأ وضعنا الآن؟ جاء سؤال المذيعة في ختام حوار طويل مع الكاتب الصحفي الأشهر في البلد. أجابها: سيارة مندفعة على منحدر. بلا فرامل؟ بلا فرامل. لا أحد يُمسك بالفرامل؟ آمل أن يستطيع أحد أن يُمسك بالفرامل.

أغلقت التلفزيون ودخلت للنوم. لسبب ما لم تصبني العبارة بالكوابيس، لأنني لا أملك ترف التشاؤم؟ لأنني أتعلّق بقشّة الغريق وأتشبث بالأمل؟ أم لأن فأرًا صغيرًا وجد مجالًا للّعب في صدري فراح يُشَكِّكُ في الكلام ويُفَكِّكُه؟ كاتب كبير مستتبّ في موقعه. يقيم في قلعته مُحَصَّنًا بالشهرة والتقارير والكتب، وجعبة من حكايات لا تنفد. هل هو صوت الحكمة أم صوت طبقة يمنحها العمر والمعرفة والمكانة صدقِيَّةً لم تعد لها؟ ليكن ما يكون، لأن الموضوع ليس صاحب الكلام بل هذه العبارة: سيارة مندفعة على

منحدر. عبارة دقيقة في وصف حالتنا أم خوف المستتبّ من واقع مضطرم وتعقيدات ومستجدّات تقلّب الأرض وتَقْلِب الموازين، وإن لم تخل من تشوّهات؟ نمت بأسئلتي وقمت بها، وقد زاد عليها السؤال إن كان مصدر التعثُّر في الكتابة، هو التوزّع بين اليقين أن ثورتنا مستمرة رغم كل شيء، والوسواس أن أمهات الشهداء صرن يتساءلن إن كانت دماء صغارهن ذهبت بَدَدًا، وأن الثورة العربية برمّتها بفضل خطط جهنمية (نعم مؤامرات يا سادتي)، صارت عجينة مختمرة في يد سادة الكون وأتباعهم.

أنا مُدَرِّسة، أرى في رسائل التشاؤم فعلًا غير أخلاقي. قلت ذات مرة إن كل كتاباتي الروائية محاولة للتعامل مع الهزيمة. قلت: الكتابة محاولة لاستعادة إرادة مَنْفِيَّة. أنهيت رواية «ثلاثية غرناطة» بعبارة: «لا وحشة في قبر مَرْيَمَة» وعلّقت في محاضرة لي على ذلك قائلة: «ثلاثية غرناطة لها طعم المراثي، يسري فيها خوف امرأة من القرن العشرين دارت عليها وعلى جيلها الدوائر، فشهدت نهايات حقبة من التاريخ هو تاريخها. ولكن التاريخ لا يعرف الخوف، إنه صاحب حيلة ودهاء، له مساربُه ودياميسُه ومجاريه، لا شيء يضيع، هكذا أعتقد. ولذلك أفهم الآن لماذا تنتهي روايتي بوصف قبر مَرْيَمَة. أقتبس من الصفحات الأخيرة من الجزء الثالث والأخير من الرواية:

«تمدد عليّ على رمال الشاطئ وأسند رأسه إلى صندوقه. غفا فرأى نفسه في المنام يهبط درجًا إلى باطن الأرض. يهبط ويهبط. كانت الأرض سبع طبقات كتلك التي في السماء. ثم وصل إلى كهف

رحب يجري فيه جدول. هل كان كهفًا أم سردابًا، أم قصرًا مطمورا أم روضةً عجيبة؟ رافق مجرى الماء. كانت الجدران على الجانبين مُزَيَّنَةً بنمنمات النقوش، تتكاثف عليها الزخارف والأشكال ورسم غصون وزهور. عرسٌ من الألوان يحفُّهُ من الجانبين فيتوغّل أكثر. يا ألله، من أين أتت كل هذه العصافير؟! كانت تندفع أمامه وتدفعه دفعًا إلى الأمام، تشدو وتغرِّدُ وتُزَقْزِقُ وتُغَرْغِرُ وتُصَفِّر. ثم دخلت به إلى بهو عظيم كأنه قاعة مُلْك . هبّت عليه رائحة الخزامى. تطلّع إلى الجدران، كلها من الفسيفساء.رفع عينيه، سقف كأنه بستان. أجال النظر فرأى سريرًا عاليًا من رخام، اقترب منه. مريمة؟! كانت غافيةً على السرير، جسدها ساج ووجهها مبتسم، على قمة رأسها عصفورُ الجنة، ولصق الأذنين على كل جانب حمامة، وعلى الصدر طيرٌ من طيور القطا يُغَرْغِر، وعند القدمين حبٌّ تحوم حوله العصافير، تدنو لتلتقط الحَبَّ ثم ترفع رأسها وتثب وترفرف ثم تطير، بلابل وقُبَّرات وعنادل وحساسين وذوات أطواق وأيضا كروان».

في ختام المحاضرة قلت: «تنتهي الرواية بعبارة: «لا وحشة في قبر مريمة». غرناطة إذن ليست فقط حكاية موت واندثار، غرناطة حياة، بستان من المعاني المكنونةِ في باطنِ الأرضِ نذهب إليه عبر الحكاية. والمدهش أن الحكايات التي تنتهي، لا تنتهي ما دامت قابلة لأن تُروى».

هذا اقتباس طويل من محاضرتي التي ألقيتها عام ٢٠٠٠ في غرناطة بمناسبة صدور الترجمة الإسبانية للجزء الأول من «الثلاثية»

(بعد ست سنوات من نشر الأصل العربي). إذن ليس تفاؤلي تفاؤلًا عالي الصوت أو ساذجًا. ربما كان أقرب لإصرار المهزوم ومكابرته الحكيمة التي عادة ما نسميها مقاومة. أستدركُ لأؤكد أنني لا أدخل في طور المراثي. لا أرثي الثورة المصرية وثورة تونس واليمن وغيرها من الثورات العربية، لأن الثورات الكبيرة، وهذا ما نتعلمه كل يوم وندفع أثمانا باهظة لتمثُّله، عمليات شديدة الصعوبة تتراكب عناصرها وتمتد تعقيداتها على مدى سنوات أو عقود. وكلما تضمّنت الثورة نقلة نوعية في تاريخ البلد أو في التاريخ البشري كانت التعقيدات أكبر والشكوك حولها أعنف، تشبه المصعد في حركتها صعودًا وهبوطًا، وإن انتقلت الحركة في المكان إلى حركة في الزمان مُعَلَّقة بين اليقين وفقدان الأمل.

خذي مثلًا يا سيدتي القارئة، السيد المسيح على الصليب، حدّقي في الصورة وتأمّلي قليلًا أو كثيرًا، فعلها على مدى ألفي عام.

اسمحي لي أن أحكي عن لوحة ونَسْجِيَّة ثم أعود إلى الثورة. أرجو أن تتحلّي بالصبر، وتسمحي.

أبدأ بالنَّسْجِيَّة. رأيتها وأنا في السابعة والعشرين من عمري. كنت طالبة دكتوراه، أدرُس في جامعة ماساشوستس في أمهرست. ذهبت إلى نيويورك في عطلة ما، لقضاء يومين أو ثلاثة. أقمت فيها مع صديقتي اللبنانية، سلمى. أذكر أن سلمى التي تعتقد كأهل صعيد مصر أن واجب الضيافة يقتضي دفع ثمن تذكرة القطار للضيوف، أصرّت أن تصحبني إلى محطة الأتوبيس. ما إن وصل حتى قَفَزَت

صاعدة واشترت لي تذكرة وتركتني والأتوبيس يتحرك، مشدوهةً لا أعرف كيف أتصرّف أوأُعَبِّر عن اعتراضي. كنت في طريقي إلى «الكْلُويْستِرْز»، وهو متحف في التلال الواقعة شمال المدينة، يحيل اسمه ومعماره إلى أديرة العصور الوسطى، ويعرض بعض ما أنتجته من فنون. لم أكن أعرف أنني سأرى هذه النَّسْجِيَّة فيه، ولا تخيّلت أن رؤيتي لها ستكون مغنمًا من ثلاثة مغانم أعود بها من رحلتي الدراسية إلى الولايات المتحدة: الدرجة العلمية وما تطلبته من معرفة واسعة بتاريخ الأفارقة الأمريكيين وفنونهم وآدابهم، وما عقدته مع بعضهم من صداقات؛ واللوحة التي شاهدتها في متحف الفن الحديث في نيويورك، وهو ما أعود له لاحقا. وهذه النَّسْجِيَّة التي سأحمل معي عند عودتي إلى القاهرة، كُتَيِّبًا صفحاته مصقولة وملوّنة تستنسخ أجزاءً منها.

النَّسْجِيَّة مُكَوَّنة من سبع نسجيّات كبيرة، يتجاوز عرض كل منها ثلاثة أمتار ونصفًا ويصل طولها إلى ثلاثة أمتار أو أكثر قليلا، (باستثناء النَّسْجِيَّة الخامسة التي لم يبق منها إلا مقطعان مستطيلان صغيران أفلتا من التَّلَف). يقول الباحثون إن النَّسْجِيَّة صُممت في فرنسا وكُلِّف بتنفيذها الأسطوات في بروكسل، وإن إنجازها استغرق سنوات (يحددونها بين عامَي ١٤٩٥ و١٥٠٥). تخيّلي يا سيدتي القارئة نَوْلَيْن كبيرين أو ثلاثة أنوال، في غرفة مُشْرَعَة النوافذ على ضوء النهار، (لا يعمل نسّاجو هذا الزمان في الليل أبدًا لأن ضوء القناديل لا يسمح بتمييز الألوان بوضوح، وقد يتسبب في الخلط بينها). تخيّلي النسّاجين

العاملين في الورشة، وعادة ما يكونون أبناء صاحبها وحرفيين أُجَرَاء (لا تسمح نقابة النسّاجين للنساء بالعمل، فتكتفي زوجة صاحب الورشة وبناته بالعمل في الباطن وسرًّا إن كانت لهن دراية بالحرفة، أو إنجاز أعمال ثانوية أو القيام على خدمة النسّاجين). نسّاجان يجلسان أمام النَّوْل الواحد، بجوار كلٍّ كرات كبيرة من خيوط الصوف والحرير المصبوغة بالأحمر أو الأزرق أو الأصفر أو الأبيض، وأسلاك الفضة والذهب. يبدءون بالخيوط الطولية (السَّدَى). يشدّونها شدًّا مَوْتورًا على النَّوْل. يتأكّدون أن لا ارتخاء وإن كان طفيفًا في أي منها بما يؤثر على النَّسْجِيَّة. بعدها يعملون في اللُّحْمَة (الخيوط العرضية). كلٌّ يمسك بخيط مفرد بهذا اللون أو ذاك، ويخرجه ويعيد إدخاله بين خيوط السدى ويشدّ. يُلقي بين حين وآخر نظرةً سريعة على مقطع مُكَبَّر من اللوحة الأصلية ليذكّره بالتفاصيل التي عليه نقلها بدقة. هكذا يومًا بعد يوم من الصباح الباكر إلى غروب الشمس، وأسبوعًا بعد أسبوع حتى ينتهي هذا الجزء من النَّسْجِيَّة ويُرفع عن النَّوْل. تحيك الزوجة أو بنت من البنات أيَّ فراغات في النسيج، قبل لفِّه بعناية ووضعه مع ما أُنجز سابقًا حيث ينتظر انتهاء باقي مقاطع النَّسْجِيَّة الواحدة وحياكتها معا.

يتصدر النَّسْجِيَّة وحيدُ القرن. وهو مخلوقٌ ناصعُ البياض أشبه بحصان، وإن كان خَطْمُه ولون عينيه وبراءة نظرتهما ولحيته الصغيرة، تجعله أشبه بتيس وديع. ينبت في أعلى جبينه قرن رفيع طويل ومستقيم. مخلوق خياليّ متوارث من الأساطير الوثنيّة

القديمة التي غالبًا ما تربط بينه وبين الطُّهر وصبيّة عذراء، يُضفي عليه قربه منها استكانة ودِعَة. تحوّلت دلالة وحيد القرن مع مرور الزمن، إلى أن غدا في العصور الوسطى صورة رمزية من صور السيد المسيح وعذاباته.

تحكي النَّسْجِيَّة حكاية صيد وحيد القرن النبيل، محاصرته وقتله وقيامته. لا نراه في الجزء الأول من النَّسْجِيَّة، فهو يصوّر الوافدين على الغابة قبل بداية الطِّراد. ستراتٌ مُخْمَلِيَّة ثمينة صاخبة الألوان. قبعاتٌ يعلوها الريش. حرابٌ كبيرةٌ يفوق كلٌّ منها حاملَها طولًا، أسنانها حديدية مدبّبة. كلابُ صيدٍ في الأطواق، تقتفي الأثر بالشمِّ والنظر. حاملُ بوقٍ ينفخ فيه ليعطي الإشارة. صيادون وخدم. لن نشهد الطِّراد إلا لاحقًا، بعد تعريفنا على وحيد القرن. نتعرّف عليه في النَّسْجِيَّة الثانية بالقرب من نافورة ومجرى ماء. نراه في دغلٍ من النباتات محاطًا بالحيوانات والطيور: الأسد والفهد والوعل والأرنب وابن عِرس والطاووس وزوجه، والبلبل والحسّون ومالك الحزين. كلها تنتظر أن يغمر وحيد القرن قرنه في الماء فيُطَهِّره، فتشرب منه في سلام. نَسْجِيَّة النافورة كسابقاتها والأجزاء اللاحقة كثيفة التفاصيل، فيها أشجار كبيرة وشجيرات مثمرة وورود وزهور وأعواد نباتات، لكل شجرة أو ثمرة أو عود أخضر أو زهرة دلالته في المعجم الوسيط للرموز. ترتبط السنديانة بالإخلاص، وتحيل شجرة الجوز إلى شخص السيد المسيح، كذلك شجرة الرمّان. ولزهرة البنفسج معناها وتشير الوردة الحمراء إلى معنى يختلف عن

معنى الوردة البيضاء أو زهرة الأُقْحُوَان أو نبته المَرْيَمِيَّة المخملية الخضراء. تقدّم النسجيتان التاليتان المواجهة بين وحيد القرن والصيادين. يتعقّبونه. يحاصرونه. يُهاجمونه برماحهم. يُلقون عليه شباكهم. يُطلقون عليه سلوقياتهم الكبيرة. يراوغهم. يهرب إلى الغابة. يعودون لحصاره. يعود إلى مواجهتهم. يطعن بقرنه كلبًا من كلابهم، يُدْميه. يركل بقائمتيه الخلفيتين صيادًا يوشك أن يصيبه. لا يقدرون عليه. يسوقون عليه عذراء جميلة ترتدي ثوبًا قُرْمُزِيًّا تغويه في حضرة الورد الجوري الأحمر والأبيض. يستكين في القرب منها.

القتل في النَّسْجِيَّة التالية. يُحْكِمُ الصيادون حصارهم بدائرة من الحِراب المُشْرَعَة. تصيبه حربتان. تنفذ إحداهما عميقًا في عنقه وتستقرُّ الثانية في صدره. يسقط وحيد القرن قتيلًا. يحملونه على حصان إلى القلعة. مات وحيد القرن الجميل.

لم يمت.

نراه في الجزء السابع والأخير، باركًا تحت شجرة رمّان، على جسمه بعض قطرات من ثمرها القاني، محاطًا بسياجٍ مُدَوَّر، في دغلٍ كثيفٍ من الزهور والنباتات. يرصد الباحثون أنها مائة نوع مختلف.

لم أتساءل طويلًا لماذا تأثّرت إلى هذا الحد بهذه النَّسْجِيَّات، ولا لماذا اعتبرت أن رؤيتها غنيمة من مغانم رحلتي الدراسية. لا مجال الآن لطرح السؤال أو التمحيص في الأسباب. أترك للقارئ أن يُفَسِّر الأمر كما يهوى، أن يربط بين الطِّراد والحِصار والطعنة الدامية وما يعِنُّ

له من وقائع حياتنا. أو يرى في هذا المخلوق النبيل، حلمًا ما نواصله، رغم كل شيء، أو لعله يقول: رضوى منشغلة، وهي الكاتبة، بفكرة الإنشاء الفنيّ بوصفه نسيجًا، وبالكاتب بوصفه حائكًا للكلمات.

لن أذهب مباشرة إلى اللوحة الأخرى التي كنت محظوظة بمشاهدتها عدة مرات في متحف الفن الحديث في نيويورك في السبعينيات، ومرتين بعدها بربع قرن في متحف الملكة صوفيا في مدريد، وقد عادت اللوحة إلى مسقط رأس صاحبها. أؤجل الكلام عنها، لأنني لا أريد أن يخلط القارئ بين الصورة في الحياة أو التاريخ، والصورة من حيث هي إنشاء فنيّ يعيد إنتاج الحياة والتاريخ بوسائل منشئها وما وهبه الله من موهبة. أعرف أن انتقالي من الحديث عن الصورة الأولى إلى الصورة الثانية يُحدث هذا الخلط. فليكن، ليس الخلط كله شرًّا إذ لا يمكن الفصل تمامًا بين الصورتين. هل يمكن الفصل مثلا بين آلام السيد المسيح على الصليب وما لا يُحصى من الصور المرئيّة والمكتوبة والمسموعة التي تناولتها وما ولَّدته من رموز؟

يا قارئتي يا ست الناس، لا أحصر الكلام في موروث دينيّ، بل أتحدث عن الصورة بوصفها حضورًا فاعِلًا كموجات متعاقبة من الأَشِعَّة النافذة ممتدة الفعل والمفعول، تحدُث وتظل تتجاوز. أريد أن أتكلم عن ميدان التحرير. أريد أن أتحدث عن مينا دانيال وأحمد حرارة ومالك مصطفى وعماد عفت، والصغير أَنَس. أريد أن أحكي عن شابين لم ألتقِ بهما أبدا وإن شاهدتهما في حديث

تلفزيوني فاستقرت صورتهما في وجداني. واعتبرتها موروثًا عليّ أن أنقله لأحفادي فيخلِّفونه لذريتهم، أعني طارق معوّض ومايكل كرارة حامِلَي العلم في صفوف المواجهة الأولى في شارع محمد محمود. يحرصان أن يبقى العلم مرفوعًا وإن أمطرت السماء بوابل من الخرطوش، وإن غامت تمامًا بدخان القنابل المُسَيِّلة للدموع، وإن توغّل رجال الأمن هاجمين، وإن سقط زميل فرأوه داميًا أو شهيدًا، وإن أصاب أحدهما خرطوش في الساق أو الكتف، وإن بقيا بلا نوم ليلتين أو ثلاثًا، يواصلان رفع العلم، يلوّحان به في المقدمة لأن العلم لا بد أن يبقى مرفوعًا. علم مصر الكبير. النسر في أبيضه، وإلى يمينه كلمة حرية، وإلى يساره هلال بداخله صليب، تحته مباشرة علمٌ أحمر أصغر قليلًا مطبوعٌ عليه بالأسود صورة مينا دانيال.

في ذكرى مرور عام على مذبحة محمد محمود كتبت نوّارة نجم سلسلة من المقالات ضمّنتها شهادتها عن الأحداث. في مقالها المنشور يوم ١٣ نوفمبر ٢٠١٢، كتبتْ: «اليوم الأول في أحداث محمد محمود، هو الأصعب بالنسبة إلي، فهو اليوم الذي فَقد فيه كلٌّ من مالك مصطفى وأحمد عبد الفتاح عينًا غالية، واليوم الذي ذهب فيه بصر أحمد حرارة تماما».

تحكي نوّارة: «ما إن وصلت إلى الميدان حتى وجدت تجمهرة محدودة على مدخل شارع محمد محمود وصوت طلق نار، تقدمت فوجدت مالك مصطفى في الصف الأول فناديت عليه: مالوكي.. حاولت الوقوف بجواره، لكن مالك مصطفى لا يقف بجوار أحد،

دائما ما يتقدم ليحتمي الناس بظهره حتى وإن لم يرغبوا في ذلك. كلما تقدمت خطوة لأقف بجواره، تقدم هو عشر خطوات ليبقيني خلف ظهره. كنت أنظر نحو قوات الأمن التى تصوب فوهات أسلحتها ناحيتنا حين رأيت مالك مصطفى يقع على الأرض ويتحامل ليقف على قدميه مرة أخرى، حريصًا على أن يكون ذلك دون مساعدة أحد، هرعت نحوه فوجدت ابتسامة على شفتيه، وعينه اليمنى تنزف دما».

تنهي نوّارة مقالها بالفقرة التالية: «حين راجعت تغريداتي في هذا اليوم وجدتني كتبت: عين مالك تسوى عندى كراسيكم كلكم يا مجلس يا عسكري يا...»، وكتبت بعدها: «المجلس العسكري عرف يحرق قلبي فعلا. كل هذا التنفيس والهذيان والتقدم في الصفوف الأولى عسى أن ينعم عليَّ الله بالاستشهاد وأتمكن من منح مالك عيني كما كتبت في وصيتي لا يمحو، ولو قيد أنملة، هذا الشعور العميق بالمرارة والغضب والألم والغيظ. إذا كان الإخوان يكررون علينا: موتوا بغيظكم. نعم أنا أكاد أموت بغيظي من فشلي في درء البلاء عن الأصدقاء، بل وحتى فشلي في الاستشهاد».

في مقالها عن اليوم الثاني، المنشور يوم ١٥ نوفمبر ٢٠١٢ تحكي نوّارة عن سامي:

«أذكر هنا رواية سامي، أحد مصابي ذلك اليوم، الذي وقف بثبات أمام قوات الجيش ثم تقدم نحو ضابط جيش كان يسحل الناس ويصرخ في وجه سامي أن يخرج من الميدان فورا وإلا أجهز عليه، وقف سامي أمام ضابط الجيش وقال: عايزك تجاوبني على سؤال..

إنت بتعمل كده ليه؟ فضربه الضابط بكعب السلاح في ساقه حتى طرحه أرضا، وحاوطه العساكر في عملية تهديدية، ثم تركوه، فقام سامي وأسرع خلف الضابط وأمسك بكتفه: بأقولك رد عليّا.. إنت بتعمل كده ليه؟ فما كان من الضابط إلا أن أطلق النار على ساق سامي وتركه واقعا على الأرض ينزف وسار، فزحف سامي وتحامل على ساقه السليمة حتى لحق بالضابط مرة ثالثة وصرخ به: قول لي إنت بتعمل كده ليه واقتلني بعدها.. وانا صغيّر كنت باعيّد ببدلة ظابط.. بتعمل كده ليه؟ فنظر إليه الضابط لبرهة ثم أشاح بوجهه وهو يتمتم: إنت جاي تموت ولّا إيه؟ وتركه».

أنهيت مُسَودة هذا الفصل بملحوظة مفادها أن الفصل يحتاج لخاتمة. وأشَرت على الملحوظة باللون الأصفر لكي لا أنسى كتابة فقرة ما تربط عناصر الفصل. ولكنني عند مراجعة المسودة قررت ألا أضيف شيئًا. أترك الشَّذَرَات على حالها تنتقل بي من محاضرة لي عن خاتمة لرواية من رواياتي إلى نَسْجِيَّة شهيرة عن وحيد القرن، إلى نوّارة نجم وحديثها عن رفاقها. قلت: نعم هذا ما أريده ولتبق الشذرات تُفلت من أي محاولة لربطها لأن الرباطَ قيدٌ يُلَجِّمُ المعنى ويدفع به في اتجاهٍ محكوم، وهذا ما لا أريده.

الفصل الخامس والعشرون

بيان المذبحة

رأيتها للمرة الأولى في زيارة ليوم واحد لمدينة نيويورك، ضمن رحلة لطلاب الجامعة. تسمّرت أمامها كأن ساقيّ قررتا أن تُجَاوِرا في المكان. لم أزر نيويورك بعد ذلك إلا وذهبت لرؤيتها، رغم أنني كنت ابتعت مستنسخًا ورقيًّا منها، علّقته على جدار غرفتي في بيت الطلاب الذي أقمت فيه طوال عامين دراسيين. وعندما لحق بي مُريد ليحضر مناقشتي للدكتوراه، في مطلع صيف عام ١٩٧٥، اصطحبته إلى نيويورك لرؤيتها. بعد موت فرانكو انتقلت اللوحة كما أراد صاحبها إلى إسبانيا. ولم أزر مدريد إلا زرتها.

نعم، أتحدث عن «الجِرنيكا» لوحة بيكاسو التي رسمها بعد سماعه بقصف الطائرات الألمانية لقرية الجِرنيكا في إقليم الباسك. لا، لم تكن الحرب العالمية اندلعت بعد. ما زلنا في مقدماتها. الطائرات الألمانية والإيطالية تعاون الجنرال فرانكو وقواته المساندة للمَلَكِيَّة

بقصف منطقة تدعم الثوار في الحرب الأهلية الإسبانية. في يوم السادس والعشرين من إبريل ١٩٣٧، قصفت الطائرات القرية. ولما كان معظم رجالها خارجها، مع الثوار على الأرجح، قتلت القنابل النساء والأطفال ودمّرت البيوت وغيرها من المباني الأثرية للقرية.

أعرف أن مسعاي للكتابة عن لوحة بيكاسو فيه جرأة أقرب للتهوُّر، إذ حظيت اللوحة بكتابات لا حصر لها، مقالات ودراسات وكتب ألّفها مختصون. لا مجال لإضافة جديد. ولكنني، لسبب أو آخر، أريد أن أحكي عن اللوحة، أن أصفها لقرائي، أن أدعوهم للبحث عنها على مواقع الشبكة الإلكترونية ومشاهدة صورها، وتأملها والنظر في تفاصيلها.

ستلاحظ يا قارئي أول ما تلاحظ أنها بالأبيض والأسود وبينهما رماديّ يشوبه زرقة خفيفة. لا ألوان أخرى في اللوحة. ستراها مُصَغَّرة على شاشة الكمبيوتر. حجمها الحقيقي ثلاثة أمتار ونصف في سبعة أمتار وثمانين سنتيمترًا. وهذا الرقم الأخير هو عرضها الممتد أمام عينيك إن كنت تقف أمامها. (يمكنك إن توفرت لديك الوصلات الكهربائية اللازمة أن تصل الكمبيوتر بشاشة التلفزيون فتراها أكبر وأوضح).

تتكون اللوحة من ثلاث وحدات أو مقاطع، مقطعان طوليان في الجانبين، يتوسطهما مقطع أعرض وإن كان بنفس الطول. في أقصى اليسار رأس الثور، تحته مباشرة امرأة تحمل ابنها القتيل. رأسها على خلفية جسد الثور الذي تحمله قوائم مستقيمة ثابتة على

الأرض. تحت المرأة مباشرة ذراع فارس قتيل تبرز أصابع يده، غليظة منتفخة. أما رأسه، فإلى يمينها قليلًا يذيّل جسد الثور وإحدى قائمتيه الأماميتين. رأس الثور والمرأة ووليدها القتيل وذراع الفارس، لونها أبيض. جسد الثور وحده ملوّن بالأسود، درجتين من الأسود، قوائمه أكثر سوادًا من جسده. أما ذيله الأشبه بشعلة نار فلونه أبيض. خلف فخذ الثور وإحدى قائمتيه الخلفيتين مستطيل رمادي، كأنه باب يشغل ثلثه الأعلى الذيل المشتعل.

في الجانب الآخر من الصورة، إلى يمين الناظر، مستطيل آخر فيه امرأة تستغيث، تسقط على الأرجح. ترفع يديها عاليًا باتجاه طاقة مربّعة صغيرة. يعلوها ما يشي بأنه ألسنة لهب، وتحتها أيضا، إلى اليمين قليلًا. أسفل المستطيل، بمستوى الفارس القتيل وذراعه الممتدة، ساق وقدم تمتد حركتهما الراكضة باتجاه مركز اللوحة. أصابع القدم غليظة مُتَوَرِّمَة (كأصابع يد الفارس القتيل في الناحية الأخرى)، والرُكْبَة مثلّثة كأن الركض المفزوع حوّلها إلى كتلة منتفخة.

مركز اللوحة بين المستطيلين هو الوحدة الأكبر في التشكيل، يمينها وجهان لامرأتين مندفعتين. المرأة الأعلى وجه مندفع باتجاه اليسار، مجرد وجه لا جسم له، أقرب في شكله إلى دمعة كبيرة، يميل الوجه خفيفًا إلى أسفل كأنه ينوء بالذراع التي تعلوه، تتجاوز الذراع الوجه في الاتجاه نفسه، تحمل في يدها مصباحًا، تقبض عليه بقوة. تحت الوجه/ الدمعة، المرأة التي خَلَّفَت قدمها وساقها في يمين

اللوحة، تركض، يحدد ركضها شكل الجسم والوجه والعنق الممدود إلى قلب اللوحة ومركز الحدث.

يعلو هذا المقطع مصباح له شكل العين، يحيط به ما يشبه آشعة الشمس، فيحوله إلى ثالوث: شمس/ عين/ مصباح (الأرجح أنه يحيل إلى عين حورس الفرعونية وعين العناية الإلهية في الرموز الماسونية). تحت العين/ المصباح/ الشمس رأس حصان يلتفت يسارًا. فمه مفتوح واسع، يكشف عن أسنانه ورأس حربة صغيرة استبدلت باللسان. في جسده رمح نافذ يَشُقُّه. تنثني إحدى قوائمه، تنكسر على الأرجح. يوشك أن يسقط. تحت القائم المنثني أو المكسور، بمحاذاة ساق الحصان القائمة، الذراع الثانية للفارس القتيل، جزء مفصول عن كلِّه، جسدًا كان أو تمثالًا، بيده نصل مكسور ووردة هشّة.

وفي خلفية الصورة مربّعات ومثلّثات وزوايا حادة لأشكال هندسية، بيضاء أو سوداء أو رمادية، أبرزها مثلثٌ كبير، هرميُّ الشكل تبدأ قمته من أسفل الشمس/ العين/ المصباح، ويمتد ضلعاه حتى أسفل الصورة. يشمل المرأة الراكضة ويُبقي أصابع قدمها المتورمة وساقها وركبتها خارجه من الناحية اليمنى. ويشمل من الناحية اليسرى رأس الفارس القتيل، ويبقي ذراعه ويده المتورمة خارجها. (المثلث الهرمي كالشمس والعين، رمز قديم تتشعب مصادره من مصر الفرعونية وحضارات الشرق الأقصى، تبناه الماسونيون، يحيل للعناية الإلهية، وتحيل أضلاعه إلى الثالوث

المقدس في مصر القديمة أوزيريس وإيزيس وحورس). ربما كانت هذه التفاصيل بلا داع هنا لأنني آليت على نفسي وصف اللوحة دون تفسير. ولكنني حسمت أمري وقررت إضافة هذه الملحوظة لأنني كثيرًا ما تساءلت عن احتمال مفارقة أو معنى معكوس لعناية وعين وثالوث تحيط بكل هذا الهول وتسمح به.

يا سيدتي القارئة، أرجوك أن تشاهدي مستنسخًا من الأصل لأن وصفي هذا لا يُسمن ولا يُغني من جوع. ربما يعاونك الوصف على مشاهدة اللوحة، إن بدت لك من أول نظرة معقّدة أو غير مألوفة في أسلوبها التعبيري، وفي المربّعات والمثلّثات والمستطيلات في الخلفية أو في الأشكال المُرَاوِغَة الكامنة كالظلال أو الأطياف وراء شخصيات اللوحة الظاهرة. لا يرسم بيكاسو بالأساليب الواقعية المألوفة. لوحته واضحة كالجريدة أو المنشور، بالأبيض والأسود، وهي مُرَكَّبة غامضة مُلتبسة يستخدم فيها منشئها جنونات التكعيبيّة والتعبيريّة، وموروث الفنون العتيق ورموزه الممتدة من أيام الفراعنة.

لا يصرف لنا الله مع كل حدث كارثيّ فنانًا بحجم بيكاسو ليقوم مفردًا بصياغة بيان المذبحة، يُشهد الناس عليها ويُشركهم في أهوالها. وإن كان يفعل ذلك على طريقة الفن: يوجز ويختصر ويُجَرِّد، وهو يُجَسِّد ويُكَثِّف ويُعَمِّم، يُحَوِّلُ الواقعة بقدرة قادر، إلى كيانٍ عابرٍ للأماكن والأزمان، ودلالاتٍ تنتقل رسائلها بين الخلق، تفعل فيهم ما تفعله.

قلت إنني من محبي الجِرنيكا، ولكن ما الذي حملها فجأة إلى

هذا النص فدخلت بلا دعوة مسبقة ولا توقّع؟ الحق أنني كلما أردت الكتابة عن أحداث شارع محمد محمود شعرت بقِلَّة الحيلة. لم أسمع بالخبر من الإذاعة كما حدث في حالة بيكاسو. لم أقرأ عنه في الجريدة وأنا في باريس، على بعد أميال، وبعد أيام من وقوعه. يفصلني عن شارع محمد محمود، شارعان. والغاز المُسَيِّل للدموع الذي يطلقونه بشكل متّصل أحيانًا، يصلني صوت طلقاته، أسمعه وأنا في بيتي، أستنشق شيئا من غازه الخانق في شقّتي.

يخرج تميم إلى الشارع مع الشباب. ينتابني الخجل من التعبير عن أي قلق عليه. أنتظر عودته دون أن أجرؤ على الاتصال به خشية أن تصرفه المكالمة عن الانتباه إلى الرصاصة القاتلة. كل ليلة أنتظر. ووالده يتصل تليفونيًّا من عمّان، هل عاد تميم؟ لم يعد بعد. بعد ساعة يعاود الاتصال. الساعة الثانية بعد منتصف الليل. الثالثة. ثم الرابعة. حين يدير تميم المفتاح في الباب. أتصل بمُريد فيأوي إلى فراشه. يقول تميم: لماذا لم تذهبي للنوم يا أمي؟ لا أجيب. كنا محظوظَين لأن آباءً وأمهاتٍ آخرين ينتظرون حتى هذه الساعة، بعد عام من الأحداث، عودة أبنائهم، رغم أنهم يعرفون أن الموتى، حتى الشهداء منهم لا يعودون، وإن كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون. وإن عادوا على طريقة الرجل الذي حكى لناشط ٦ إبريل عن الشهداء الذين يدخلون الميدان بلا تفتيش كل ليلة، فلن نراهم ولا يمكننا أن نفتح باب البيت عندما يطرقونه ونسألهم إن كانوا تناولوا عشاءهم، ونسارع إلى إعداده لكي يأكلوا.

لم يكن تميم وحده هناك في شارع محمد محمود، بل معه آخرون أعرف بعضهم ولا أعرف البعض الآخر. يخصّونني في الحالتين. أفكِّر أنهم في تلك اللحظة التي ينطلق فيها الخرطوش ليقتل أو يصيب العينين أو هذا الجزء أو ذاك من الجسد هناك، وأنني هنا على بعد شارعين، لا أملك حمايتهم.

صباح يوم الأحد أو ربما صباح الاثنين، غادرت البيت أحمل قائمة ببعض احتياجات المستشفيات الميدانية، نقلتها في الليلة السابقة عن تغريدات الشباب. درت على الصيدليات المجاورة. بدأت بالصيدلية الأكبر. وجدت بعض المطلوب ولم أجد البعض الآخر. اشتريت. توجّهت لصيدلية ثانية فثالثة، حملت ما اشتريته وعدت إلى البيت لأن تميم كان ألحّ أن يرافقني (لم يكن يريد أن أذهب وحدي). نزلت مع تميم وسرنا إلى ميدان التحرير. أصرّ أن أضع الكمامة على أنفي وفمي. كانت رائحة الغاز تزداد نفاذًا. انعطفنا إلى زقاق متفرِّع من التحرير حيث يلتقي بشارع محمد محمود. الجو غائم مشبع برائحة الغاز. لسبب ما، الأرض فيها برك ماء متعددة تستدعي القفز عنها أو الالتفاف حولها لتحاشي الخوض فيها. إلى يميننا كان المستشفى الميداني في مسجد عباد الرحمن، وهو مسجد صغير أقرب لزاوية. إلى يسار الداخل بطاطين مبسوطة يرقد عليها عدد من المصابين. الرائحة داخل المستشفى أكثر قوة. يصعب التنفس. أعطي الأدوية التي حملتها إلى طبيبة من الطبيبات. تشكرني وأشكرها وأنصرف. عيناي تدمعان أكاد

أختنق من الهواء المُشْبَع بالغاز. ما زلت أتساءل حتى يومنا هذا: لم أبق في المستشفى أكثر من خمس دقائق، لم أشعر بوطأة رائحة الغاز إلا ربع ساعة أو ربما عشر دقائق، وأنا داخل المستشفى، وأنا أقترب منه، وأنا أغادره. ما الذي يفعله المصابون، الأطباء، الشباب في الشارع. الشباب في صفوف المواجهة الأولى. طارق معوّض ومايكل كرارة حاملا العلم وهما في المقدمة وجهًا لوجه أمام من يطلقون هذه القنابل؟ ولماذا يكون المستشفى الميداني مُشْبَعًا بكل هذا القدر من الغاز؟ في المساء سأعرف من التغريدات وسواها أن قوات الأمن كانت هاجمت المستشفى وركّزت عليه الضرب بالغاز قبل زيارتي له بساعة أو نصف الساعة.

ولكن الله كريم، أكرم المصريين بحسٍّ فَكِه يتخففون به من بعض همومهم. ووهبهم الخيال القادر على تصور الأسوأ فتبدو كوارث اللحظة كوارث صغيرة كان من المحتمل أن تكون أكبر. صار الشباب يردّدون ساخرين في الميدان: الشعب يريد الغاز القديم. لاحظ معظم الأطباء في المستشفيات الميدانية أن الغاز الجديد يسبب فضلًا عن الاختناق، تَشَنُّجات غريبة. الأمن المصري يستخدم على ما يبدو غازات مُحَرَّمَة دوليًّا لقمع أولاد البلد . حمل البعض في التحرير فوارغ طلقات الغاز، يؤكد تاريخ الصلاحية المسجّل على بعضها أنه منتهي المفعول! وبعضها الآخر عليه تاريخ حديث كأنه تم استيراده في اليوم السابق.

كنت في التحرير مع الدكتورة منار الخولي وهي أستاذة في كلية

الطب. جاءها بعض شباب الأطباء وأعلموها أن في المستشفى الميداني في كنيسة قصر الدوبارة قنبلتين من القنابل الجديدة، إحداهما لم تنفجر والثانية بقايا قنبلة مُنفجرة، وأنه يمكن فحصها وتحليلها للتأكد مما تحتويه. اقترحت عليّ أن أصحبهم. كنا نقف على الصينية حيث الخيم المنصوبة. مرة أخرى لاحظت بركًا من الماء، لم أفهم مصدرها. سرنا عبر التحرير في موكب صغير: د. منار الخولي وطبيبان شابان، ونوّارة نجم وأنا. قطعنا الميدان ببطء نسبيّ إذ كان فيه آلاف المتظاهرين. انعطفنا يمينًا باتجاه مسجد عمر مكرم ثم عبرنا الشارع إلى كنيسة قصر الدوبارة المجاورة للمسجد. كان الجو مشبعًا برائحة الغاز، وإن كانت الرائحة قابلة للاحتمال بالكمامات الصغيرة التي وضعناها على أنوفنا وأفواهنا. لاحظت سيارات إسعاف كثيرة، بدا لي عددها لافتًا. انتبهت ربما للمرة الأولى أن السيارات كلها جديدة مطليّة بلونٍ جديد: برتقاليّ عليه خط أزرق في كلا الجانبين عوضًا عن اللون الأبيض القديم. لم أترك لهواجسي الفرصة لاستنتاج ما يمكن استنتاجه من كل هذه السيارات. أحصيت ما يزيد على عشر، ثم شغلني أمر آخر فتوقفت عن العدّ. وقفنا بباب الكنيسة الموصد حتى أعلمهم شباب الأطباء بمن نحن ولماذا نريد الدخول. فتحوا لنا البوابة. دخلنا. كانت باحة الكنيسة أشبه بخلية نحل. أطباء ومساعدو أطباء ومسئولون في الكنيسة يتحركون بهِمّة هنا وهناك. لمحت عن بعد، شابًّا ممددًا على مائدة طولية أو سرير نصب في باحة الكنيسة، إلى أقصى يمين الداخل. خِلتُني أرى تشنجات الشاب المصاب والطبيبة مائلة عليه تهدئه. أتت المسئولة. أبلغناها بما جئنا من أجله.

ذهبت لكي تحضر ما طلبناه. مفاجأة لطيفة: مُحِبّ جمال صديق تميم وزميله من أيام المدرسة، يقبل عليّ وهو يبتسم. «أهلا يا طنط». قبلني وصافح من معي. يعمل في المستشفى الميداني متطوعًا، رغم أنه طبيب أسنان. علّق أول ما علق على الكمامات التي نستخدمها. هذه لا تصلح بالمرة. دقيقة. عاد يحمل كمامات أخرى وزعها علينا. كانت مصنوعة من مادة أقوى داخل كل منها قطنة كبيرة مغموسة بماء البصل وفيها قطعة من الفحم. حين وضعت كمامتي بدت لي غير محتملة، تعيق التنفس. قلت لنفسي سأخلعها ما إن نغادر المستشفى. أعطانا مُحِبّ نظارات كبيرة من البلاستيك تحمي العينين. عادت المسئولة تحمل لفافة وضعتها في كيس، وسلمتها لي. وضعتها في حقيبة يدي. غادرنا الكنيسة. لم أخلع الكمامة ولا فكّرت في خلعها. كان واضحًا أن الضرب تجدّد، رائحة الغاز نافذة. سرنا في شارع الشيخ ريحان متجهين إلى التحرير، أحمل حقيبتي بحرص. لا أتركها كعادتي معلقة في كتفي تتدلى منه، بل أضعها تحت إبطي، أحوطها بذراعي وأضع يدي تحتها، رغم أن سيرها الجلدي بقي معلقًا في الكتف. هل أمطرت. من أين تأتي هذه البرك الصغيرة؟ لم تنتبه نوّارة إلا عندما شعرت بالماء يُبلِّل حذاءها وجوربها وذيل البنطلون، أنها خاضت في إحداها. بدا الميدان ونحن ندخله غريبًا، له رائحة نافذة. بدت المصابيح في أعلى أعمدة النور، كأنها معلَّقة في فراغ ضبابي تتطاير فيه ذرّات الغبار. هل كانت الإضاءة خافتة لأن المسئولين عن الكهرباء قرروا ذلك أم بسبب كثافة الدخان؟ حالة شبحية يُعَزِّزُهَا مدخل شارع محمد محمود في الجهة المقابلة. أعي أن بعد الصفوف الخلفية في

مدخل الشارع صفوفًا أخرى تتقدمها وصولًا إلى خط المواجهة، وأن شبابًا ربما يسقطون لأنهم أصيبوا بالاختناق. وربما الآن وأنا أتشبث بحقيبتي لأن فيها أمانة عليّ توصيلها، يسقط شاب على الأرض نازفًا لأن الخرطوشة أصابته في رأسه أو صدره أو قدميه، وربما أصابت الطلقة عينه، لأنهم طوال الأيام السابقة كانوا يتقصّدون التصويب على العيون. من علّم أبناء الفلاحين الصيد؟! رأيت صورًا لهم في الأيام السابقة، الجنود والضبّاط. أحذيتهم جديدة، ستراتهم تصلح لظهورهم على شاشات السينما، خوذهم مُتْقَنَة الصنع، لها مظلات من البلاستيك الواقي. وكأنهم في مسابقة للرماية. يُطلق الواحد منهم النار مرات متتالية ثم يتراجع في رشاقة ليسمح لزميل له أن يحلَّ محله. أو يقفون صفًّا من ثلاثة. نعم هكذا بأناقة وأسلوب، يطلقون بنادقهم في وقت واحد ثم يتراجع واحد أو اثنان ليتقدم من يُصَوِّب بدلًا منهما. يستطعمون القتل. هل يصيدون الوعول؟ من حوَّل أبناء الفلاحين إلى قتلة؟

أتطلع عن يميني إلى مدخل الشارع. يبدو مظلمًا وغامضًا كأنه مكانٌ فيصل بين الحياة والموت. أواصل السير، لا أفكِّر في المراكبي الأسطوري الذي يحمل الموتى في معدّيته. المُسِنّ الملتحي رثّ الثياب الذي ينقل ظلالًا في نهرٍ من الظلال. لا أفكِّر في دوّامات النهر ولا في البكائيات التي تسكن الريح التي تحرِّكُها. لا أفكر في الآثمين الذين يطلبون الصفح ليتمكّنوا من الركوب. لا يجدي رجاءٌ أو توسلٌ أو استغفار. يبقون حيث هم، عامًا أو أعوامًا ليبدءوا دورات

من العذاب لا تنتهي، لأنهم لن يولدوا من جديد. لا أفكر في هذه الصور التي أَلِفْتُها من زمنٍ بحكم دراستي للأدب، ولكنها كانت في مكان ما مغمور من الوعي والخيال، لأن شذراتٍ منها ستطفو مختلطة متداخلة في رأسي وأنا أضعها على وسادتي في الليل، وأنا بين الصحو والمنام.

قطعنا الميدان. كنا محظوظين، وجدنا سيارة أجرة. ركبتها مع نوّارة: شارع ٢٦ يوليو لو سمحت. أنزلنا السائق في المكان المطلوب. وقفنا ننتظر مالك عدلي في المكان الذي حدّده. جاء مالك. سلمناه الأمانة ليحملها إلى من سيقوم بفحصها وتحليل مكوناتها. عدنا أنا ونوّارة مشيًا إلى البيت. ما إنْ دخلنا حتى خلعت نوّارة جوربها وبنطلونها. غسلت الجورب ونشرته. وغسلت ذيل البنطلون وأعادت ارتداءه.

أريد أن أتحدث عن نوّارة نجم ومالك عدلي، أريد أن أستمع إليهما وأنقل لكم بعضًا مما شهدا به، وشهادات أخرى كذلك.

في مقالها السابع من المقالات الإحدى عشرة التي كتبتها بمناسبة الذكرى الأولى لأحداث محمد محمود كتبت نوّارة نجم:

«... علمت أن الأهالي في المشرحة يرغبون في دفن أولادهم بسرعة. شعرت بفزع شديد، حيث إنني كنت أرغب في أن يُشيّع الشهداء من شارع محمد محمود بعد أن يكفنوا في علم مصر كما يليق بالمقاتلين البواسل، كتبت في تمام الساعة العاشرة والنصف صباحا على موقعي على «تويتر»: «حاروح المشرحة دلوقت بس

اللي في المشرحة يموت على الجثامين ولا يطلعهاش تدفن أبدا.. دول حيتصلى عليهم ـ مسلم ومسيحي ـ في الميدان...».

«من كثرة الجثث نفدت التوابيت، وطلبت المشرحة أن نعلن عن ضرورة التبرع بتوابيت لنقل الشهداء، كما ورد على موقعي على «تويتر»: «التوابيت اللى هناك خلصت ومحتاجين الناس تتبرع بيها.. والشهدا حيطلعوا من الميدان ويتلفوا بعلم مصر ويتصلى عليهم هناك...».

«ذهبت إلى المشرحة ووجدت أهالي الشهداء هناك، كلهم من الفقراء، لا يعلمون شيئا عما دفع أبناءهم إلى التظاهر، يبدو عليهم الفزع والخوف، وقد انتشرت عناصر التحريات العسكرية التي ترتدي زيا مدنيًّا، تحاول إقناع الأهالي بأن تشييع جنازة أبنائهم من التحرير فيه خطورة على حياتهم، وقد تقتل السلطات أبناءهم الأحياء في جنازة أبنائهم الموتى. خرج من الداخل أحد النشطاء، كان يصرخ: «عايزين محامي.. الجثث جوه بتتبصّم على محاضر وشهادات مسجلي خطر». دخل المحامون، وبدءوا يواجهون صعوبات جمّة بالداخل مع أطباء التشريح وعمال المشرحة، ووكلاء النيابة الذين يوثقون الجثث، حتى بلغ الأمر بمالك عدلي أن يضع يده في جراح الجثث حتى يجبر وكلاء النيابة على توثيق إصاباتهم بالرصاص الحي. ما حدث بالضبط مع مالك هو أنه حين دخل إلى المشرحة فوجئ بأن وكيل النيابة يكتب أسباب الوفاة: «جرح قطعي بالرأس... بالصدر... إلخ». ومن تجربته في مشرحة ماسبيرو، علم مالك عدلي

أن الفارق بين الجرح القطعي وإصابة الرصاص هو مرور إصبعه من الجرح، حين أبى وكيل النيابة أن يضع أصبعه في الجرح، بدأ مالك عدلي في وضع إصبعه في جراح كل جثة على حدة حتى يضمن أن تكتب التقارير بشكل سليم. منذ ذلك اليوم أقلع مالك عدلي عن الطعام تماما إلا ما يبقيه على قيد الحياة».

«بدأ المحامون في التوافد على المشرحة، بينما عدت أنا إلى الميدان، كان الغاز يومها غريبا، أصاب عددا كبيرا بحالات تشنجات، وحالات رهاب، وأصابني أنا بالحمى».

هذه شهادة نوّارة نجم عن اليوم الثالث من أيام محمد محمود والتي نشرتها بعد عام من الأحداث. قبلها بسنة، كان مالك عدلي كتب على مدونته:

«يوم الأحد ٢٠ نوفمبر حوالي السادسه مساء كنت بصدد دخول شارع محمد محمود للمشاركة في المعركة الدائرة بين الشباب وبين ميليشيات الداخلية واستوقفني ثلاثة شباب يتأبط كل منهم ذراع الآخر وأحدهم يقول لرفاقه بصوت مرح: «لو وقعت إوعوا ترجعوا أنا دمي مايروحش هدر». فيرد عليه أصدقاؤه: «آمين يا صاحبي». فبادرتهم بالقول: «بعد الشر عنكم يا شباب وخلوا بالكم من نفسكم». رد عليَّ أحدهم: «ياحنا ياولاد الكلب دول ف البلد دي ويا نعيش بكرامه يا بلاش...». ابتسمت وأكملت طريقي وغابوا عن نظري بسبب كثافة الغاز الذي كانت تطلقه ميليشيات الداخلية».

في نفس المساء يذهب مالك إلى المشرحة لمعاينة بعض الجثامين

نيابةً عن أهاليهم بوصفه محاميًا، فيجد الشباب الثلاثة جثثًا داخل المشرحة مصابين إصابات وحشية.

ينهي مالك مقاله:

«نرجع ع الميدان شايلين حزننا ع الشهيد وحزن أهله على اكتافنا وندوّر على حد ياخد الحمل ده ويحوله لنور وأمل ومستقبل مشرق مانلاقيش... نرجع بيه بيوتنا وننام وهو على صدورنا... ويوم بعد يوم يتحول الشهيد لرقم... لورق... لصورة... لحفلة تكريم... لمبلغ مالي وعمره مابيتحول لشيء من اللي مات علشانه...» .

قبلها بأقل من شهرين كان مالك كتب في مدونته نصًّا بعنوان: «من ماسبيرو والمستشفى القبطي»:

«سبعتاشر جثمان موجودين ف الأوضة ووسط صراخ وعويل الأمهات والزوجات على شهدائهم ماقدرتش أمسك نفسي وابتديت أكشف وجوه الجثامين زي المجنون علشان أبص على مينا بصة أخيرة، مش أول مرة ف حياتي أشوف جثث بس المرة دي كانت مرعبة ، وجوه مشوهة وجماجم محطمة وبقع دم كبيرة تحت معظم الوجوه اللي شفتها لحد مالقيت جثمان الشهيد مينا، وهاني رياض حاول يلهيني عنه علشان ماشوفوش ويقول لي مش هوا بس أنا أطلعه من وسط مليون، وشفته وبقعة دم كبيرة تحت رأسه، حطيت إيدي علي جبهته وقبلته ومابقتش شايف واخدني هاني بره المرحمة أو المشرحة وكل حتة ف جسمي بتتنفض ولقيت الناس بتجري من جنبي ومعاهم شهيد تاني بيقولوا إنه اللي دهسته المدرعة واحد من

الناس اللي شايلاه بيقول: «آدي مدرعات جيشنا اللي بيحمينا»، وأم شهيد بتلطم وبتشيل تراب وبتقول: «يا حزن المسيحيين الليلة دي» وقس قاعد عالسلم بيعيط بشدة وشاب مطلعينه م المشرحة فاقد النطق تقريبا حزنا على أخوه اللي كان جثمانه مسجى جوه المشرحة...

«بالمناسبه مينا دانيال هو الشاب اللي يوم ٢٨ في التحرير ماكانش فيه ولا حتة ف جسمه سليمة وفشلنا نقنعه يسيب الميدان واللي حكيتلكم عنه قبل كده ، مينا عمر البسمة ما فارقت شفايفه وعمر الأمل ما فارق عينيه ...البلد دي ليه بتاكل عيالها ؟؟؟».

لعل السؤال نفسه يشغل محمد أبو الغيط وإن لم يطرحه مباشرة في مذكّرته المنشورة على الفيسبوك بعد ثلاثة أسابيع من مواجهات شارع محمد محمود. عنون مذكرته: «شارع عيون الحرية»، قدم فيها شهادات خمسة من الثوار. منهم اثنان «أولاد ناس»، واثنان «شكلهم غلط» وأفرد الجزء الخامس والأخير لينقل شهادته وإن قدّمها بصيغة المتحدّث الغائب.

في الشهادة الأولى: «عندما عرف محمد قيمة كون شكله «نضيف وابن ناس». نتعرف على محمد حامد طالب في كلية الهندسة يتطوع كمُسعف في شارع محمد محمود. يعمل في المستشفى الميداني مع أربعة أطباء. فجأة يقوم العساكر بهجوم على المتظاهرين وحين ينتبهون للمستشفى يقتحمونه ويحطِّمون كل ما فيه ويضربون المرضى والأطباء بالعصي والأحذية. وأخيرًا ينقلونهم إلى قسم عابدين. «حيث استقبلهم مخبر يصيح: «مادام دخلتوا القسم محدش هيتعرضلكو

تاني، هنا حقوق إنسان واحترام قانون ... يلّا يا ابن الـ (...) منك ليه كله وشّه للحيط!!».

وفي ظل حقوق الإنسان يُترك المصابون غارقين في دمهم دون أي نوع من الإسعاف.

بعد ساعات يأتي ضابط ويختار من سيفرج عنهم، فقط من يبدو عليهم أنهم «ولاد ناس وأشكالهم نضيفة»، «فقط طلاب الجامعات أبناء الطبقة المتوسطة وعددهم عشرة هم من خرجوا، بينما بقى كل الذين «أشكالهم غلط» بما فيهم المصابون، وينتهي النص الأول بالعبارة التالية: «بينما محمد في طريقه لمنزله يفكر في ما كان سيحدث له لو كان «شكله غلط» فيشعر بالرعب، ويحمد الله على نعمته عليه».

وفي الشهادة الرابعة: «يحيى يقترح مبادلة عادلة»، نتعرّف على يحيى وهو من الألتراس. يصاب يحيى في قدمه، فيطلب منه الطبيب العودة إلى منزله للعناية بإصابته فيرفض: «ولما إحنا نروح مين اللي يحميكو؟ مين يحمي الحريم والعيال الصغيرة والدكاترة والناس اللي ملهاش في اللبش زينا؟»، ثم يواصل: «إحنا بنحميكو من الـ(...) ـ شتيمة بذيئة على الداخلية ـ وانتو بتحمونا من الجهل، كدة نبقى خالصين».

يواصل محمد أبو الغيط: «دون أن يدري قال يحيى بالحرف ما قاله آخر بنفس ظروفه لفتاة أصر على سحبها بعيدًا عن موقع المواجهات: «إنتِ شكلك بنت ناس ومتعلمة، خلونا احنا الفقرا نموت عشان لما الدنيا تهدى يفضل المتعلمين اللي يقدروا يفيدوا البلد».

الفصل السادس والعشرون

جرافيتي

هل حقا نحتاج إلى فنان بحجم بيكاسو له من الموهبة والدُّرْبَة ما يُمَكِّنَه من أن يُجْمِل المذبحة في لوحة واحدة تحيط بتفاصيلها في رموز أقل عددًا من أصابع اليدين؟ أنجز بيكاسو لوحة الجِرنيكا قبل ستة وسبعين عامًا. ثلاثة أرباع القرن. فنان مُفْرَد ينهمك في عمله، في الحَيِّز الذي خصّصه لإنتاج لوحته، ملحق ببيته أو مستأجر خصِّيصًا لذلك. يُتِمُّها فتنتقل إلى معرض ما، ثم آخر وربما ثالث، ثم متحف، إلى أن تصل في نهاية المطاف إلى متحف دائم تستقر فيه. في هذه الحالات جميعًا، تُعرض اللوحة في مكان مغلق، تحميه جدران قاعة أنيقة مُكَيَّفة صُمِّمَت لاستقبالها. ولكن الزمن يتبدّل، وكذلك الضرورات. أتحفظ على العبارة السابقة إذ أتذكّر سيكييروس المكسيكي، ورفيقيه ريفيرا وأروسكو الذين ارتبطوا بالثورة المكسيكية في الثلث الأول من القرن العشرين. هم مجايلو بيكاسو، عاشوا في الزمن نفسه وإن انشغلوا بجعل الفن مشاعًا على

قارعة الطريق ولعابر السبيل، أنتجوا جداريات ونظّروا لوظيفتها. لا يا سيدتي القارئة، لن أواصل هذه التأمُّلات بما يثير فيك الملل. سأحكي لك حكاية طريفة تخفِّف من مللك قليلًا. حكايتي عن سِيكْييروس، وكان مشاغبًا وكان ثوريًّا وكان متهمًا في قضايا سياسية خطيرة. يُقبض عليه بين حين وآخر. ثم نفي من المكسيك إلى الجانب الآخر من الحدود، على طريقة نفي المصريين إلى السودان في الحقبة نفسها. هناك، أعني في لوس أنجيلِس بالولايات المتحدة، مكث سبعة أشهر. كُلف بثلاث جداريات وأنجزها. ولكن حكايتي لا تتناول حياة سِيكْييروس وفنه بل واقعة بعينها.

كُلِّف سِيكْييروس بعمل جداريّة بعنوان: «تروبيكال أمِريكا» أي أمريكا الاستوائية. والأرجح أن من كلّفوه بالمهمة مَنّوا أنفسهم بلوحة تتكاثف فيها الأشجار والنباتات والزهور والثمر على كل شكل ولون، فتنعم العين بغرابتها وصخب ألوانها، وخصوصية أسلوبها المكسيكي المنحدر من تراث فنيّ شديد الثراء. كان سِيكْييروس يعمل ليلًا على ضوء الكشّافات، واقفًا على السقالات محاطًا بالدلاء والألوان والفرش والرشاشات، وغيرها مما يحتاجه من الأدوات. لم ينه عمله إلا ليلة الافتتاح المقرّر له التاسع من أكتوبر (وهنا لا بد من استطراد ينبهك يا سيدتي القارئة إلى احتمال أن يكون تحديد الموعد من قِبَل المسئولين كان احتفاءً بأيام مباركة في التاريخ الوطني، لأن كولومبس ورجاله المبحرين بهِمَّة وصلوا إلى «العالم الجديد» قبل ٤٤٢ عاما في مثل تلك الأيام. صحيح أنهم رأوا الأرض رأي العين ثم لمسوها

بأقدامهم يوم ١٢ أكتوبر إلا أن الملَّاح المذكور أكّد في مذكراته أنه في يوم التاسع من أكتوبر رأى وسمع أسراب طيور أكدت له أنهم قرب اليابسة). ما علينا، أنهى سِيكْييروس جداريته ليلًا وفي صباح اليوم التالي كشف عنها فشاهدها من كلّفه بها ومن تبرّع ببعض تكاليفها من رجال الأعمال وضيوفهم وعموم الناس. أحدثت الجداريّة زلزالًا في لوس أنجيلِس و«سكاندال» أي فضيحة، أكبر بكثير من واقعة الصفعة التي استقبلت بها الوالدة باشا برتيف نيهال الإمبراطورة أوجيني في قصر دولمة بَاغْ جَة بإسطنبول، قبل ذلك بنحو نصف قرن. ما الخبر؟ الخبر أن سِيكْييروس فاجأ مشاهديه بجداريّة عليها أجير من السكان الأصليين (المعروفين بالهنود الحمر) مرفوعٌ على صليب مزدوج، صليب يعلوه صليب، ذراعاه ممتدتان مقيّدتان على العارضة الخشبية للصليب الأعلى، وساقاه مشدودتان على اتساعهما مربوطتان إلى الخشبة الأفقية للصليب الأدنى. فوق رأسه المائل النسر الأمريكي مفرود الجناحين مهيمنًا. في خلفية الصليبين هرم من أهرام المَايَا، يحمل الزخارف التقليدية لأهرام تلك الحضارة. في يمين الصورة، فوق باب له قضبان، شخصان مقرفصان مسلّحان وعلى تأهّب، أحدهما فلاح بيروفي والثاني مزارع مكسيكي. في أطراف اللوحة رسوم ورموز وزخارف مكسيكية.

لا لم تنته الحكاية بعد، لم تبق الفضيحة أسيرة الهمس في الصالونات الباريسية على طريقة صفعة برتيف نيهال للإمبراطورة أوجيني. صبرًا يا سيدتي القارئة. قرر المسئولون الأمريكيون مداراة

الفضيحة أو محوها، فطلوا جزءا من الجداريّة بالأبيض، ثم عادوا وغطّوها كلها بالطلاء. صار إنجاز سِيكْيروس مجرد «لَطْعَة» كثيفة البياض، يمكن للخبثاء أن يأخذوا أصدقاءهم من زوّار المدينة إليها ليحكوا لهم حكايتها. ولكن التاريخ مخلوق ماكر، دهاؤه بلا حدود. بقيت ذاكرة الجداريّة تُلِحّ كوجع الأسنان، وبقي المهتمون بالفن يزِنّون فينتقل زنُّهم من جيلٍ إلى جيل. وفي أثناء الحركة المناهضة للحرب الفيتنامية زاد الزَّنّ، ثم زاد أكثر مع حركة الشيكانو للحقوق المدنية (والشيكانو لعِلْمِك يا سيدتي القارئة، هم المكسيكيون الأمريكيون الذين يعمل أغلبهم عمالًا زراعيين أو في خدمة البيوت، وينظر إليهم كأقلية، أو مهاجرين وأبناء مهاجرين، رغم أن لوس أنجيلِس وولاية كاليفورنيا التي تقع فيها لوس أنجيلِس، وولايات أخرى مجاورة، أراض مكسيكية احتلتها الولايات المتحدة، على طريقة احتلال إسرائيل للساحل الفلسطيني عام ١٩٤٨، وإن كان الحدث الأول سبق الثاني بمائة عام؛ فصارا معا من عجائب الدنيا والتاريخ، حيث غدا سكان البلاد أقلية في أرضهم).

أخيرا تقرّر استعادة الجداريّة وبدأت عملية مركّبة وطويلة تعتمد التقنيات العلمية الأحدث لإزالة الطلاء الأبيض دون المساس بالألوان والأشكال التي تحجبها. وفي عام ٢٠١٢ أي والله، بعد سبعين عاما من حجبها، أُعلن الانتهاء من عملية استعادتها والكشف عنها. ولولا أن لوس أنجيلِس بعيدة، يُكَلِّف السفر إليها رحلة لساعات طويلة بالطائرة والهبوط في مطارين أو ثلاثة على الطريق، وأموالًا لا

يستهان بها، تضاف إليها أموال أخرى لحساب الفندق ومصروفات الإعاشة، لاقترحت عليك أيتها القارئة الكريمة أن تذهبي لرؤيتها، وهو ما لم يتح لي، وتبلّغينا بما رأيت وتحكي لنا. وإن دبّرت المال اللازم، فقد تكملين المعروف بالذهاب إلى المكسيك ورؤية جداريات ولوحات الفرسان الثلاثة: ريفييرا وسِيكْييروس وأُوروسكو، ولوحات لفنانين آخرين. ولكي لا أتّهم أو تتّهمين بالغفلة عن حقوق المرأة ومكانتها، أقترح عليك زيارة معرض فريدا كالو الفنانة المكسيكية المدهشة، والتي قد يفاجئك أنها تطولهم وقد تتجاوزهم قامةً، رغم قصرها الشديد وصغر حجمها. وبما أنني لم أزر لا لوس أنجيلِس ولا المكسيك فعديني بلقاء بعد عودتك، إن تمكّنتِ من الذهاب، لتحدثيني عما رأيت فأنقله إلى القراء، أو تحكيه أنت للناس مباشرةً.

الآن عليَّ أن أجد وسيلة لحسن التخلّص والانتقال من هذه المقدمة التي طالت مني وقد تغدو أطول من الحديث الذي أقصده عن رسوم الجرافيتي. ولم التخلّص؟ أدخل في الموضوع مباشرة:

تتنوع أشكال الجرافيتي، من الشعار أو التعليق البسيط المكتوب باليد بقلم سميك الخط، على جدار أو مُسَطَّح، إلى الطبع بواسطة الاسْتَنْسِل المقطّع المرشوش بالأسود أو البني أو غيرهما، إلى التصوير المحترف بالريشة والألوان لجداريّة ممتدة، ينجزها فنانٌ موهوب أو فريقٌ من الفنانين. فنٌّ مفتوحٌ في الشوارع، لعابر الطريق السريع أو لمن يعِن له التوقف لتأمل تفاصيله ومعانيه. الجرافيتي شائع في مختلف البلدان. تُجَرِّمه بعض الدول باعتباره

تَعَدِّيًا على الملكية العامة أو الخاصة وتشويهًا لها. فإن نظرنا للأمر من الجهة المعاكسة، نعرف أن الرسم على الجدران استعادةٌ للحَيِّز وامتلاكٌ للشارع، بما يتيح إعلان المواقف في الشأن العام والتأثير في مساره. ومن هنا يزدهر هذا الفن في زمن الثورات. ستُخَلِّف لنا ثورة المكسيك العباقرة الكبار وجدارياتهم. وسينتشر الجرافيتي أثناء ثورة الطلبة والعمال في فرنسا عام ١٩٦٨، وسيجعل الفلسطينيون الجدار العازل الذي يُقَسِّم أرضهم ويعزز احتلالها إلى أداة للتعبير عن نفسهم ومقاومتهم. باختصار سيسمح الجرافيتي للثوار والمقاومين والمُهَمَّشين وحركاتهم الاحتجاجية بالحضور المرئيّ في الفضاء العام.

ليس الجرافيتي يا عزيزي القارئ مجرد رسم على الجدران. لأن الرسم والنقش وتلوين الصور على الجدران قديم قدم الإنسان على الأرض، وهو ما تشهد عليه الرسوم على جدران الكهوف. ولنا في مصر باعٌ طويل في هذا الأمر، يمتد من أعمدة المعابد ومقابر وادي الملوك والملكات في البر الغربي بالأقصر إلى زماننا حيث يتم تزيين جدران بيت العائد من الأراضي الحجازية بعد أداء فريضة الحج، برسوم مُلَوّنة تتصدرها الكعبة وعبارة حج مبرور وذنب مغفور، وقد يُضاف إليها السفينة أو الطائرة التي استقلها الحاج في رحلته، أو جمل موروث من رحلات الحج القديمة. ولكن الجرافيتي على غير هذه الرسوم، يرتبط غالبًا بمحمول سياسي. لذلك لم يكن شائعًا في مصر قبل الثورة، إذ كان يدخل في باب المحظورات، يتم التعامل معه

كالمنشورات، وكانت ممنوعة كفيلة بحبس المُتَلَبِّس بتوزيعها واتهامه بتهديد أمن الدولة، وربما بمحاولة قلب نظام الحكم. والمحاولات المعدودة لاستخدام الجرافيتي على الجدران، كان يتم محوها في الليلة نفسها.

باختصار، الجرافيتي من مستجدات الثورة، كالمسيرات الكبيرة، والمليونيّات والقدرة على الهتاف بـ«يسقط» جماعيًّا وبقوة. منذ ٢٥ يناير ٢٠١١ إلى اليوم، أي طوال عامين، ستنتشر رسوم الجرافيتي في القاهرة وفي غيرها من مدن مصر وفي مختلف الأحياء، وإن تكاثرت في محيط ميدان التحرير ووسط البلد. على الجدران. على الأبواب. على الأعمدة. على الأرصفة. على أغطية علب الكهرباء. على السواتر المعدنية التقليدية للمحلات التجاريّة. تحمل شعارات الثورة: المجد للشهداء. كلنا خالد سعيد مكتوبة تحت صورته. كلنا مينا دانيال تعلوها صورته. الشعب يريد... صورة مبارك والشعب يريد إسقاط النظام. يسقط حكم العسكر. صورة طنطاوي أو صورته مع مبارك، وجه واحد نصفه ملامح هذا والنصف الآخر ملامح ذاك. ثعبان كبير يبتلع. كن حذرا عند محاربة الوحوش لئلا تصبح واحدا منهم. لا للتعذيب. لا للمحاكمات العسكرية للمدنيين. يسقط حكم المرشد. الثورة مستمرة. علم مصر. تنويعات على علم مصر. نفسك تكون إيه؟ نفسي أكون شهيد. وجوه الشهداء بالأبيض والأسود. وجوههم بالألوان. صور نصفية أو كاملة. صورهم بأجنحة كبيرة كالملائكة في الأيقونات المسيحية. وجوه مصابين على عين كل منهم ضماد.

صورة قنّاص العيون فوقها كلمة Wanted وتحتها اسمه ووظيفته وتهمته. آلاف من هذه الرسوم بتقنية قوالب الاسْتَنْسِل الجاهزة والرش، وأخرى تصوير بالألوان والفُرَش يحوّل جدار بناية قديمة أو سورًا حجريًا متآكلًا أو علبةً كئيبة الشكل واللون لأسلاك الكهرباء والتليفون إلى برقية سياسية أو جداريّة تشد انتباه المارة أو تجعلهم يتوقّفون للنظر. قد يستوقف أحدهم شهيد، فيتأمل وجهه أو أجنحته الكبيرة، أو الشبه ربما بينه وبين شقيقه الأصغر، يترحّم عليه ويقرأ الفاتحة ويمضي. وقد يضحك آخر من الرسمة، لأنها فاجأته بجرأتها وسخريتها، ثم يلاحظ وهو يضحك معنى لم ينتبه له من قبل، فينتبه. وقد يكون صخب الألوان الزاهية والرسوم الغريبة هي ما جذب السيدة العابرة في طريقها إلى عملها في مُجَمَّع التحرير فتتساءل كما تساءل النجّار أو الخبّاز أو الصبيّ العامل في شارع معروف الذين مرّوا على المكان قبلها: لماذا تشبه هذه الرسوم المألوف من البشر والأشياء ولماذا تبدو تلك التي تجاورها مختلفة عجيبة في أشكالها تجذب العين أكثر؟ وما موضوع تلك الفرس التي على غير الخيول لها رأس امرأة بضفائر وخمسة قوائم، ثلاثة منها أمامية، جسدها طويل ممتدّ تحمل في بطنها خلقًا كثيرين كأنها ستضع حين تُتِمُّ حملها، بدلًا من الوليد ألفًا؟ ثم ما معنى هذا الشطرنج؟ سقط الملك، هذا واضح. لم يسقط الوزير والطابيتان والفيلان والحصانان. أعوان الملك مستقرون في أماكنهم. دقيقة أو دقيقتان قبل أن يلاحظوا أن الجهة المقابلة لا ملك فيها ولا وزير ولا أعوان لهما، لأن العساكر كل العساكر، تجمعوا على الرقعة معا صفوفًا صفوفًا في الجانب

الآخر. يضحكون. أما الصبي الذي أوقف دراجته وأطال النظر في جداريّة الدبابة في مواجهة الخبز فقد ابتسم لفكرة أن الرسّام وضعه في الاعتبار، لأن الشاب الذي يركب دراجته ويمسك بمقودها بيده اليسرى وبيده اليمنى يسند حامل الجريد المرفوع بأرغفة الخبز البلدي على رأسه، يشبهه كأنه هو. ولما تمعّن في التفاصيل لاحظ أن الولد لا يحمل خبزًا على رأسه بل بشرًا كثيرين، كأنه يحمل البلد على رأسه. فقال لنفسه حتى هذه التقطها الرسام. أنصفني. كاد أن يغادر ثم عاد للصورة مرة أخرى لأنه تساءل: لماذا تقصدني الدبابة أنا بالذات؟ كانت الدبابة الضخمة والجندي الواقف عليها يوجه بندقيته إلى حامل الخبز. حيّره السؤال. أقلقه. ثم استدار مسرعًا إلى درّاجته متجهًا إلى المخبز الذي سينقل منه حمولته من الخبز. وفي الوقت الذي كان الصبي يركب درّاجته ويضاعف السرعة لتعويض الوقت الذي قضاه أمام الجدار، كانت تلميذة بالمرحلة الإعدادية تحب أفلام فؤاد المهندس وإسماعيل ياسين، تكركر ضاحكة، فلما التفتت إليها سيدة في سن جدتها، لا ترى من اللائق أن تضحك البنات في الشارع بهذا الشكل، قائلة: لا يا أمي ما يصحش تضحكي كده. قالت لها البنت: بصي شكل المُهَرِّج ده. مالوش راس، بس دقن وشفايف مدهونة أحمر. وبدل راسه كاب عسكري. فتطلعت المرأة إلى الرجل الذي بلا رأس وكادت تضحك، ثم انتبهت إلى أن الرجل الذي بلا رأس يمسك بيده خيوطًا كأنه يعمل في مسرح للعرائس وفي نهاية الخيوط هياكل عظمية باستثناء خيطين في الوسط ينتهي كل منهما برجل، أولهما أحمد شفيق المرشح للرئاسة وآخِر رئيس

وزراء لمبارك قبل سقوطه، أما الثاني فلم تتعرف عليه لأنه غير واضح الملامح. انقبض قلبها من الهياكل العظمية وكادت توبّخ البنت لأنها جعلتها تصطبح بهذه الصورة. أما النجّار السالف الذكر فقد رأى نفس الصورة وضحك، كما ضحكت بنت المدارس، من صورة المهرج، نعم قرر مثلها أنه مهرج. دقق النظر في الشخصيتين، قال: هذا شفيق، واضح من شكله، وذاك؟ لم يتعرّف عليه. في المساء وهو عائد من الورشة وجد شخصًا أضاف سهما على الشخص غير واضح الملامح وكتب اسم مرسي. استغرق النجّار في التفكير إن كان يوافق على هذا الكلام أم يعترض عليه. غادر قبل أن يحسم أمره.

لاحظي يا سيدتي القارئة، أن غالبية أهل مصر العامرة بالآثار والرسوم والنقوش لم يتح لهم دخول متحف ولا قاعة عرض فنيّ ولا زيارة معابد الأقصر ولا مقابر وادي الملوك والملكات في برِّها الغربي. وأن رسوم الجرافيتي المَشَاع في الشارع كانت تجربة جديدة لمعظمهم، تستوقفهم وتثير فيهم البهجة والأسئلة. وفي هذا الصدد، أعجبني تعليق على فن الجرافيتي قاله جنزير، وهو من الفنانين الأبرز في هذا المجال، قال: «من مزايا الجرافيتي أنه يقدّم تسلية لكنّاسي الشوارع!».

لم يكن الجرافيتي مجرد فعل مواكب للثورة يُعَبِّر عن مطالبها ويوثّق يومياتها وحوليّاتها في مسار مُوازٍ فحسب، بل كان جزءًا من مجراها. لست متخصصة في الفنون التشكيلية ولا أتجرأ على التحليل والتقييم، ولكنني أشاهد كباقي خلق الله وأفكّر مثلهم، فأنتبه

إلى المفارقات المدهشة التي تحيط بهذا الفن. فهو يتكرر ويتعدّل ويُضاف إليه. يمحوه من يمحوه، فيُستبدل به آخر. زائل ويتناسخ. ثابت على جدار وينتقل. ينجزه فرد أو فريق فيصير مشاعًا كاللغة التي نتشارك فيها، دون أن نعلم من ابتدع هذه الصورة أو تلك ومن أضاف هذه الجملة التي تتردّد على ألسنتنا كل يوم، وهكذا الجرافيتي حديث وحداثي وله جذور ممتدة في التاريخ. ثم إنه عمل سياسي وورشة للتعلّم والإنتاج. باختصار، فن وفعل متداخلان متزاوجان ربما كالروح والبدن، لا ندري أيهما يُجَسِّد الآخر.

ولأنهما توأمان، فإن شارع محمد محمود وناصيته حيث يلتقي بميدان التحرير، والجدار العازل الذي يقسمه بعد المدرسة الفرنسية، عند تقاطعه مع شارع يوسف الجندي يمينًا ومكتبة الجامعة الأمريكية في الجهة المقابلة، والجدار العازل في مدخل شارع الشيخ ريحان من جهة ميدان التحرير، وكلها شاهدة على المئات الذين فقدوا حياتهم أو عيونهم أو أصيبوا في صدورهم أو أطرافهم، أقول لأن فعل الثورة ورسمها توأمان فقد غدت هذه الأماكن هي الأبرز للجرافيتي في القاهرة. بكل ما يعنيه، لا أقصد الرسوم وحدها بل محوها وتناسخها وتعدّدها واستمرارها واختلاف أساليبها ومصادرها.

لا أعرف كم مرة تحديدًا حمل عاملون بهيئة التنسيق الحضاري (لاحظ أيها القارئ المفارقة في الاسم) أو المحافظة أو الجيش أو الداخلية أو غيرها من مؤسسات الدولة، دلاءهم الممتلئة بالطلاء الأبيض وفُرشا إسطوانيّة دوّارة وسُلَّمًا خشبيًّا ذا فرعين، وراحوا

يقومون بعملية المحو بسرعة وآلية. وهم وقوف على أعلى السُّلَّم، أو على أرجلهم أو وهم منحنون أو مقرفصون يتعاملون مع الأجزاء السفلية من الجدار.

ولكن الرسوم كانت تتناسخ، وإن لم تتطابق أو تتماثل، لأن هناك ما جدّ واقتضى التعبير عنه، أحداث ومتغيّرات وشهداء، وتفاصيل يتعيّن مواجهتها بالموقف والرسم والكلام. وكأن عمّال التنسيق الحضاري وغيرهم ممن قاموا بمهمة المحو، تواطئوا من حيث لا يدرون مع الثوار وجدرانهم، لأنه في زمن الكاميرات الرقمية وإمكانيات التصوير بالتليفون، والنشر الفوريّ بتنزيل الصور على عشرات المواقع في الشبكة الإلكترونية، لم تكن الرسوم الجديدة تستبدل بالقديم الذي تم محوه، بل تضاف هذه إلى تلك، لتشكِّل رصيدا من الجرافيتي يتزايد يومًا بعد يوم، وكأن الجدران اختارت وظيفة ساعي البريد، تنقل الرسائل إلى أصحاب الشأن، فإذا وصلتهم تنهمك في نقل رسائل جديدة.

يستحيل التوقّف عند الرسوم كلها، ويصعب تناول الأبرز بينها، لأنها كثيرة، ربما تحتاج مجلّدات ضخمة للإحاطة بها. وليحتملني القارئ وأنا أستطرد في الكلام. أريد أن أضيف ملحوظتين أخريين. ملحوظتي الأولى تخصّ العناد المدهش المتمثل في الرسوم وراسميها. كأن كل رسمة معركة في ذاتها، وهجوم مضاد من الثوار يؤكد أن الثورة مستمرة، رغم كل العقبات والصعاب. ولا أدلّ على ذلك من مشهد فناني الجرافيتي في أوائل فبراير عقب مجزرة استاد

بور سعيد، وفي أثناء المواجهات التي تلتها مع الأمن في شارع محمد محمود ومحيطه، وهم منهمكون في إعادة رسم جدار الجامعة الأمريكية عند مدخل شارع محمد محمود من جهة التحرير، وكانت رسوم الجدار قد تم محوها في أوائل الشهر السابق. حمل الرسامون والمتطوّعون أدواتهم وأخذوا يعيدون رسم الجدار، والمعارك دائرة في الشارع نفسه على بعد أمتار معدودة منهم، يسمعون صوت الطلقات، يشمّون الغاز المُسَيِّل للدموع، ويواصلون العمل. أما الملحوظة الثانية فتخصّ التنوّع اللافت في الرسوم. لا أعني أنواع الجرافيتي، بل أشير إلى تنوّع في الأساليب، رسوم تلتزم بالنقل الواقعي، وأخرى تستوحي التراث الفرعوني وأساطيره، وثالثة توظّف الخط العربيّ وتقتبس آيات من القرآن، ومنها التجريبيّ والحداثيّ وما بعد الحداثيّ. باختصار، تنوّع دالٌّ على الثراء الثقافي لهذا البلد وتعدد روافده، وأساليب حياته. تنوّع يقدم دليلًا آخر على الاحتشاد الثقافي الذي شهده ميدان التحرير.

في محاضرة ألقيتها في مؤتمر في جامعة القاهرة في فبراير ٢٠١٢، كنت أشرت إلى الأشكال الكارنفالية التي شهدها الميدان في اعتصام الأيام الثمانية عشر التي بدأت الثورة وتمكّنت من عزل مبارك. ثورة ضاحكة كما أسماها البعض، ففيها النكتة والتعليق الساخر واللافتة الهزلية، وكوميديا الشارع المرتجلة، والترجمة الفورية للفعل الكارثي إلى مسخرة (خذ مثلا يا سيدي القارئ يوم حلّقت الطائرات الحربية على رءوس الخلق في الميدان، يوم الأحد ٣٠

يناير. هتف أحدهم فجأة «حسني اتجنن»، وهو يحرك كلتا يديه على جانبيْ وجهه في إشارة مألوفة إلى من فقد عقله. وفورًا تبعه المئات ثم الآلاف يردّدون العبارة نفسها «حسني اتجنن»، ويقومون بالحركة نفسها وإن زادت عليها حركات راقصة على إيقاع الدفوف). قلت هذا الكلام ضمن حديث ممتد عما أسميته بالاحتشاد الثقافي، وعرّفت هذا الاحتشاد بأنه «توظيف كافة الطاقات المكتسبة والموروثة، والتقليدية والمستحدثة، والشعبية وغير الشعبية في خدمة الثورة». وأرى في الجرافيتي وتكامله مع أساليب أخرى في ممارسة الثورة، عنصرًا من هذا الاحتشاد، ثم أرى فيه، بتعدد أساليبه ومصادره، نموذجًا من نماذج هذا الاحتشاد.

أعرف، والله أعرف، أن ملاحظتي طالت بما لا يُحتمل. أعتذر عن ذلك يا سيدتي القارئة، لم أستطع مقاومة الإشارة إلى كلام قلته ربما يضيف شيئًا إلى هذا السياق.

كنت أنوي أن أتحدث باقتضاب عن بعض الرسوم التي أطربتني. وبي رغبة تلحّ في العودة إلى بيكاسو وسِيكْييروس وريفيرا، في محاولة لتخيّل كيف تكون استجاباتهم لهذه لجدران في بلادنا، ولكن اطمئن يا سيدي القارئ، واهدئي يا سيدتي القارئة. لن أفعل. سأريحكما من استطراداتي، وأنهي الفصل.

الفصل السابع والعشرون

عن الشعر والشعراء

فصل يبدو خارج السياق، وإن كان في صلبه

يسميهم مُريد الحدّادين والجواهين. نلتقي مرة أو مرتين في العام وأحيانًا ثلاثًا. يأتون إلينا أو نذهب إليهم، في بيت أمينة وأمين، أو في بيت سامية وعمرو. نسهر معًا. نتسامر. نستمع إلى الشعر. ودائما ما نفترق آسفين حتى وإن طالت بنا الجلسة إلى الفجر. ارتياحٌ غريب. دائمًا. ليست مجرد بهجة اللقاء بمن نحب. ربما هي رسالةٌ ضمنيةٌ أن الدنيا بخير، أن جمالها المكنون غالبًا، يُفْصِحُ عن نفسه في وجودهم، تلقائيًّا وبلا حرج.

أتساءل: هل الصفات الذهنية والروحية وراثية كلون العينين والطول وملمس الشعر وبعض الأمراض؟ هل يمكن للعذوبة مثلًا أن تُوَرَّث، من أب لابن؟ هل الصقر حاد البصر المنتبه كأنما تحت ريشه رادار صغير ملاصق لقلبه، أو مدسوس بقدرة قادر بين تلافيف جهازه العصبي، هذا الصقر: هل يُوَرَّث؟

تزوج أمين بأمينة. عاشا في تبات ونبات. خلّفا صبيانًا وبنات: الصبيان صبيّ اسمه أحمد والبنات بُنَيَّة اسمها سلمى. ليست هذه خاتمة الحكاية، ولا أولها، فلها على طريقة كل الحكايات، حكاية قبلها تسبقها وتجعلها ممكنة. ولأن أمينة ابنة صلاح جاهين، وأمين ابن فؤاد حدّاد، صار فؤاد حدّاد وصلاح جاهين صهرين، وغدا أحفاد هذا هم أنفسهم أحفاد ذاك، أي حدّادين وجواهين معا. في بداية معرفتنا بهم بدا أنهم من ريحة الحبايب الذين نحب أشعارهم وصورتهم وسيرتهم. وعندما تعرّفنا على أمين وأمينة وسامية وبهاء، صاروا هم الحبايب الذين يحمِّلوننا المحبة والوُدّ لأصدقائهم ومعارفهم الذين غدوا بدورهم من «ريحة الحبايب».

لم ألتق بصلاح جاهين إلا مرتين، مرة وأنا في الثانية والعشرين، ومرة ثانية يوم تأبين أمل دنقل، وكنت في السادسة والثلاثين. أما فؤاد حدّاد فلم أره إلا عام ١٩٨٥، كان يلقي شعره على خشبة مسرح الجمهورية. استمعنا إليه ونحن وقوف، لا مقاعد شاغرة في مسرح مكتظ بالحاضرين. أذكر جلسته على المسرح: كان جالسًا على مقعد منخفض، يَلُفُّ رأسه بكوفية. يضرب بيده خفيفًا وبانتظام على فخذه. هل كان يفعل ذلك أم أنه الخيال يضيف إلى الذاكرة؟ ولماذا يضيف؟ ربما لأن الإيقاع لم يكن يقتصر على القصائد التي يلقيها، لم تكن القصائد وحدها هي المرسال بل فيض من الإيقاع يسكن شخصه ويرسله لي ولجمهور الحاضرين. أمين، ابنه، الذي لم أكن أعرف أنه ابنه، يقف مع مجموعة من الشباب في جانب من المسرح إلى

يمينه، يردّون عليه كالكورس. وأنا على مشارف الأربعين. لي ولد دون الثامنة، له دفتر غلافه من جوخ أخضر محلّى بزهرة مطرّزة، يكتب فيه «قصائده».

ولا بد أن أُعَرِّفَكَ يا صديقي القارئ، أنني في سنوات المراهقة كنت أعتبر لقاء شاعر أو كاتبة، أو مجرد رؤية أحد من الكتّاب لمحًا في الشارع ومن بعيد، معجزة من نوع ما، أقف أمامها مشدوهةً كأنني رأيت ملاكًا كامل الأوصاف: أعني الجناحين الكبيرين والهالةِ المضيئة وغيرهما مما يميّز الملاك. معجزة مركّبة: الملاك، سيره هكذا في الشارع وبين الناس، ثم مصافحتي له بشكل عاديّ كأنني لا أكسر قانونًا من قوانين الوجود وسننه حيث الفواصل صارمة بين البشر والملائكة.

لن ألتقِي بأمين إلا بعد ذلك بسنوات. لأن تميم الذي كان يكتب شعرًا لا يُطلع عليه أحدًا، والذي قلت له ذات يوم: يبدو لي يا تميم أنك ستكون شاعرًا، أجابني بلا وبكى، فعرفت أنه سيكون شاعرًا، أقول إن تميم سيتعرّف على أمين. يزوره وأسرته في البيت ويدعوهم لزيارتنا. جاءت العائلة مجتمعة، الحدّادين والجواهين: أمينة التي كنت أعرفها منذ سنوات، وأمين وولداهما أحمد وسلمى وسامية جاهين، الأخت الأصغر لأمينة. تكررت الزيارات. ومرة أو مرتين انضم إلينا بهاء وزوجته. ثم تزوّجت سامية فصار عمرو عبد العليم يزورنا معهم ونزوره. ولما تزوجت سلمى أصبح حازم شاهين مشمولًا في الجواهين والحدّادين، في لغة مُريد.

ونحن أطفال، كانت مربيتنا دادا حميدة توقد البخور قبل صلاة الجمعة أو ربما بعدها، لم أعد أذكر. تحمل مستديرة صغيرة من الصاج عليها بخور وحبات من المستكة ومكوّنات أخرى تظل تضيفها على الصاج الساخن المستقرّ على وابور الجاز المشتعل. تصرّ أن يعبر الواحد منا فوق البخور سبع مرات، تتمتم بأدعية. لم يدر ببالي قط أن أوقد بخورًا في حياتي، وإن كانت فكرة البخور، دلالته المرتبطة بالرُّقية، تأتيني أحيانًا ونحن نجتمع مع الجواهين والحدّادين في بيتنا. صالة ٤ أمتار في تسعة، نشغل منها الأمتار الخمسة الداخلية حيث المقاعد. ثلاثة شعراء، يصبحون أربعة في وجود أحمد حدّاد، أو خمسة إن حضر بهاء جاهين. وأحيانًا يضاف للشعراء مُهر جامح مدهش في علاقته بالعود وما يؤلفه أو يغنيه من الألحان. لا أدري إن كان التشبيه مناسبًا، لكنني وجدتني أشبّه حازم شاهين بالمُهر لأنه وهو يعزف على عوده ويغنّي، يحرك رأسه صعودًا وهبوطًا خفيفًا، وبقوة في بعض الأحيان. يستحضر لي حازم رأس مهر يركض جامحًا، رغم أنه يكون مستقرًّا على مقعده، يمسك بيساره رقبة عوده، يحرك أصابعه هيّنًا وبخفة على الأوتار يعفِقُها بحزم، وأصابع يمناه القابضة على الريشة بين الخنصر والإبهام تضرب على الأوتار هنا أو هناك. ليس ناديًا أو ملتقى للشعر والموسيقى، بل بيت كباقي بيوت الخلق. سكن. ولكنه في وجود الشعراء وحازم وأمينة وسامية وعمرو وسلمى يغدو سكنًا غريبًا للعذوبة ربما أو للجمال، وربما لشيء مستقر لا يسهل اقتلاعه أو زحزحته أو خلخلته، كأنه الأمل، أمل غريب فيه يقين وإن كان معجونًا بالشقاء والأسئلة. عادة ما يقرأ

تميم قصائده الجديدة. وعادة ما يقرأ أمين. تُلِحُّ سامية وأمين على مُريد أن يقرأ. لا يبدو مُريد خجولًا ولكنه خجول. لم يعتد قراءة الشعر للضيوف. يصرون أن يقرأ قصيدة «منتصف الليل». كاملة؟ كاملة. يقرأ. لم يتغيّر صوته، ما زال رخيمًا فيه عمق وجمال. شَعْرُه الفضي تمامًا والناحل قليلًا مستجد. كبر مُريد. لا أتمثّل الأمر، لأنني حين أتطلّع إليه، أراه وأرى الولد في مطلع عشرينياته ونحن طلاب في الجامعة. أنا أيضا لم أعد أتعرّف تمامًا على صورتي في المرآة أو في لقطات الكاميرا، لأن الصورة القديمة في الذاكرة تغالب الأولى والأرجح أنها تغلبها. غريب!

وكذلك محمود، حين أتطلع إليه عن قرب أو في صورة تركّز على وجهه في التلفزيون، تتراكب صورتان، صورته في أول لقاء لنا عام ٧١ بعد وصوله إلى القاهرة، وكان لقاءً عابرًا. (سألتقي به لاحقًا في بيروت والقاهرة وتونس وعمّان)، وصورته في السنوات الأخيرة بعد جولتين قاسيتين مع المرض. في بيروت عام ١٩٨١ سأقدّمه في حفل افتتاح مهرجان الشَّقِيف، وكان الفدائيون صدّوا هجومًا إسرائيليًّا على القلعة التي حمل المهرجان اسمها تحيةً. قدّمت أبا عمار ليقول كلمة الافتتاح، وقدّمت أمل دنقل الذي قرأ قصيدة «لا تصالح» للمرة الأولى على ما أظن، وقدّمت محمود درويش (قرأ «بيروت خيمتنا الأخيرة» أم يلتبس عليّ الأمر؟) وقدّمت شعراء آخرين، ليس من بينهم مُريد. كان مُريد سيقرأ قصيدته في اليوم التالي مع مجموعة أخرى من الشعراء. وقدّمهم بطبيعة الحال، شخصٌ سواي. صورة

تميم وهو في الثالثة من عمره مع أبي عمار يطالب بانتباهه لحروف الأبجدية في لعبة على شكل لوح، وصورته مع أمل دنقل الذي سمّاه تميم «أمل التمساح»، التقطتا في تلك الأيام، وكذلك الصورة التي تجمع الكتّاب بأبي عمار في بيته. لا أنا ولا مُريد نظهر في الصورة. كنا نجلس على الأريكة المقابلة، حرجًا من الانتقال من جهة إلى جهة وعدد الواقفين للصورة يزيد على أي كادر معقول. في الصورة أمل دنقل وسعدي يوسف، وإلياس خوري ولميعة عباس عمارة والدكتور جورج حاوي وآني كنفاني أرملة غسان كنفاني وآخرون). لا أدري لماذا شكرني محمود على الكلمات التي قدّمته بها في الأمسية، هل فعل لياقةً أم تأثرًا بما قلت، أم كان يتوقع غير ذلك؟ لا أدري). لم يزر محمود القاهرة في السنوات الخمس عشرة الأخيرة إلا وزارنا. يدعوه مُريد إلى بيتنا في المهندسين، ثم إلى بيتنا الحالي في باب اللوق. يحب محمود الجمبري والسمك، فندعوه على جمبري وسمك، في كل مرة. في زيارته الأولى لنا جاء مع بهجت عثمان (بهجيجو المدهش في كل شيء، الشاعر بالرسم والسلوك والكلام). كان تميم في الخامسة عشرة. عزف على العود حين طلبنا منه أن يفعل، ولكنه رفض أن يقرأ شيئًا من شعره. رغم إلحاح صديقتنا منى أنيس أن يفعل. والأرجح أن محمود فهم لماذا. صار يسمّيه الأمير.

في زيارة للقاهرة، قبل عام ونصف من رحيله، أهدانا محمود درويش نسخة من كتابه « في حضرة الغياب» كتب على صفحته الأولى: «إلى رضوى ومُريد وتميم، أكثر من إعجاب وأكثر من

محبة». كان مُريد اشترى نسخة من الكتاب من بيروت أو عمّان بعد صدوره مباشرة في العام السابق. حمله لي في القاهرة. قرأته. مرة أخرى أيقنت أن محمود كبير في نثره كما في شعره. قلت لمُريد: قرر محمود أن يرثي نفسه قبل أن يرثيه أحد، وربما أراد أن يكون رثاؤه هو الأبلغ. لكنني حين التقيت بمحمود على مائدة العشاء في مطعم دعتنا عليه منى أنيس جمعنا به وبسعدي يوسف، لم أقل له سوى أن كتابه جميل.

في زيارة أخيرة للقاهرة، بعدها بعدة شهور، عام ٢٠٠٧ على ما أذكر، التقينا على العشاء في بيتنا، محمود ونبيل درويش ومنى أنيس، ومُريد وتميم وأنا. كان تميم يسأل وهو يقف في مفترق الطرق، هل يجوز ومسعاه الشعر أن يعمل في الأكاديميا. كل منا يتدخل في الحديث برأي، فإذا بمحمود ينهرنا فجأة: اسكتوا، إنه يسألني أنا! يريد رأيي أنا! ضحكنا. بعدها قلت لمُريد أو لنفسي: محمود يفتقد الولد.

لم أحضر آخر لقاء بين محمود ومُريد وتميم. كنت في القاهرة وكانا في عمّان. دعاه مُريد على الغداء في بيت والدته. حكى لي مُريد: كالعادة، ذهبت بالسيارة لآتي به (محمود لا يقود سيارة)، وعلى غير العادة وجدته ينتظر أمام البناية، يمسك الكتاب بحرص في يده. ما إن ركب حتى قال لي: لديك نسخة من هذا الكتاب، قلت لي ذلك. هذه النسخة لتميم. وحين وصل إلى البيت أعطى تميم الكتاب، كان كتب الإهداء قبل أن يغادر بيته. حمل تميم الكتاب إلى القاهرة، لم يقل

لي شيئًا عن الإهداء. مُريد هو من نبّهني. في الصفحة الأولى لكتاب «أثر الفراشة» الذي أراد محمود أن يكون عنوانه الفرعي «يوميات» كتب بالورب في منتصف الصفحة: إلى/ تميم البرغوثي/ المشعّ كلؤلؤة في هذا الليل/ أحبك وأفخر بك، وأعرف/ أنك لن تقوى على إلحاق الخيبة/ بنا، لأنك الأمل/ محمود درويش/ ٢٤ / ٣ / ٢٠٠٨

بعد أقل من خمسة أشهر مات محمود درويش عقب جراحة أجريت له في أحد مستشفيات مدينة هيوستن بولاية تكساس، يفصله عن أمه وإخوته وبلاده، أكثر من ١١ ألف كم، وأربع عشرة ساعة من الطيران المتصل. وتشاء الأقدار أن يكون تميم يحضر مؤتمرًا في البلد نفسه، وإن كان في شيكاجو البعيدة ما يقرب من ألفي كيلومتر عن تكساس. وصلهم الخبر في المؤتمر، ارتجل تميم كلمة قال فيها من بين ما قال: «مات محمود درويش. مات من كان يؤسس لفلسطين فكرةً، فالأوطان تؤسَّس في الخيال قبل أن تؤسَّس في الحقيقة... لا يكون الناس شعبًا... إلا إذ تكوّنت في بالهم وخيالهم صورةٌ عن أنفسهم وسعوا سعيًا أن يكونوها... وهذه الصورة التي في الخيال ينشئها الشعراء إنشاءً، ينشئها المثّالون والرسامون والمؤرخون والشهداء». أنهى تميم كلمته القصيرة بالعبارة التالية: «مات الشاعر فحافظوا على البلد فقد كان قصيدته الوحيدة».

أما مُريد فقد سافر إلى رام الله لحضور الجنازة. ولما عاد كتب قصيدة طويلة في رثاء محمود درويش، أقتبس مقطعين منها. يقول مُريد:

وكأنّهُ إذ ماتَ أخْلَفَ ما وَعَدْ.

وكأنّنا لُمْناهُ بعضَ الشيءِ يومَ رحيلهِ.

وكأنّنا كُنّا اتّفقْنا أن يعيشَ إلى الأبَد.

«محمودُ إبنُ الكُلِّ» ـ قالتْ أمُّهُ،

وتراجعَتْ عن عُشبهِ، خَفَرًا، لِتَنْدَفِعَ البَلَدْ.

يا ويحَها حوريةٌ،

هل أدركَتْ أنّ البِلادَ لِتوّها

قد وَدَّعَتْ مِن كلِّ عائلةٍ وَلَدْ؟

... ...

وهَوَى الفِراقُ

كَشُرْفَةٍ سَقَطَتْ بكُلِّ زُهورِها

وكأنها زمن تكسَّرَ في المكان

لا بُدَّ مِن يومٍ كهذا

كي نرى في كلِّ فلسفةٍ غيابَ كَمالِها،

وهنا يزوغ يقينُنا والشكُّ، أو يتثبّتانْ.

... ...

نُصِبَ الكمينُ لنا كأبهى ما يكونُ

ونحن نركضُ نحوهُ كي نَتَّقيه، سُدًى،

ونركضُ،

كلٌّ إفلاتٍ إلى حينٍ. وهذا اليومُ حانْ.

وخدَعْتَني.

لاقيتَ موتَكَ مَرَّةً، ونجوتَ منهُ

لكي أصدِّقَ، بالتمنّي والسذاجةِ،

أنه خَسِرَ الرِّهانْ.

وعجِبْتُ بَعدَكَ

كيف أحيا بعضَ أحيانٍ،

وكيف أموتُ مِن آنٍ لِآنْ.

كنت أعرف أن مُريد يحب محمود، ولكنني لم أكن أعرف أنه يحبّه إلى هذا الحد.

لا محمود درويش ولا سعدي يوسف ولا عبد الرحمن الأبنودي ولا نزيه أبو عَفَش ولا غيرهم من الشعراء الذين صادقناهم وزارونا، قرأوا الشعر في بيتنا، أو بيوتهم حين نزورهم. قراءة الشعر تقليد ارتبط بزيارة الجواهين والحدّادين. لأنها تقاليدهم، أو لأن الجلسة كانت تكتسب ألفةً غريبة، كأن عائلتنا الصغيرة المكوّنة من ثلاثتنا اتسعت فشملتهم. شاعر واحد غيرهم اعتاد على كسر القاعدة، وإن كانت

الجلسة التي تجمعنا دائمًا ما تقتصر على أربعتنا، هو ومُريد وتميم وأنا. شاعرٌ مسكون بالقصيدة، يعيشها على مدار يومه، في الصحو والمنام وفي البين بين، لا يكتب من الشعر إلا القليل، كأنه يخافه أو يخاف عليه. أعني وليد الخازندار.

سأغيّر الموضوع قليلًا وإن واصلت في حديث الشعر والشعراء. ربما لأن وليد بخصوصيته وخفوت حضوره وعمق موهبته يقلِّب عليّ مواجع لا أريد الخوض فيها. أنتقل إلى مشهد طريف: بيروت، إبريل ١٩٨٢، قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان بأقل من شهرين أو ربما في العام السابق. اختلط عليَّ الأمر، وتداخلت التواريخ في الذاكرة. دعوة عشاء في بيت أصدقاء. سعدي يوسف يناكف تميم، يلاعبه. تميم دون الخامسة أو دون الرابعة. يحفظ بيت الشعر الذي يقول: إذا غضبت عليك بنو تميم حسبتَ الناسَ كلهمو غضابا. يقوله لسعدي فيردّ عليه سعدي ضاحكًا ومكايِدًا: ولو أن برغوثًا على ظهر نملةٍ تَوَلّى لصفٍّ من تميمٍ لولَّتِ. يتوتّر تميم، لأن سعدي غلبه. تخلو جعبة الصغير من بيت يردُّ به على سعدي. أضحك وأنا أكتب هذا الكلام لأن تميم الذي أراد أن يغالب كبير شعراء العراق، تمسّك، في تلك الرحلة، بقارورة ماء معدنيّ فارغة، من البلاستيك لأنه يستخدمها في التطبيل، يُثبِّتُها مقلوبة تحت إبطه الأيسر ويستخدم كلتا يديه في النقر والضرب على قاعها. كان فخورًا بطبلته المخترعة، فشلنا أنا ومُريد في إقناعه بتركها في الفندق. أصر فكان له ما أراد. حملها معه إلى المطار وفي الطائرة، وظل متشبثًا بها طوال الرحلة من بلد إلى بلد.

(ربما أخلط بين عامين، عام كان فيه تميم دون الرابعة والعام التالي. لأن حمل الزجاجة بهذا الحرص لا يليق بصبيّ كبير يوشك بعد شهرين أن يتم الخامسة!)، ما زال تميم ينادي سعدي كما اعتاد في طفولته: «عمو سعدي»، ولكنه لا ينادي الأبنودي إلا بـ«يا خال»، ربما لأن العبارة دارجة في صعيد مصر كما هي دارجة في بلاد الشام. فإذا سمعته يقول في التليفون يا خال، أعرف إن لم يكن يتحدّث مع أي من إخوتي الثلاثة، أنه يتكلم مع الأبنودي. أما نجم فيناديه بـ«عمنا» أو «عمو نجم». يحبه ويقدّره. في نقابة الصحفيين، قبل الثورة بعام واحد: ثلاثة شعراء يجلسون على المنصة. اثنان شعرهما فضي يشوبه نحول، وثالثٌ شعره طويل وشديد السواد: أحمد فؤاد نجم، ومُريد البرغوثي وتميم البرغوثي. (لم يقل لي تميم ذلك ولكنني أعرف أنه كان معتدًّا بالجلوس بجوار أبيه وعمه نجم الذي سمعه يقول الشعر لأول مرة وهو يرتدي بنطلون شورت، وكان نجم يلقي قصيدة «بيان هام» فلما قال عبارة «ح يطلع لي عيّل بدون أي حاجة/ ويعمل لي فَلْحَس ويقعد يحاسب»، إذا بطفل يكركر بصوت عالٍ وهو يكرر «فَلْحَس؟!» فيدير الجلوس رءوسهم نحوه. كان الطفل هو تميم.

نعود إلى نقابة الصحفيين وقد صار الشورت بنطلونًا طويلا، والطفل شاعرًا. ألقى تميم قصيدته، وقبل أن يستقرّ جالسًا في مقعده، قام نجم وقبّل رأسه. ساعتها لم يضحك تميم، لم يكركر، ورغم أن بعدي عن المِنَصّة لم يُمَكِّني من تمييز النظرة في عينيه، أو ربما دمعة تفلّت، كان يسهل عليّ تخيّل مشاعره. كان يحفظ أشعار نجم وأغاني

الشيخ إمام، ويرددها منذ كان تلميذًا في الصف الأول الابتدائي، يحمل همّ الانتقال إلى الصف الثالث، لأن طفلا ما في المدرسة أسرّ إليه بأن هناك مشرفة مسئولة عن فصول «سنة تالتة» عندها عصا غليظة تضرب بها التلاميذ.

في ساقية الصاوي عام ٢٠٠٥، ألقى تميم قصائده في أول أمسية شعرية مخصّصة له. قدّمه أمين حداد، وصدّر في تقديمة قصيدة لبهاء جاهين في أبياتها الختامية تحيّة لتميم. بدت لي هذه المقدمة، على غير المعهود في المُقَدِّمات، تكمل المعنى، المعنى الذي يشغلني وأظل أعود إليه. كأن سلسلة التلاقي بين أجيال، أو لنقل دائرة هذا التلاقي، هي المعنى الآسر والمُراد. وفي يناير ٢٠١١، حين كان حازم شاهين وفرقة إسكندريلَّا تُغَنِّي أغاني أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام في ميدان التحرير، فتُذَكِّر من غابت عنه أو تعرِّف من لا يعرف، فتحييها في الحالتين وتحوِّلها إلى رابط جميل بين الآن وما قبل، كانت السلسلة أو الدائرة المفتوحة دائمًا على دوائر، تمتد وتتصل. وبهذه الإشارة يفهم اللبيب وتفهم قطعًا يا قارئي الفَطِن، أن الثورة الجديدة ليست مقطوعة من شجرة ولا أتت من فراغ، وأن الشهداء مسنودون بقوة على تراث ممتدّ من أوزيريس الذي بكته امرأته حتى فاض النيل، وشهداء المسيحية الأوائل و«لا تحسبنّ»، ومدد أبي عبد الله الحسين سيد الشهداء، وصولًا إلى آبائهم المباشرين بطول تاريخنا الحديث.

ينطبق هذا الكلام على غير الشعراء من الكُتاب وغير الكتاب: الروائيين والقصاصين والمؤرخين والمفكّرين. والملحّنين والرسامين

والنحّاتين وأصحاب الفنون التقليدية والحرف، والشغِّيلة والثوار المنهمكين في شق مجرى التاريخ ولو بأظافرهم وأياديهم العارية، لأنهم تمامًا كالشعراء، حرّاس الحكاية، القائمون على خدمتها. فلماذا ميّزتُ الشعراء إذن؟ ربما لأنهم الأكثر قدرة على تركيز المعنى وتكثيفه بما يسمح لنا أن نحفظ الكلام حفظًا. نحفظه عن ظهر قلب.

تحفظ نوّارة نجم أشعار أبيها عن ظهر قلب، وتغنّيها أحيانًا. وتحفظ سامية جاهين أشعار صلاح جاهين وفؤاد حدّاد عن ظهر قلب وتغنّيها، ولكن الأهم أن كلتيهما تعيش تلك القصائد في الاعتصام والمظاهرة. وكبائع الخبز الأمين، راكب الدرّاجة المسرعة، المدهش في حفظ توازنه، ترفع كلٍّ يدها بحرص لتُمسك بالأرغفة الطازجة المبسوطة على حامل الجريد، توصِّلها من بيت إلى بيت، ومن زمان إلى زمان.

الفصل الثامن والعشرون

المستشفى مرة أخرى

أخشى أن تكون يا قارئي الكريم نسيت رسالة الدكتور نيوكِرْك التي وصلتني في الفصل الخامس والعشرين، ولذلك يتعيّن عليّ أن أُذَكِّرَك بها إذ لم تقتصر مترتّباتها على الأَشِعَّة المَقْطَعِيَّة وكميات المحلول الذي يتعين علي شربه والحقنة التي يبدو لي حين تسري في جسمي أنها تسحب منه الروح، أقول لا تقتصر على ذلك، بل تكتسب دلالة محورية وتشكِّل انعطافة في مسار هذا الكتاب وربما مسار حياتي أيضا. بدا لي قبل فصلين أنني أقترب من ختام الكتاب، أكتب فصلًا أو فصلين أنهيه بهما رغم أنني أعلم أن النهاية ستبقى مفتوحة لأن المعارك في الشوارع مستمرة، فإذا بي أجد نفسي أعود إلى تجربة المرض والمستشفى، كأنني اخترت شكلًا دائريًّا يعيد النهاية إلى البداية ويَصُبُّ فيها. وهو ما لم أقرره ولم يرد على خاطري. باختصار أرسلت نتيجة الأَشِعَّة المَقْطَعِيَّة على قرص مُدْمَج بالبريد السريع إلى الدكتور نيوكِرْك الكائن في مستشفاه في حرم جامعة

جورجتاون. انتظرت الردّ في الأسبوع التالي ثم الأسبوع الذي يليه فلما لم يأت نسيت أنني أنتظر. ولذلك بدت لي الرسالة الإلكترونية التي وصلتني في أوائل شهر يناير مفاجئة. وزادت المفاجأة بقوله إننا بحاجة لأخذ عَيِّنَة من المنطقة التي تثير قلقه، وهي على أطراف الجراحات السابقة. ولا يخفى عليكِ يا قارئتي اللبيبة أن هذا الكلام عن ضرورة عَيِّنَة يُطلق بدلًا من الفأر الواحد عدة فئران تلعب في صدري وصدر مُريد وتميم. لنختصر التفاصيل ونقفز عن النقاشات والخيارات، وسؤال: نذهب هناك أم نبقى هنا؟

نتنقل مباشرةً إلى الأسرة وهي في طائرة تقطع بها المحيط يوم الاثنين الثامن والعشرين من يناير، لأن الموعد لأخذ العَيِّنَة تحدّد له الثامنة صباح الأربعاء.

لم تمر الرحلة دون مغامرات تستحق الذكر. نسي تميم جواز سفره القديم حيث تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة. فطار عائدًا من المطار إلى البيت ومن البيت إلى المطار في سيارة أجرة ما كان لها أن تطير في شوارع القاهرة إن لم نكن في السادسة والنصف صباحًا، والطرقات شبه خالية. بقينا ننتظر ونفاوض المضيفة الأرضية كي تمنحنا دقائق إضافية إلى أن ظهر تميم يركض مندفعًا في اتجاهنا. مرّت بسلام.

ثم مغامرة أخرى أكثر وطأة عند الوصول إلى مطار دالاس. استوقفوا تميم وأخرجونا من قاعة السفر. لماذا؟ وإلى متى؟ ما الموضوع؟ ننتظر بلا إجابة حتى ظهر تميم بعد ساعتين. حكى ونحن

في سيارة الأجرة التي تحملنا من المطار إلى الفندق: وأنا أقدّم الجواز لضابط الجوازات سألني لماذا تتردد كثيرا على الولايات المتحدة؟ لأنني كنت أُدَرِّس في جامعة جورجتاون. ماذا كنت تدرِّس؟ علاقات دولية ودراسات شرق أوسط. أعاد لي الجواز ولكن يبدو أنه أشّر بمزيد من الفحص. ولذلك أوقفوني قبل مغادرة المطار. ووجهوني إلى طابور طويل. بعد ساعة ونصف وصلت إلى موظف الأمن المسئول. قلّب في الجواز ثم سمح لي بالدخول!!

في اليوم التالي لوصولنا ذهبنا إلى المستشفى لنُسَلِّم على أشرف ونعزّيه في شهداء بور سعيد ونطمئن على أحواله.

مرة أخرى تنزلنا سيارة الأجرة أمام باب الباسكريّا. مستشفى جامعة جورجتاون، صباح الأربعاء. نقطع ممرات نألفها وإن لم نعد نتذكّرها تمامًا. سألنا. وصلنا إلى قسم الإشعاع. تذكّرت المكان. إذن قسم علاج الأورام بالإشعاع حيث الدكتور هارتر وجلسات العلاج، يختلف عن قسم الإشعاع. أعطيت اسمي للسكرتيرة وجلسنا ننتظر. خمس دقائق ونادوا عليّ. سحبوا مني الدم المطلوب للتحليل، ثم اقتادتني الممرّضة إلى غرفة أخرى بدّلتُ فيها ملابسي. ارتديت ثوبًا مُعَقَّمًا وجوربًا من جوارب المستشفى. وضعت ملابسي في كيس نايلون كبير، وحذائي في كيس آخر. كتبت عليهما الممرّضة اسمي ورقمي وقادتني إلى حَيِّز آخر حيث السرير. لحق بي مُريد وتميم. بعد دقائق ظهرت طبيبة الإشعاع. عرّفتني بنفسها. سيدة آسيوية (صينية على الأرجح). نحيفة، مليحة الوجه، ودودة، ربما كانت في الثلاثين

من عمرها. تتحدث بهدوء وصوت خافت نسبيًّا. كشفت عليّ، ثم فحصت المنطقة الملتهبة فوق الأذن اليمنى. شَرَحت بالتفصيل: سأستخدم إبرتين لسحب العيِّنَة. إبرة دقيقة، ويمكن ألا تحمل هذه العيّنة ما يكفي من خلايا لتشخيص الحالة، ولذلك نأخذ عيِّنة أكبر من الأنسجة بإبرة أخرى أكبر، لنُجري ما أسمته «كور بايوبيسي». قالت: سأتابع الأمر على جهاز الأَشِعَّة المَقْطَعِيَّة وأسحب المطلوب. لن نعطيك مخدِّرا بل مهدئًا ومنومًا فلا تشعرين بالألم، وبعد حوالي ساعتين سنوقظك. أثناء حديثها كانت الممرّضة التي قدَّرتُ من لهجتها أنها متحدثة بالإسبانية وإن لم أعرف إن كانت فيلبينية أو من أمريكا الوسطى، تثبِّت الكانولا. وتضع على رسغي الشريط المعتاد المُسَجَّل عليه اسمي وتاريخ ميلادي.

غادرتا. رُحنا أنا ومُريد وتميم نقطع الوقت بالكلام. أي كلام، لأننا ننتظر. ثم بعد نصف ساعة جاءت الممرّضة رفعت جانبَي السرير وأغلقته، كأنني طفلة يخشى عليها من الانزلاق. دفعوني في السرير إلى غرفة الأَشِعَّة المَقْطَعِيَّة. سألتني ممرّضة إن كنت أفضل أن أُحْمَل من السرير الذي أرقد عليه إلى الآخر الملحق بالجهاز أو أنتقل بنفسي. قلت أستطيع القيام والانتقال. هل كانت الممرّضة أعطتني الحقنة المُنَوِّمة من قبل أم أعطتها لي وأنا في تلك الغرفة؟ لا أذكر. أغلقوا ذلك الصندوق الغريب على رأسي. شعرت بالدورة الأولى لجهاز الأَشِعَّة المَقْطَعِيَّة. ثم لم أعد أعي شيئًا.

يقول مُريد إنني دخلت الغرفة في العاشرة وأربعين دقيقة، وإنني

خرجت منها في الواحدة. لم أعِ لحظة خروجي من الغرفة ولا انتقالي إلى الطابق السابع. حين سألت تميم بعدها بأيام إن كنت تبادلت معه أو مع أبيه أي كلام، قال: لا، ولكنك كنت يقظة وكانت دموعك تبلل وجنتيك وتتمتمين: «تعبت». لا أذكر شيئًا من ذلك. بعدها سأنتبه لوجودي في سرير مُفْرَد في غرفة صغيرة محاطة بالستائر. ممرّضة شابة عرّفتني بنفسها، مُريد وتميم وأشرف قابيل. ثم الدكتور نيوكِرْك. ربما بعد ساعة سأتصل بماهرو زوجة حاتم، وبلبنى زوجة وائل. سأفعل ذلك وحدي لأنني أتذكر رقم تليفون بيتنا في المنيل، ورقم تليفون وائل. وسأطلب من تميم أن يملي عليّ رقم حسنا في بيروت: أنا بخير. مسألة بسيطة. قلت إن بإمكاننا العودة إلى البيت. أمر مضحك لأننا كنا ننزل في فندق. جاءت الطبيبة الصينية. لتطمئن عليّ. سألتها. قالت ربما بعد ساعة. بعد ساعة أتى شاب بكرسي مُتَحَرِّك. ساعدتني الممرّضة على الجلوس عليه. ساعتها انتبهت أننا في الطابق السابع لأن الممرّض جرّ الكرسي إلى المصعد. وعندما وصلنا إلى الطابق الأرضي، تركني مع مُريد وذهب لإحضار تاكسي. وكان تميم لديه موعد مع شركة من شركات تأجير الشقق المفروشة لترتيب أمر انتقالنا من الفندق إلى شقّة.

اتصلت بنا عيادة الدكتور نيوكِرْك لتُعلمنا أن الدكتور حدّد لنا موعدًا يوم الاثنين ليطلعنا على نتيجة العَيِّنة. كأننا في انتظار حكم محكمة. سيخفف الانتظار أن علينا إيجاد سكن ثم وقد وجدناه أن ننتقل إليه. يقترح تميم أن نستأجر الشقة لمدة شهر من باب الاحتياط، ولكنني أُصِرّ أن نستأجرها أسبوعين. لم أفصح له عن رغبتي في استئجارها

لأسبوع واحد، كأن ذلك يسرّع عودتنا. نعم كنت أريد العودة إلى مصر بل إنني لم أكن راغبة في السفر. غادرنا القاهرة صباح يوم ٢٨ يناير. وكانت الأيام الثلاثة السابقة منذ يوم ٢٥ يناير، العيد الثاني للثورة، تشهد مواجهات يومية عنيفة في القاهرة والسويس والإسكندرية وبورسعيد والمحلّة، وغيرها من مدن الجمهورية. وفي اليوم السابق للسفر نزلت أنا ومُريد إلى البنك في شارع قصر النيل، كان الهواء مشبعًا برائحة الغاز المُسَيِّل للدموع الذي توالى طوال الليل في شارع القصر العيني عند الحدود الجنوبيّة للتحرير.

بدا لي وأنا أغادر القاهرة والأوضاع فيها مشتعلة والشهداء يسقطون بالعشرات والمصابون بالمئات، (نعم يا سادتي في عهد الرئيس المُنتخب محمد مرسي)، والغاز المُسَيِّل للدموع والحرائق على بعد أمتار من بيتنا تشعرني بأنني أُقتَلَع عنوةً من مكاني. كنت مُتَوَتِّرَة حادة المزاج يراودني شعورٌ بالعجز وفكرة أنه لا دور لي سوى التسليم بالشيخوخة والموت.

يوم الاثنين سنغادر الشقّة الجديدة التي استأجرناها لأسبوعين، ونتجه إلى المستشفى في الموعد المحدّد. هل كان الدكتور نيوكِرْك مرتبكًا أم توهّمنا ذلك؟ لقاء قصير. قال إن علينا أن ننتظر تقرير «الكور بيوبسي» لأن عينة الإبرة الدقيقة لم تكشف عن شيء. سأله تميم: يعني أخبار مُبَشِّرة؟ قال الدكتور: لا مُبَشِّرة ولا العكس، لم تُظهر شيئًا. علينا انتظار نتيجة العَيِّنَة الأكبر. سأتصل تليفونيًّا يوم الأربعاء لإبلاغكم بالنتيجة.

الانتظار مرة أخرى. قال الدكتور الأربعاء، لكننا أمضينا يوم الثلاثاء ننتظر، منذ لحظة استيقاظنا حتى الثامنة مساءً. ثم جلسنا أمام التلفزيون لنشاهد فيلمًا يصرفُنا عن انتظار عبثي، لأن الدكتور لن يتصل بنا بعد تلك الساعة. نمنا وقمنا لننتظر. كلٌّ يضع تليفونه المحمول بالقرب منه. إن دخل الحمّام يوصي الآخر على الانتباه لرنّة التليفون، وإن وقف في المطبخ يرفع صوت رنينه ويضعه على العارضة الرخامية إلى يسار الموقد. عندما تجاوزت الساعة الخامسة، وقت انتهاء العمل في عيادات المستشفى بدأنا نمهّد أنفسنا ليوم تالٍ من الانتظار. في السادسة وعشرين دقيقة (للدقة في السادسة وإحدى وعشرين دقيقة) مساءً اتصل الدكتور نيوكِرْك. قال لي كلامًا بصوت خافت لم التقطه. طلبت منه أن يعيد ما قاله. أعاد الكلام: يوجد خلايا سرطانية في العَيِّنَة. غدًا لدينا اجتماع لنقرر إن كنا سنواجهها بجراحة أم بالإشعاع. شكرته، وأغلقت التليفون.

لن نلتقي بالدكتور إلا بد ظهر الجمعة. كان موعدنا في الواحدة ظهرًا. ولكن الدكتور استُدعي فجأة لغرفة العمليات. بعدها قالت الممرّضة إنه سيتأخر ويمكن تحديد موعد آخر. ولكننا قررنا الانتظار وانتظرنا.

في الخامسة إلا ربع ظهر نيوكِرْك. لقاء طويل استمر حتى بدا قسم الرأس والعنق خاليًا إلا منا. وكانت الموظّفات والممرّضات يغادرن تباعًا ليبدأن عطلة نهاية الأسبوع. أمطر تميم الطبيب بالأسئلة. اكتفى مُريد بسؤال واحد يُجمل الاستفسارات ويُلَخِّصها، أما أنا فلسبب

أو آخر جلست صامتة أستمع لما يقوله الجرّاح وأفكّر في مترتّباته. العلاج بالإشعاع غير ممكن، لأنني حصلت على جرعات كبيرة من قبل، ثم إن الإشعاع بعد الجراحة سيحول دون التئام الجرح. لا بد من جراحة جديدة. لا حلّ آخر. جراحة صغيرة أم كبيرة؟ قد تكون صغيرة، وقد نضطر لجراحة أكبر وهذا ما سنعرفه أثناء العملية وتحليل الأنسجة داخل غرفة العمليات. إن اضطررنا للتوسّع سأخرج إليكم من غرفة العمليات لأحصل على موافقتكم. وما العمل في الرقعة ألا تُهَدِّد الجراحة الرقعة المزروعة سابقًا في الرأس؟

غادرنا المستشفى وعلى رءوسنا الطير بل الغربان تحديدًا. لا لأن الجراحة في قول الطبيب لا بديل لها ولا لأن رعب الجراحات السابقة كان حاضرًا ولا نعلم إن كان صاحب معجزة دافنشي سيتمكن من إنجاز معجزة ثانية، بل لأن الطبيب ألمح ثم صرّح بأن هذا النوع من المرض، على الأرجح، سيعود ثانيةً حتى بعد الجراحة. ثم ترك لنا مسئولية الاختيار: جراحة محدودة أو كبيرة إن اقتضى الأمر، أو لا نفعل شيئًا إن كان هذا ما نريد!

تم هذا اللقاء بعد ظهر الجمعة الثامن من فبراير أي بعد اثني عشر يومًا من وصولنا إلى واشنطون.

الفصل التاسع والعشرون

ما قبل

قال مُريد وهو يبتسم: لسنا مؤهَّلين للسكن في هذه العمارة. ولأننا نعرف مُريد وأسلوبه الساخر في الكلام، رحنا ننتظر القفشة في باقي الكلام: لا نملك كلبًا، فكيف سمحوا لنا بالسكن هنا؟!

معظم السكان لهم كلاب، نراهم وهم يخرجون ويدخلون يتبعهم كلابهم، أنواع شائعة أو أقل شيوعًا، منها الصغير بحجم أرنب أو الكبير الأشبه بدب متوسّط العمر. كلاب مُطَوَّقَة بسلاسل يمسك بها أصحابها أو طليقة يتبع كل منها صاحبته أو صاحبه ويلازمه كظله. في مدخل البناية أمام موظّفة الاستقبال وعاء زجاجي به ما يشبه البونبوني الذي تضعه بعض الفنادق والبنوك لمجاملة الرواد. يدخل صاحب الكلب أو صاحبته إلى البناية أو في طريق الخروج، تعرِّج على الاستقبال، تمد يدها إلى الوعاء وتعطي كلبها قطعتين أو ثلاثا، فيسعد الكلب وتسعد صاحبته

وتسعد موظّفة الاستقبال لأنها جاملت السكان وأحسنت وفادة كلابهم.

نقطن في الطابق التاسع، نستخدم المصعد عدة مرات في اليوم الواحد. نطالع صورة لكلب أسود كبير، شعره مموّج وله أذنان طويلتان تتدلّيان على جانبي رأسه، أشبه بآذان الماعز. الصورة ملوّنة، تحتها معلومات عن الكلب الفائز في مسابقة كلب الشهر: الاسم كوبي. أسماء الدلع: كوبستر وكوبي بير (أي كوبي الدُّبّ). العمر ٤ سنوات. الجنسية: كندية. الهوايات: اللعب بالكرة وملاعبة السناجب. الأكل المفضّل: كذا وكذا (لم أعد أذكر).

وما دمنا نتحدّث عن العمارة والمؤهلين لسكناها من أصحاب الكلاب، فمن الإنصاف الحديث عن سمات أخرى فيها. لأننا أقمنا فيها شهرًا ونصف الشهر، ثم اضطررنا إلى الانتقال لشقة أخرى لمدة أسبوعين، لأننا لم نتمكن من تجديد فترة الإيجار. كان تميم على حق، وكنت مخطئة في عنادي الذي أوضحت لكِ يا سيدتي القارئة دوافعه. تشبثت برأيي: نؤجر الشقة أسبوعين، ثم قبل انتهاء الأسبوعين بيومين نطلب المدَّ مرةً أخرى لأسبوعين، ثم مرة ثالثة. ثم لا نتمكّن من المدِّ مرة رابعة لأن الشقة محجوزة. ننتقل إلى شقة ثانية أصغر بنفس الأجر وأقل من ناحية الإمكانيات. وطبعًا لم يُقَصِّر تميم في تسجيل النقاط فيما يخصّ حكمة قراراته وتشبثي برأيي.

ولكي لا تأخذي جانب تميم يا سيدتي القارئة وتتهميني بالعناد، اعلمي أنني كنت أُمَنّي نفسي كل يوم تقريبًا أننا سنغادر بعد أيام.

والسبب كما أشرت أعلاه أن الإقامة في واشنطون كانت تثقل عليّ إلى حد الاكتئاب. أنتظر وأكره الانتظار. أتوجّس من تعقيدات أشبه بتلك التي عشتها قبل عامين تمد الأسابيع الثلاثة إلى ستة أشهر. ثم إن هاجسًا ما في داخلي أو لنقل وسواسًا كان يوسوس لي أن عليّ أن أهرب بجلدي إن لم أكن أريد الموت في الغُربة. (أحيانًا يمرُّ بخاطري لمحًا محمود درويش أو محمد أنيس أو فرانز فانون، وكلهم ماتوا في الغربة إثر عمليات جراحية. أتجاوز الخاطرة وأقلب الصفحة). طبعًا لم أقل ذلك لتميم للدفاع عن نفسي. ومُريد؟ مُريد كعادته لم يكن يريد أن يُثقل عليّ بمزيد من الضغوط.

قلت من الإنصاف أن أنقل لك يا سيدي القارئ وسيدتي القارئة، أننا كنا نسكن شقة لطيفة ومريحة مكوّنة من غرفتَيْ نوم بينهما غرفة جلوس لها واجهة زجاجية، بها تلفزيون وأريكة ومقعد مريح، وفي امتدادها مائدة صغيرة نسبيًّا للطعام يحيط بها ستة كراسي. تدلف من باب الشقة فيكون المطبخ إلى يسارك، مفتوحًا على غرفة الجلوس، وإلى يمينك حَيِّز صغير شاغر طلبنا أن يُزَوَّد بمكتب. صار مُريد يجلس إليه، يقرأ ويكتب ويدخّن.

في أسفل العمارة قاعة كبيرة للجلوس وشرب القهوة والشاي ومتابعة التلفزيون، بها مدفأة كهربائية بعرض الحائط تضفي شعلات نارها شكلًا جماليًّا مُدهِشًا على القاعة. وقاعة أخرى بها جهازا كمبيوتر حديثان وطابعة، ومائدة اجتماعات أو مُذاكرة، وقاعة للتريّض بها مختلف الأدوات اللازمة. يفصلنا عن المستشفى حوالي سبع دقائق

بسيارة الأجرة. وعشر دقائق سيرًا على الأقدام إلى نهر الباتوماك.

لم نذهب هذه المرة إلى أية متاحف كما في زيارتنا السابقة. ولا زرنا أية معالم فلم يكن المزاج يسمح بذلك، لا لانشغالنا بالانتظار فحسب، بل لأننا نتابع الأخبار في مصر مُثقلين بمزيد من الشهداء والجرحى والمعتقلين، والأسئلة.

مرة واحدة وكنا نسير بمحاذاة شاطئ النهر، قررنا مواصلة السير إلى مركز كنيدي للفنون. نراه من موقعنا ولا يحتاج الوصول إليه سوى دقائق سيرًا على القدمين. كان المركز على وشك استقبال شهر من العروض والنشاطات من دول الشمال (الدول الإسكندافية وفنلندا ونيوزيلندا). في بهو من البهوين الكبيرين في مدخل المركز إنشاء فني مدهش يحتل مجمل الحيِّز. مجسّم سفينة مشطورة إلى جزأين متساويين يفصلهما فراغ. مرتفع كسفينة حقيقية وإن لم يكن مصنوعًا من الخشب بل من الحبال المشدودة، معلق على كل حبل منها مئات القمصان المستخدمة، أكمامها مفرودة كأنها أيادٍ تتلاقى وتمسك ببعضها البعض. التركيب الفنيّ من إنجاز فنانة فنلندية كبيرة اسمها كارينا كَايْكُونِن، واسم التركيب: «هل ما زلنا نطفو؟»، أما القمصان المستخدمة فعددها بالآلاف من كل صنف ولون، تبرّع بها سكان واشنطون. بدا لنا المُجَسَّم عبقريًّا. مجاز يحيل إلى بشرية متماسكة الأيدي في محاولتها لتبقى طافية، رغم الطوفان ربما. درنا حول «المركب» عدة مرات. تبادلنا التعليقات بشأنه ونحن نتجه إلى القاعة المجاورة لنخرج إلى الشرفة ونتطلع إلى نهر الباتوماك الذي تشرف عليه.

قبل أن ننصرف حملنا نشرة المركز وبرنامج النشاطات فيه وفي غيره من المتاحف. في البيت أشّرت على بعض منها. مُريد، سنذهب إلى هذه المسرحية (مسرحية تعتمد على قصة «المسخ» لكافكا التي أُحِبُّها وأدَرِّسها أحيانًا). مسرحية لإبسن. موسيقى. علّمت على محاضرة لأستاذ تاريخ في متحف ما لا يبعد عن البيت إلا بضعة شوارع. كنت قرأت له كتابًا عن عبد إفريقي منحدر من أسرة ميسورة أو حاكمة في غرب إفريقيا. أُسِر وهو شاب ونقل إلى مزارع العبودية في «العالم الجديد». كان الشاب يحفظ بعض القرآن ويكتب اللغة العربية. امتد به العمر إلى ما بعد الحرب الأهلية وقرار إلغاء العبودية. بقي الشيخ الإفريقي النحيل قادرًا على الكتابة بالعربية، فبدا بما يكتبه ويقرؤه من لغة غريبة لمعارفه وجيرانه عجيبة من العجائب. قلت أذهب إلى المحاضرة لأعرف ما الذي يضيفه الباحث وأشتري كتابه الجديد.

لم أذهب لا للمحاضرة ولا لأي من العروض المسرحية. لم أعد إلى مركز كنيدي مرة أخرى لحضور أي الندوات المقدمة في إطار الشهر المخصّص لفنون الشمال وآدابه.

نقضي النهار في الانتظار أو المشي في الشوارع المجاورة أو التبضّع لما نحتاجه للبيت، وحين نمسي ويتأخر الوقت، نعرف أن علينا تأجيل الانتظار لليوم التالي، فنجلس أمام التلفزيون نشاهد فيلمًا من الأفلام التي تُعرض على قنواته أو التي نشتريها بالطلب من قناة بعينها.

أنام وما إن أصحو حتى أسأل مُريد: ما الأخبار؟ كأنني أُمِّيَّة لي زوج قارئ ينقل لي المكتوب في الجرائد.

أكاد أراك يا سيدتي القارئة تُقَطِّبين وتزُمّين شفتيك وتوشكين على توبيخي: سبحان الله ماذا كنت تفعلين إذن؟ لا تُقدمين على العملية المطلوبة، ولا تشاهدين مسرحية أو تحضرين محاضرة تفيدك وتنفع طلابك في قاعة الدرس. تبدّدين وقتك ومالك ومال أسرتك في إيجار شقة غالية ومصروفات كثيرة في تكاليف باهظة للإقامة!!! فأكاد على طريقة الأفلام العربي أقول: مظلومة يا بيه. مظلومة يا هانم، كنت أنتظر. وهل الانتظار عمل؟!

لم أجب على الدكتور نيوكِرْك بشأن العملية المقترحة ولا قمت بعمل الأَشِعَّة المَقْطَعِيَّة المطلوبة على الرأس. عدنا إلى المستشفى في اليوم التالي، وحصلنا على نسخ كاملة من ملفّي الطبي (التقارير من قسم الرأس والعنق، صور الأَشِعَّة على أقراص مُدْمَجَة من الأرشيف، العَيِّنات من قسم الباثولوجي). أرسلنا نسخة منها عبر الدكتورة جيجي البيومي إلى المعهد القومي للصحة على أمل أن يقترحوا علينا علاجًا تجريبيًّا بديلًا للجراحة. وبالفاكس أرسلنا تقارير العَيِّنة إلى الدكتور أسامة سليمان في القاهرة، وبعض التقارير التي تُجمل الحالة إلى الدكتور فيليب سالم في جامعة تكساس، وأرفقنا كافة التقارير المُسْتَنْسَخَة على الكمبيوتر برسالة إلكترونية إلى الصديقين عزة خليل وأكمل صفوت طبيبَي الأورام في مستشفى جامعة آرهوس في الدانمارك، أما الأقراص المُدْمَجة فأرسلناها لهما بالبريد السريع.

.واتصلنا بمركز «سلون كيترينج» المتخصص في الأورام في نيويورك لنستعلم عن شروط العلاج وتكلفته والوقت المطلوب للحجز لدى جرّاح متخصّص. بعد أسبوعين جاء رد المعهد القومي للصحة: لا علاج تجريبي. الحل في «أجريسف سُرجوري» أي جراحة واسعة الهوامش. وحدّثنا الدكتور فيليب سالم تليفونيًّا بعد اطّلاعه على ما أرسلناه من تقارير. أكد الكلام عن ضرورة الجراحة وقال إنه في طريقه للبنان ليحضر حفل تكريم له، وإن بإمكانه عند عودته بعد أسبوعين الإشراف على معالجتي في تكساس (أي علينا الانتقال بالطائرة على بعد ساعتين ونصف لنبدأ رحلة علاج جديدة).

في فترة الانتظار لم نتخذ سوى خطوة عملية واحدة: أخذ موعد من الدكتور دافيسون في عيادته، «عيادة دافنشي»، لنعرف منه إن كان هناك مخرج إن اقتضت الجراحة التوسّع في الهوامش بما يجور على الرقعة المزروعة في الرأس.

ما إن رآني الجرّاح الإسكتلاندي حتى قال: you're a master of disguise (أستاذة في التنكّر!) كررها مرتين وهو يضحك. كان يشير إلى الطريقة التي صفّفت بها شعري بما يخفي الرقعة الممتدة من أعلى الأذن إلى ثلث الرأس. لم أنزعج كما انزعجت من جرّاحة التجميل قبل عامين في مستشفى جورج واشنطون، رغم أن محمول الكلام كان متقاربًا. لماذا؟ ربما لأن العبارة قيلت بودّ وظُرف كأنها تحية، أو لأن الرجل بإنجازه السابق كان صاحب فضل وله رصيد يسمح. لا أدري. لخّصنا له الوضع وسألناه عن العمل في حالة جراحة

كبيرة. قال سأتصل بالدكتور نيوكِرْك. غادر غرفة الكشف، غاب ثلث ساعة، كان واضحًا أنه يستطلع التفاصيل من الدكتور نيوكِرْك عبر التليفون. ثم عاد وقال أريد أن أرى ساعدك الأيسر. أمسك به وقلبه وخبط خبطات متتالية على بطنه. قال ببساطة: لا مشكلة، هذه المنطقة عروقها جيدة، إن احتجنا توسيع الرقعة أو عمل رقعة جديدة سنأخذ الأنسجة من هنا. بالثقة نفسها والتلقائية ذاتها يوم قال لمُريد وتميم قبل عامين: سنصلح الأمر.

بالرجوع إلى تواريخ المرسال الإلكتروني يمكنني تحديد اتصالاتي بعزة وأكمل. كنت اتصلت بعزة تليفونيًّا فطلبت مني إرسال تقارير العيِّنة وأية تقارير أخرى تخص الشهور الأخيرة. وعندما وصلتها التقارير تحدّثنا يوم ٢٥ فبراير حديثًا مطوَّلًا. قلت يا عزة تعبت. بي رغبة في العودة إلى مصر. أحتاج ذلك لأستجمع هِمَّتِي. أشعر أنني سأدخل لإجراء الجراحة وأنا منهكة، مهزومة. سأعود إلى القاهرة وأستريح قليلًا ونستكمل الأمر في عطلة الصيف، نرى كيف نواصل هذا العلاج وأين. (لم أقل لها إنني كنت خائفة من جراحة كبيرة تتعقد بما لا يسمح لي بالخروج منها سالمة. ربما لم تكن الفكرة واضحة في ذهني ولكنني أرجِّح أنها كانت في زاوية ما من الوعي أو اللاوعي).

عزة تصارحني بالمطلوب ولكنها تسايرني قليلًا. أعرفها منذ كانت صبية في العشرين تدرس في كلية الطب. حضرت زواجها وعرفت ابنتيها وهما طفلتان صغيرتان. تقول يا خالتي، حالتك النفسية مهمة،

يمكن تأجيل الجراحة بضعة أسابيع وإن كان تأجيلها طويلًا غير مُسْتَحَبّ. تقول أكمل الآن في لندن، إنه متخصص في الساركوما (أورام الأنسجة)، سأسأله. ثم نتحدث في أمور أخرى. الأحوال في مصر. تكاليف العلاج الباهظة في أمريكا. التأمين الصحي في الدانمارك. لا أحد هنا يضطر لدفع أجر علاجه. نثرثر ونضحك. ونتبادل الكلام، هي من جانب وأنا من الجانب الآخر، يشاركني الكلام معها مُريد وتميم. يؤنسني وجه عزة وصوتها حين نتحدث معًا. تزداد جمالًا مع العمر، أتساءل: هل هي محبتي لها أم توازن داخلي صقلته الثقة في النفس، وقدرة على العمل والإنجاز في سياق رائق ومُنَظَّم تضفي على الوجه مزيدًا من الملاحة؟

في اليوم التالي عاوَدت عزة الاتصال بي. قالت: أكمل يريد التحدث معك. عنوانه على المرسال الإلكتروني كذا. اتصلي به مساءً، يكون أنهى عمله.

مكالمة طويلة مع أكمل، أعود إلى سِجِلّ المرسال الإلكتروني فأجد أنها كانت مساء السادس والعشرين من فبراير، امتدت من الساعة الثامنة وعشرين دقيقة إلى الثامنة وثلاث وخمسين دقيقة. أكمل طويل البال، يتحدث بصوت هادئ، يشرح بدِقّة وتفصيل، وهو مُقْنِع فيما يسوقه من حُجَج. قال بإمكانك المغادرة إلى القاهرة لكن كما أبلغتك عزة، لا نستطيع الانتظار أكثر من ستة أسابيع. والأفضل ألا ننتظر فكلما تأخرنا تزيد احتمالات أن تكون الجراحة أكبر.

قال: لو أردت الذهاب إلى مكان آخر قطعًا سأساعدك. يمكن

المجيء عندنا، أهلًا وسهلًا. ولكنني أُفَضِّل الجرّاحين الذين أجروا العمليات السابقة فهم أكثر معرفة بالحالة وبخارطة الطريق.

سأله تميم سؤالًا بعد آخر. سأله مُريد وكانت تؤرقه الرقعة التي اقتضت قبل عامين نقل عضلة من الظهر وتحويل وعاء دموي منه إلى الرأس. كيف يتم استبدالها أو اقتطاع جزء منها دون المساس بالعضلة والوعاء الدموي؟ لم أسأل. أتمثّل أنه لا مناص من الجراحة، صغيرة أو كبيرة، لا خيار لي في ذلك، لأن السيِّدة شوانوما هي من يحدد مسار الجراحة وحجمها.

لم أعاود الاتصال بعزة، إذ قدّرت أن الوقت متأخر مع فرق الساعات الأربع أو الخمس في التوقيت. اتصلت بها في اليوم التالي. في نهاية المكالمة قالت وهي تبتسم: خلاص يا خالتي، نتوكل على الله ونعمل العملية، وإن شاء الله خير. تصبحي على خير يا عزة. تصبحي على خير.

لم أغلق لوحي الإلكتروني وانتقلت من صفحة المرسال إلى صفحة البريد. كتبت رسالة إلى الجرّاح هذه ترجمتها:

العزيز الدكتور نيوكِرْك،

شكرًا على صبرك معي ومع أسرتي، وعلى ما منحته لنا من وقت للإجابة على كافة أسئلتنا.

حاولت الاتصال بك تليفونيًّا هذا المساء ولم أوفّق. أردت إخبارك أنني حسمت أمري وقررت أن أجري الجراحة. كنت قررت العودة

إلى مصر يوم الثامن والعشرين (من فبراير). أجّلت السفر وطلبت مد إجازتي المرضية.

أرجو أن تحدد لي الموعد الذي تقترحه لإجراء الجراحة.

مع أفضل تمنياتي

رضوى عاشور

ضغطت على زر «أرسل». كنا يوم الأربعاء ٢٧ فبراير، الساعة السادسة و٢٩ دقيقة بتوقيت شرق الولايات المتحدة.

لم يحدّدوا لي موعد الجراحة في السادس من مارس إلا بعد مفاوضات مع سكرتيرتَي الجراحين. كان الموعد المقترح الثامن عشر من مارس. قلت إنني لن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، والأرجح أنني سأسافر عائدة إلى مصر.

ثم عثرة أخرى قبل الجراحة بيوم واحد. اتصل بنا المستشفى لإبلاغنا أن هناك احتمالًا لتأجيل الجراحة بسبب عاصفة ثلجية مُتَوَقَّعَة في اليوم التالي. ويا سيدتي القارئة التي وَبَّخْتِنِي قبل بضعة أسطر لأنني أنتظر بلا شغلة ولا مشغلة، وقلت لكِ: «مظلومة يا هانم»، اعلمي أن وقع الانتظار كان ثقيلًا إلى درجة أن فكرة تأجيل الجراحة بدا لي خطة مدبّرة للقضاء عليّ. اتصلنا بأشرف. قال سأستفسر وأجيبكم. بعد عشر دقائق أعاد الاتصال بنا: مجرد إجراء احترازي تحاشيًا لأية مساءلة قانونية. أعلنت الأرصاد أن هناك عاصفة ثلجية، وقد لا يتمكن أحد من الجرّاحين أو

مساعديهم، إن كان يسكن في الضواحي أو خارج المدينة أن يصل إلى المستشفى.

يوم الأربعاء في الحادية عشرة قبل الظهر حملتنا سيارة أجرة إلى المستشفى. وكانت الثلوج تتساقط بلا توقف. ولكن أحدًا لم يبلغنا أن الجراحة تأجّلت. نزلنا عند الباب الجانبيّ الذي يوصلنا إلى غرفة الانتظار لمن ستُجرى لهم عمليات. طلبوا منا إجراءً ما تطلب منا أن نخرج من هذا الباب وندخل إلى باب آخر. ذهبنا وعدنا، وفي الحالتين كنا نُحكم معاطفنا على أجسامنا ونغطّي رءوسنا ونسرع الخطو لأن الثلج كان ينهمر انهمارًا. عدنا بعد استكمال الأوراق المطلوبة. لم ننتظر سوى دقائق قبل أن يظهر ممرّض اقتادني إلى غرفة الإعداد للعمليات.

الفصل الثلاثون

كلاكيت خامس مرة

لسبب أو آخر أجلسوني في مقعد كبير بدلًا عن السرير المعتاد، في غرفة الإعداد للعمليات. وعندما حان وقت انتقالي إلى مسرح العمليات راح عاملٌ طبيّ يدفع بالكرسي في الممرات، فيختلط صرير عجلتيه بصوت اهتزاز عمود معدنيّ معلّق عليه كيس بلاستيك ينتقل ما فيه من محلول عبر أنبوب شفّاف إلى الكانولا المغروسة في رسغي.

يقول تميم إنني ودعتهما بـ: «أشوف وشّكم بخير»، أتبعتها بعبارة ضاحكة: Be good boys (أي كونوا أولادا طيبين!) لا أذكر شيئًا من ذلك. لا أذكر لحظة دخولي مسرح العمليات. الأرجح أن الساعة كانت تقترب من الثانية بعد الظهر. ستُعلم الممرّضة المسئولة عن قاعة الانتظار مُريد وتميم أن الجراحة بدأت في تمام الثانية واثنتين وعشرين دقيقة. بعدها بما يقرب من ساعة دخل القاعة الجرّاحان: نيوكِرْك ودافيسون وانتحيا جانبًا بمُريد

وتميم في غرفة صغيرة ملحقة بالقاعة. أخبراهما أنهما بحاجة لموافقتهما على التوسّع في الهوامش بما يشمل جزءًا من الرقعة القديمة ومن الأذن اليمنى، وتركيب رقعة إضافية، والمفهوم ضمنًا تصريح بالانتقال من جراحة محدودة إلى جراحة كبيرة. حكى مُريد: أكدنا ثقتنا فيهما وتفويضنا لهما بالتصرّف بما يريان أنه ضروري لإنجاح الجراحة. قالا إنهما بحاجة لثلاث أو أربع ساعات لإنجاز الأمر.

حوالي السادسة مساءً ظهر نيوكِرْك وأعلن: I got my margins (استأصلت ما أردت من هوامش). أكّد أن مسئول تحليل الأنسجة فحص عيِّنات الهوامش التي تم استئصالها فوجدها سليمة. أضاف: الدكتور دافيسون يقوم الآن بتركيب الرقعة وإغلاق الجرح. بعدها بثلاث ساعات جاء دافيسون، قال إنه انتهى من عمله وإن بإمكانهما رؤيتي بعد نصف ساعة في غرفة الإفاقة أو في الغرفة رقم ٩ بالعناية المُرَكَّزَة.

سيحكي لي مُريد وتميم عن ساعات الاضطراب العظيم التي مرّا بها. ذهبا إلى العناية المُرَكَّزَة وانتظرا، ولما طال بهما الانتظار اتصلا بغرفة الإفاقة، قيل لهما كلام متضارب. وأخيرًا بعد ما يقرب من ساعتين تمكّنا من رؤيتي. كنت في غرفة الإفاقة. كانت الرقعة الجديدة لونها بنفسجي يميل إلى زرقة داكنة مكتومة. يحكي تميم أنني كنت واعية وأنني تعرّفت عليهما وعلى ميشيل وقلت لها إنني أذكرها لأنها قبل عامين كانت مسئولة عني في غرفة العناية المُرَكَّزَة، أضفت

أنها كانت ترتدي ثوبًا أخضر. (لا أذكر ما قلت، ولا أعرف إن كانت ميشيل ترتدى ثوبا أخضر قبل عامين أم أنني خلطت بين لون الإسفنج الأخضر الصغير الذي كنت أستخدمه لأُرَطِّب شفتيّ في حضورها ولون ثوبها). يقول تميم: قلتِ هذا الكلام وغبت عن الوعي أو نمت. وكانت ميشيل متأثرة، ألمح الدموع في عينيها. ويحكي مُريد: كان فريق من الأطباء يحيط بك. قالوا إنهم اتصلوا بالدكتور دافيسون وإنه في طريقه عائدًا إلى المستشفى. الدم يتدفق إلى الرقعة لكنه لا يخرج منها بانتظام. وقّع تميم بالموافقة على إجراء جراحة جديدة، ووقّع على طلب طبيبة التخدير الإيرانية التي كانت مفزوعة من احتمال أن يؤدي نزع خرطوم البنج بعد كل هذه الساعات إلى انتفاخ في القصبة الهوائية وانسدادها. وقّع تميم بالموافقة على الاحتفاظ بالخرطوم في حلقي لمدة ٢٤ ساعة بعد انتهاء الجراحة التالية.

وصل دافيسون ومعه كتاب ضخم ذو غلاف مقوّى وحقيبة معدنية بحجم الكتاب. قال إنه سيصلح الأمر فعاجله تميم بالسؤال: ماذا إن لم تنجح المحاولة؟ فرد عليه دافيسون: عليَّ أن أفكِّر في حلّ، أليس كذلك؟!

يحكي مُريد: ما إن ما دخلوا بك إلى مسرح العمليات حتى استبدَّ الفزع بتميم. جاءني وقال: «طخّني. لم تكن تريد هذه العملية. كانت تريد العودة إلى مصر وأنا الذي أقنعتها!»، اتصل بخاله حاتم في القاهرة: كيف أقنعهم بإخراج ماما من غرفة العمليات؟»، اتصل بغسّان ابن عمه في عمّان وبعزة في الدانمارك، واتصل بصديقة له ثم بمها

ابنة خاله طارق. لم يُجْد الكلام. يحكي تميم: غلبني الشعور بأنني لن أراكِ مرة ثانية وأنني السبب في هذه الكارثة. كان أبي متماسكًا. احتضنني وحاول أن يهدئ من روعي. ذهبت إلى الحمام ورحت أنتحب.

لم يكن في قاعة الانتظار ولا في هذا الجناح من المستشفى سوى الوالد والولد ينتظران. بقيا إلى الثالثة فجرًا. ثم ظهر دافيسون بشنطته وكتابه، أعلن: «وجدنا حلًّا للمشكلة». سأله مُريد: هل غيّرت الرقعة الجديدة؟ لا لم أغيّرها أعدت لها تدفّق الدم. ثم تطلّع إليهما وقال بحسم: حياة السيدة لم تكن مهدّدة في أي وقت، لا الآن ولا قبل ذلك. أضمن لكما ذلك. تصبحان على خير»، وغادر.

يقول تميم: سننتظر نصف ساعة قبل أن يسمحوا لنا برؤيتك. نزلنا فوجدنا عاملًا طبيًّا يدفع بك في سرير على عجل لينقلك إلى الطابق السابع حيث الغرفة رقم ٩ في العناية المُرَكَّزَة، كما كان مقررًا من قبل.

كنت نائمة.

لم يتمكن لا مُريد أو تميم أن يتذكرا إن كانا بقيا في المستشفى أم ذهبا إلى البيت لبضع ساعات وعادا صباح اليوم التالي أو الأدق اليوم نفسه. كانت الساعة حين انتقلت إلى العناية المُرَكَّزَة تقترب من الخامسة صباحًا.

يضحك تميم وهو يشرع وثائقه في وجه هذه الصديقة أو الصديق ويقول بشيء من الاعتداد: أمي تكتب بالعربية الفصحى وبالإنجليزية

قبل أن تفيق تمامًا من البنج. وما هذه الوثائق؟ ورق كتبت عليه لأن الخرطوم الذي في حلقي كان يحول بيني وبين الكلام. أشرت بيدي فأتوا لي بقلم وورق على لوح مُقَوّى يُسَهِّل لي الكتابة. أول ما كتبت محاولة لطمأنتهما:

أنا طبيعية تماما.

أسمع وأرى وأفهم.

مشكلتي الوحيدة الرغبة في الكحّة لأن الصوت مخنوق.

أحتاج أن أسلّك صوتي، أكح. أضع النظارات.

هنا تكررت كلمة «أضع» وارتبك الخط المكتوب بحروف كبيرة نسبيًّا بوَرْبِ الصفحة. في ورقة أخرى أُوَجِّه الحديث لممرّضة أو طبيبة ما: Are you of Italian origin? (هل أنتِ من أصول إيطالية؟) في ورقة ثالثة: ممكن تحكوا لي باختصار حصل إيه بالوقت المتسلسل مش فاهمة دخلت إمتى بالظبط (لا علامة استفهام). الكلمة الأخيرة كما في كل الأوراق خطّها مضطرب ينقصها حرف أو يتكرر فيها حرف مرتين. ورقة رابعة: أحاول أن أضع رأسي في وضع مريح. تحتها بالإنجليزية: Now what was the question? (والآن ما هو السؤال؟) يبدو أن الممرّضة سألتني سؤالا لم ألتقطه. ثم أسأل بالإنجليزية: Can I talk? (هل بإمكاني الكلام؟) ثم بعدها مباشرة ...How can I answer you if (كيف أجيبك إذا...). مرة أخرى لا تكتمل العبارة الأخيرة في الصفحة. يغلبني التعب أو أثر التخدير، ربما. أكتب بخطّ كبير، كلمتين أو ثلاثًا في

السطر الواحد، لا تمكّنني عيناي في غياب النظارة من التحقّق من دقة الخط أو تفاصيله. في ورقة أخيرة كلمة شكرًا، وعبارة أشعر بالعطش، وعبارة أريد أن أسعل، كلها مكتوبة بالإنجليزية، موجّهة إلى الممرّضة على الأرجح.

لا أذكر أن تميم أطلعني على وثائقه ونحن في واشنطون. يقول إنه أطلعني عليها أكثر من مرة، ولكنني لا أذكر. في القاهرة كان يشرعُها دائمًا وهو يضحك أو يبتسم. بعد بضعة أيام وما زلنا في المستشفى قفز تميم فجأة راقصًا وهتف: ماما بخير هاهي توبِّخنا وتصدر لنا الأوامر!!! (لماذا حوّلت كلامه إلى الفصحى؟ نص الكلام: «هيه، ماما بخير رجعت تزعّق لنا وتقول عملتوا كده ليه وما عملتوش كده ليه؟». كان صاخبًا ويضحك.

في يوم خروجي من المستشفى تمكّنت من دخول الحمام لأغسل وجهي. لا بد أن السيدة ميّة ابنة الدكتور عبد الوهاب كانت تتقلب في قبرها في تلك اللحظة. وربما لم تملك مقاومة البكاء فسمع صوت نحيبها عابر سبيل تصادف مروره بالمنطقة فبسمل وأسرع الخطو، فلا أحد يعرف ما الذي يحدث في منطقة تلك القبور المغلقة على ساكنيها بأقفال وبوابات من حديد.

لم ترد تلك الفكرة بخاطري ساعتها، أعني وأنا ألمح وجهي للمرة الأولى في المرآة، وأنتبه أن الممرّضة الصغيرة كانت مرتبكة لفكرة تصفيف شعري لسبب بسيط، أنها كانت خائفة. لن أطيل النظر إلى نفسي في المرآة، لأنني سأستجمع طاقتي لمواصلة الوقوف

وغسيل وجهي وتصفيف شعري ثم العودة إلى سريري. سأُفَكِّر في الأمر بعد يومين حين تجتمع أجزاء المشهد وعناصره.

نعم يا سيدتي القارئة، لا بد أن أُوَضِّح أن السيدة مَيَّة عبد الوهاب عزّام التي نناديها بماما ميّ، كان عندها حس فنيّ رفيع، وكانت وهي صبية تعبّر عن حسها بالرسم وعزف البيانو ونظم الشعر. ولكن الزواج والأطفال لم يتيحوا لها الاستمرار في أيٍّ من هذه المجالات، فحوّلت اهتمامها إلى أناقة ملبسها وملابس صغارها. ولما كنت البنت الوحيدة بين ثلاثة ذكور كانت لي الأولوية في هذا النوع من الاهتمام. تُكَرِّر في اعتزاز أن المُدَرِّسَة الفرنسية قالت حين التقت بي خارج المدرسة (في حفل عيد ميلاد زميلة من زميلاتي): إن رضوى جميلة كدُمية. الشريط الأبيض المقرّر، أعلى الرأس. الشعر مصفّف بعناية. ثوب أنيق. جورب قطنيّ أبيض، حذاء لامع. وفي اليدين قفاز أبيض ينتهي عند الرسغ.

يبدو أنني انتبهت مبكرًا أن مشروع الدُّمْيَة لا يروق لي، فما إن بلغتُ مطلع المراهقة حتى أعلنت العصيان عليه. (قد تقتضي الدقة إعادة النظر في كون هذا المشروع يروق أو لا يروق للصغيرة، كان ببساطة ينافي طبيعتها فهي ثرثارة، تتعفرت على مدار اليوم تتقافز على طريقة القرود الصغيرة بلا كلل أو ملل. فإن قامت بدور الدمية أثقلها ولم تقدر على مواصلته أكثر من دقائق معدودة).

كان على أمي أن تقبل هذا العصيان وإن بقيت تتمتم بين الحين والآخر: منذ تركت لها اختيار ملابسها وهي ترتدي ما لا يليق. وربما عوّض أمي قليلا عن تلك «البهدلة» أنني كنت متفوّقة في

دراستي. في عيد العلم في خريف عام ١٩٦٣ أو في شتاء نهاية السنة نفسها، وكنت أتممت السابعة عشرة من عمري، أمكن التوفيق بين المشروعين لأن أمي اختارت لي قماش الثوب ولونه وتفصيلته، أما أنا فصافحت جمال عبد الناصر في حفل تكريم المتفوقين من طلاب الجمهورية المعروف بعيد العلم، واستلمت منه شهادتين، شهادة أوائل الشهادات وشهادة أوائل المواد في إتمام المرحلة الثانوية.

وفي ضوء هذا الاهتمام بشكلي وملبسي وقناعة أمي العميقة أن الله منحها ابنة «حلوة»، ستفهم يا سيدي القارئ تخيُّلي لبكائها وقد أعمل الجراحون مشارطهم في رأس ابنتها وساعِدِها وفخذها، بعد أن أعملوه سابقًا في أماكن أخرى من بدنها، بما يُشَوِّه المُنْتَج الأصلي ويُغَيِّر من ملامحه. وأزيدك علمًا أن أمي لم تكن تتمثل الزمن فيما يَخصّ أولادها؛ حتى رحيلها كانت تندهش وبصدق، إن كررتُ عليها ما تعرفه: «ماما لقد تجاوزتُ الستين».

عليّ أن أعترف يا سيدتي القارئة، أنني أشعر بالذنب لإشراكك في كل هذه التفاصيل التي أرجّح أنها جعلتك تضعين بجوارك علبة مناديل ورقية لمسح دموعك أو التمخّط المرّة تلو المرّة حتى تورّم جفناك وصار أنفك أحمر. كيف أكفِّر عن ذنبي؟

تعالي معي الآن إلى مطار القاهرة لمتابعة مشهد قد يدفع بالابتسامة إلى شفتيك.

قال الطبيب إن بإمكاني السفر بعد أسبوعين. بعد أسبوعين من خروجي من المستشفى اتجهنا إلى مطار دالاس لنسافر إلى القاهرة.

ثمان ساعات من واشنطون إلى باريس، وأربع ساعات ونصف من باريس إلى القاهرة، وبينهما خمس ساعات في مطار شارل ديجول. أثناء الانتظار، قام مريد بمهمته اليومية: مقص طبي صغير قصّ به الضماد الملفوف على ساعدي الأيسر، تخلّص منه. ارتدى قفازًا مطاطيًّا مُعَقَّمًا، دهن الجرح الممتد في باطن الساعد، لفّه بضماد معقم جديد. ثبتّه بشريط طبي لاصق.

ركبنا الطائرة. أقلعت بنا ثم حطّت. غادرناها إلى أتوبيس أنزلنا أمام بوابة المبنى التي تعلوه اللافتة الكبيرة: «ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين».

انتهينا من ختم الجوازات واستلام الحقائب ثم اتجهنا إلى ممر الخروج. لمحت وجه منى عبد الوهاب، الآن الدكتورة منى عبد الوهاب تحمل زهورًا بيضاء في يد وتلوِّح باليد الأخرى وعلى وجهها ابتسامة آسرة. ثم مجموعة من طلّاب الدراسات العليا: أحمد عادل وسمية الشّامي وياسمين شبانة ونيّرة سعد وآخرون. ثم أخي حاتم ثم وصلت زميلاتي الدكتورة فاتن مرسي والدكتورة إيناس الإبراشي والدكتورة شيرين مظلوم. وصلن من الكليّة مباشرة بعد ختام ورشة عمل دامت ثلاثة أيام. أقبلن نحوي. استقبلنني بالأحضان. ولأنني أعرفهن جيدًا ومنذ عقود، لم يفتني ملاحظة شحوب باد على وجوههن، رغم الضحك والترحيب ورسائل المحبة في النظرة والكلام. هل هو مجرد إرهاق في نهاية يوم طويل من العمل؟ أم ازدحام الطريق والتوتر من عدم اللحاق بي في

المطار؟ أم هي وطأة ما يحدث في البلد؟ وقفنا في المطار لا نريد أن نغادر. تتواصل المكالمات التليفونية: من الدكتورة إيمان البقري أول من أشرفتُ عليها في بحثها للماجستير والدكتوراه إلى الدكتورة دعاء إمبابي الأصغر سنا وآخر العنقود. غادرنا في طريقنا إلى البيت. ما إن وصلنا حتى وصل الطلاب بباقة زهور كبيرة وبالونات ملوّنة، كتبوا على كل بالونة منها اسم كتاب من كتبي. أردت أن يدخلوا ولكنهم أصرّوا على تسليمي الزهور والبالونات وهم وقوف بالباب: لأننا تأخرنا ولأنك لا بد أن ترتاحي.

يوم الاثنين التالي وبعد مجلس القسم قالت الدكتورة إيناس، تفضّلوا. استخدمت زميلاتي مكاتب الغرفة البحرية لوضع الحلوى يتوسطها كعكة كبيرة على شكل كتاب مفتوح عليه كلمات مؤثرة. لمحتها لمحًا وتحاشيت التمعّن فيها. كانوا ما يقرب من ثلاثين، منهم أربعة فقط من زميلاتي اللائي يقاربنني العمر أو يكبرنني، أما الباقي فقد درست لهن في سنوات ما بعيدة أو قريبة أو أشرفت على رسائلهن، ومنحنني لحظات من الزهو بإنجازهن العلمي. (نعم أستخدم نون النسوة لأن غالبية قوة العمل في قسمنا من النساء). كانت الحجرة مليئة بالبالونات الملوّنة. وشاركنا الاحتفال أم تامر وأحمد ورضا العاملون في القسم، ونورا سكرتيرة القسم. عيد صغير آسر. قلت لنفسي: امرأة محظوظة، لا شك. قلت: حتى الرحيل الآن ليس خطأ. الثمار أسخى وأوفى مما تصورت. استدركت: لا أحد يجرؤ على الرحيل مخلِّفا وراءه كل هذا الحب. لا أجرؤ.

الفصل الحادي والثلاثون

فأرٌ كبير

سبق أن أخبرتك يا سيدتي القارئة أنني أشعر بالذنب لما حمّلته لك في الفصلين السابقين ولما سببته لك من احمرار الأنف والتهاب الجفنين والاستهلاك المُفْرِط للمناديل الورقيّة. ولذلك بحثت عن حل يُخَفِّف عنك وعن زميلك القارئ الذي تعلّم في الصغر أن البكاء لا يليق بالرجال، فاختصر الطريق على نفسه وأغلق الكتاب وانصرف عن قراءته.

والحل الذي جادت به قريحتي هو أن تقفزي أنت وزميلُك القارئ، وتتجاوزا هذا الفصل وربما أيضا الفصل الذي يليه، وتذهبا مباشرة إلى فصل الختام لمشاركة العائلة لقاءً لطيفًا احتفاءً بعودتي من رحلتي العِلاجِيَّة. والواقع أنني أدعوكما شخصيًّا إلى بيت العائلة بمنيل الروضة، ومشاركتنا الغداء على مائدة عامرة بالطيّبات.

أسمعك أيها القارئ المحترم، تسألني: ولماذا لا تحذفين هذين

الفصلين فتوفِّرين على نفسك جهد كتابتهما وتوفِّرين علينا القفز عنهما؟ أجيبك يا سيدي الفاضل أن لدي كلامًا مُهِمًّا عن الطلاب وعن الجامعة لا يمكنني إغفاله، وأن قراءً آخرين يتوقعون مني أن أسجِّل ما جرى في الجامعة وأدى إلى إغلاقها إلى أجل غير مُسَمًّى، وتفاصيل أخرى تربط بين الفصول الأولى من هذا الكتاب وفصوله الأخيرة. وإن كنت آمل ألا يتوقع هؤلاء القراء تسجيلًا تفصيليًّا لما حدث، لأن هذه المُجريات مُسجّلة في الصحف ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية، أما تأملها وتصنيفها وتحليلها وقراءتها فهي مهمة مؤرخين ربما بدءوا في جمع مادتها والنظر في تفاصيلها، أو ما زالوا مواليد أو أطفالًا في السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية لا يعلمون ولا يعلم أهاليهم أن صبيّةً أو صبيًّا منهم، وربما اثنين أو ثلاثة سيؤرخون لثورة الشعب المصري التي بدأت يوم الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ وما زالت تتواصل بشكل أو بآخر حتى كتابة هذه السطور، وفي القلب منها دور الشباب والجامعة وطلابها.

عند عودتنا إلى القاهرة لم نكرر ما فعلناه قبل أقلّ قليلًا من عامين (في أواخر مايو ٢٠١١ والشهور التالية) وأعني نزولنا إلى ميدان التحرير بعد ساعات من وصولنا. غدا التحرير شبه مُعْتِم لأن سلطة الكهرباء خفّضت إنارته، ولأن الداخلية أو غيرها، دفعت بعدد من باعة المخدرات أو البلطجيّة للتواجد فيه، ولأن مجموعات قليلة العدد كانت تغلقه بين حين وآخر فتثير عداء المارة وأصحاب المحلات القريبة بدلًا من استقطابهم واستمالة قلوبهم إلى ثورة

تخصّهم وتعد بتحقيق أحلامهم. كأن المطلوب إسقاط الرمز البهيّ للميدان وتحويله إلى نقيض يقبض القلب. هل تنطبق الخطة نفسها على الجامعة؟!

بعد أسبوع من وصولنا كان الشباب يستعدون للاحتفال بالعيد الخامس لإضراب ٦ إبريل ولأحداث المحلة الكبرى عام ٢٠٠٨ حيث قدّم عمال الغزل والنسيج في المدينة افتتاحية الثورة وأنزلوا صورة مبارك وكسروا إطارها وداسوها بالأقدام. أعلن الشباب عن برنامجهم وحدّدوا طريق مسيراتهم تحت عنوان «ثورة الغضب». وبدا أننا على وشك الدخول في حلقة جديدة من حلقات الثورة، ما دامت المطالب لم تتحقق ولا أي من شعاراتها الأربعة: «عيش. حرية. عدالة اجتماعية. كرامة إنسانية». السؤال مرة أخرى: هل يقتصر الأمر على عدد من المسيرات تنتهي مساء اليوم نفسه أم هي الثورة من جديد؟

الشباب الذين ذهبوا إلى دار القضاء العالي ألقوا عليهم القنابل المُسَيِّلة للدموع من داخل المبنى وتعقّبوهم خارجه. وادّعوا في اليوم التالي أنهم كانوا يحاولون اقتحام دار القضاء. وفي المحلة جرت اشتباكات وسقط جرحى واعتُقل من اعتُقل. ولا داعي هنا لسرد تفاصيل ذلك اليوم الذي أراده الشباب يومًا للاحتفال بالسادس من إبريل وتجديد المطالب التي لم تتحقق. وقد تقاطعني يا سيدي القارئ وتقول: ولماذا اخترت هذا اليوم دون عشرت الأيام التي شهدت مُجريات مُهِمّة واشتباكات موجعة. ما المنطق في هذه الانتقائية، وما الضرورة لإشارات عابرة لا تُفَصِّل الحدث وتُعلِّق عليه؟ الحق أنني

يا سيدي الكريم أريد أن أتحدّث عن أمر رغم أنني لا أملك ما يؤكده من وثائق ولا تدرّبت على مهام شرلوك هولمز لأتتبعه حتى أحيط بأصله وفصله. ليس لديَّ سوى فأر يلعب في عِبِّي، فأر كبير. ثم إن فكرة المؤامرة التي تدعو لتهكّم البعض تُعَشِّشُ في رأسي، فأتساءل: هل هناك علاقة بين مظاهرات السادس من إبريل وإطلاق شرارة فتنة طائفية في الخصوص فجر اليوم نفسه ثم إطلاق النار على جنازة ضحايا الخصوص ومهاجمة الكاتدرائية وإطلاق القنابل المُسَيِّلة للدموع على باحتها؟ أتساءل: هل دبّر الأمن هذه الأحداث لصرف الانتباه عن مشروع تجديد ثورة الغضب والمشاركة فيها، إذ تجد البلد نفسها أمام كارثة من العيار الثقيل وتنصرف عن المشاركة في احتجاجات جديدة؟ نعم هناك أرضية لفتنة طائفية ولكن من يُوَظِّفُها؟ من يتحكم في التوقيت؟ الداخلية؟ وهل تعمل الداخلية لحسابها أم لحساب دولة الفلول أم دولة الإخوان؟ عناصر دخيلة: سي آي إيه؟ موساد؟ لا أستبعد شيئًا لأنني قارئة جيّدة للتاريخ وأعرف على سبيل المثال لا الحصر، دور الإسرائيليين في الحرب الأهلية اللبنانية في السبعينيات والثمانينيات. وهل يمكن تبرئة السلطة الحاكمة من مسئولية ما يجري؟ يتكرر السؤال نفسه وأنا أتأمل الاعتقال العشوائيّ والتعذيب في الأقسام والسجون. وتقصّد إهانة الشباب بالضرب والشتائم النابية، وتعذيبهم حتى الموت. كأن ثورة لم تقم من أجل الكرامة الإنسانية.

لا أستطيع تجاهل الفأر. تخيّلي يا سيدتي وأنت تواصلين حياتك اليومية، تذهبين إلى عملك وتعودين منه وتعدين الغداء لأولادك وفأر

يلعب في عِبِّك. أرى القرف على وجهك وبوادر خوف لمجرد تَخيُّل الأمر، فما بالك بمعايشته؟

هذه كلها مُقدِّمات. موضوعي الجامعة وطلابها. أدخل في الموضوع.

مساء الخميس السادس عشر من إبريل، أي بعد أسبوع واحد من أحداث الكاتدرائية، اتصلتُ بزميلتي الدكتورة فاتن مرسي. كانت الساعة تقارب الثامنة مساء. أخبرتني أنها غادرت الجامعة للتو وهي في طريقها إلى المنزل. تصورتُ أنها كانت تناقش رسالة ماجستير أو دكتوراه، فعادة ما تنتهي المحاضرات في الكليّة بعد الظهر. وأذكر أنني لعدة أعوام كنت أنهي محاضراتي لطلاب الدراسات العليا في السابعة مساءً. فتبدو الكليّة تحديدًا في فصل الشتاء، مقفرةً ومعظم أبوابها مغلقة مما يضطرنا للانتقال من جناح في المبنى إلى جناح آخر والنزول والصعود ثم النزول ثانيةً لأن كل مخارج الكليّة مغلقة باستثناء باب جانبي صغير. نسمي خطة الخروج كاميكازي (وهو تعبير ياباني غدا دالًّا على الإقدام إلى حد التهوُّر على مغامرة ذات طبيعة انتحارية). نضحك. وإن كانت الدُّفعة قليلة العدد (عشرة أو أقل) وكلها من البنات وأنتبه أنهن قلقات من منظر الكليّة، أتقدمهن ويتبعنني كالبطة وصغارها في قصص الأطفال.

لا ينطبق هذا طبعًا على أيام مناقشات الرسائل التي قد تمتد للعاشرة مساء أو ما بعدها، فتعمل المصاعد وتُضاء الممرات والقاعات وتبقى البوابات مُشْرَعَة.

نعود إلى مكالمة الدكتورة فاتن مرسي وما حملته لي من معلومات: أعدادٌ لا يستهان بها من طلاب كلية الآداب اعتصموا في مدرّج من مدرّجات الكليّة، يطالبون الإدارة بحمايتهم لأن عناصر «طلّابية» من كلية الحقوق كانت تتعقبهم وتهددهم بالقتل. وقال الطلاب إنهم لجأوا في اليوم السابق لأحد وكلاء الكليّة وأعلموه بهذه التهديدات فقال لهم: أحضروا معكم مدًى ومطاوي للدفاع عن أنفسكم! حكت الدكتورة فاتن: لأننا بعد ظهر يوم الخميس، لم أجد في الكليّة أساتذة فاتصلت بالعميد وانتظرته إلى أن وصل فتحدثنا مع الطلاب وهدأناهم، وكانوا في حالة من الهياج والغضب.

في الأيام التالية ورغم الرواية الرسمية عن عنف طلابيّ يعكس العنف المجتمعي، وتصوير الأمر بوصفه اشتباكات بين الطلبة بعضهم مع بعض، وإيحاءات بأن السبب هو غياب الحرس الجامعي والسماح للطلاب بممارسة العمل السياسي داخل الحرم، اتضح أن البلطجيّة المعروفين اسمًا وشكلًا وعلى رأسهم غريب، والذين عملوا على خدمة أمن الدولة منذ سنة ٢٠٠٦، يقودون العنف داخل الجامعة، يفتعلونه ويتحرّشون بالطلاب. ألم يتخرّج غريب؟ نعم تخرّج من كلية الحقوق التي انتقل إليها سابقًا من كلية التجارة وهو ما مكّنه من نقل نشاطه إلى قلب الحرم. ما الذي يفعله في الجامعة إذن؟ عُيِّن مستشارًا لأسرة كذا في كلية الحقوق! ولكن غريب والمجموعة المعلومة التي لا يتجاوز عددها أصابع اليدين لم يكونوا وحدهم. كان يشاركهم المهمة آخرون غير معلومين لي

على الأقل، سواء كانوا مُسَجَّلين طلابًا أو بلطجية محترفين يمكن استقدامهم من المناطق المجاورة للجامعة بمكالمة تليفون محمول. فيضربون ويحطّمون ويهدّدون. ويتردد كلام عن أن هناك ملفّات أخرى مسكوتًا عنها: منها بيع مخدرات داخل الحرم. لم يكن الأمر مقصورًا على الحرم الجامعي الذي يشمل شقه الأقدم قصر الزعفران وكليات الآداب والحقوق والعلوم والحاسب الآلي بل امتد إلى كلية الألسن في الجانب المقابل، وكليات أخرى منها كلية الهندسة الواقعة في العباسِيّة على بعد كيلومتر أو أكثر قليلًا، إذ أكد عميد الكليّة أن سبعة عشر طالبًا من الكليّة جاءتهم تهديدات بالقتل بالتليفون، وأنه يحاول عبر زملائه في كلية الحاسب الآلي تتبع مصدر هذه المكالمات.

يتردد أن عدد المدنيين المَأجورين من قِبَل أمن الدولة (أعني البلطجيّة) يصل إلى الـ ٣٠٠ ألف. وحتى إن كان هذا العدد مبالغًا فيه، فالمؤكد أن هناك جيشًا من البلطجيّة له نشاط واسع وممتد من التحرّش بالبنات بأسلوب متطابق إلى تشويه رموز الثورة ومواقعها، فيغدو ميدان التحرير معتمًا وقفرًا وتبدو الجامعة مرتعًا للعنف. هل انتقل الفأر إلى عبّك يا سيدتي القارئة. هل ما زلت تتهكّم يا سيدي القارئ على نظرية المؤامرة؟ أكاد أسمعك تقول: يبدو يا دكتورة رضوى أنك تبسِّطين الأمور، ويبدو أنك رومانسية تميلين إلى رؤية المجتمع بوصفه مدينة فاضلة يعمل على إفسادها حفنة من الأشرار. فأجيبك أنني لا حالمة ولا رومانسية، ولا أظن أنني أميل

إلى التبسيط. أعي مدى التعقيد في الواقع الاجتماعي وتَكْلُفة التغيير الجذري الذي تنشده الثورة. ولكنني... لماذا تقاطعني، أريد أن أكمل حُجَّتِي. غضب القارئ وأغلق الكتاب وذهب. ولا أدري إن كانت القارئة ستحتمل الاستمرار معي. على أي حال، كتبت معظم الكتاب وعليّ أن أكمله فإن واصلت معي القارئة فخير وبركة وإن غادرت هي الأخرى، أواصل الفصول القليلة المتبقيّة فقد يراجعان نفسيهما ويعودان.

شهدت أحداث جامعة عين شمس ذروتها يوم الأحد ١٤ إبريل وتواصلت إلى يوم الأربعاء التالي وانتهت بقرار من إدارة الجامعة بتعليق الدراسة فيها من مساء الأربعاء ١٧ إبريل إلى أجل غير مسمّى. وأصدرت مجموعة استقلال الجامعة بيانًا بشأن الوضع في الجامعات عمومًا وفي جامعة عين شمس بوجه خاص جاء فيه:

«يعلن الموقعون على هذا البيان من أعضاء مجموعة العمل من أجل استقلال الجامعات (٩ مارس) عن بالغ قلقهم من تردّي الأوضاع الأمنية في عدد من الجامعات والذي بلغ ذروته باندلاع أحداث عنف وبلطجة منظّمة في جامعة عين شمس أدت إلى اتخاذ قرار بتعليق الدراسة في الجامعة.

وتود المجموعة أن تذكّر الرأي العام بأن التحريض على العنف واستخدام البلطجيّة المأجورين قد تكرر منذ سنوات في عدد من الجامعات المصرية على رأسها جامعة عين شمس حيث وقعت في عام ٢٠٠٦ اعتداءات من البلطجيّة على الطلاب الذين كانوا ينظمون

انتخابات موازية لاتحاد الطلاب في كلية التجارة، ثم عادت نفس مجموعة البلطجيّة للظهور في مواجهة أعضاء مجموعة ٩ مارس في نوفمبر ٢٠١٠، واتضح وقتها تواطؤ إدارة الجامعة التي وصفت البلطجيّة بأنهم «طلاب غيورون على الجامعة»، وقد تمت كل تلك الأحداث في ظل تواطؤ واضح من ضباط الشرطة التي كانت تسمّى وقتها بالحرس الجامعي، كما نذكّر الجميع بأن العنف والجرائم استشرت في وجود ذلك الحرس الذي كان مجرد غطاء لجهاز أمن الدولة، والذي نجحنا في استصدار حكم قضائيّ نهائيّ وباتّ بمنع تواجده داخل الجامعات.

إننا نؤكد أننا لن نقبل بانتشار البلطجة والانفلات داخل الجامعات، ونحدّد أن على كلٍّ أن يتحمل مسئولياته».

حمّل البيان إدارة الجامعة المسئولية عن سلامة الطلاب ومنشآت الجامعة، واتخاذ الإجراءات القانونية الرادعة ضد أي فرد يثبت عليه استخدام الأسلحة البيضاء أو غيرها ضد الطلاب أو العاملين. وطالب إدارة جامعة عين شمس باستعادة الأمن واستئناف الدراسة ومعاقبة المسئولين الذين تغاضوا عن أحداث البلطجة. وفي الختام: «نثق في أن جموع الطلاب وممثليهم في الاتحادات الطلابية وكافة فصائل الحركة الطلابية لن تُسَلِّم بترك الجامعة مسرحًا للعنف الإجرامي أو الانفلات السلوكي، وندعوهم لإدارة حوار فيما بينهم (...) وأخيرًا نُذَكِّر أنفسنا وزملاءنا وطلابنا بأن تحقيق آمالنا في مجتمع تسوده قيم الحرية والعدالة واحترام الكرامة الإنسانية رهن بتطوير

الجامعات لتغرس في الأجيال الجديدة تلك القيم، وتصبح بشيرًا بذلك المجتمع».

وقّع على البيان العشرات من أساتذة جامعات القاهرة وعين شمس وحلوان والأزهر والإسكندرية والمنوفية وطنطا والمنصورة وكفر الشيخ وقناة السويس والمنيا وبني سويف والجامعة الأمريكية في القاهرة.

الفصل الثاني والثلاثون

A Master of Disguise

«أستاذة في التَنَكُّر». هذا ما قاله الجرّاح الإسكتلندي. لا أدري إن كانت عبارته تقتصر على تلك الحيلة الصغيرة في تصفيف شعري بما يخفي الرُّقعة الجلدية المُشار إليها سابقًا، أم أنه التقط بالحَدْسِ والفراسة سمةً أساسيّة من سمات شخصية السيدة التي أصلح لها رأسها؟

وقد تفتقد كلمة «سمة» الدقة فالأمر أكثر تعقيدًا، لنَقُل مجموعة من العناصر المكوِّنة للشخصية، تتنوع وتتناقض وتتراكب وهي متداخلة، يربط بينها عنصر ضبط وربط أشبه بمركز القيادة والتَّحَكُّم (بالمفهوم العسكري). عليّ الآن أن أفصِّل قليلًا في الشرح كي يفهم القارئ مقصدي، وأعطي أمثلة للتدليل على كلامي وإقناعه به.

رضوى بالتكوين والوراثة فيها هشاشة، قلقة، تُثقلها المخاوف ووطأة مُجريات الحياة. مُصابة على ما أظن، باكتئاب من نوع ما،

اكتئاب مُزْمِن. لا تأخذه مأخذ الجد ما دامت قادرة على مغالبته أو تجاهله. تستيقظ في الصباح مُرْهَقَة كأنها في نهاية يوم عمل مضنٍ. تظن أنها غير قادرة على مغادرة الفراش والذهاب إلى عملها، ولكنها في نهاية المطاف، تقوم وتستعد للخروج إلى العمل وتخرج. تذهب إلى الجامعة. تدرّس. تحتفي بطلابها وزملائها. تبدو مُشرِقَةً ومُقبِلَة. تمنح الأمل، كأنما بدأت يومها بقطف ثماره وأودعتها سلّتين كبيرتين خرجت بهما لتوزيع ما فيهما على من يطلب ومن لا يطلب.

ثم إن رضوى بالتكوين والوراثة عصبيّة فيها توتّر. تفور وتمور وتندفع. هكذا يعرفها أهل بيتها، أي زوجها وابنها. وهكذا لا يعرفها زملاؤها وطلابها. فإن قلت لأي منهم إن رضوى عصبيّة استغربوا الكلام ثم تشكّكوا إن كان المقصود هذه الرضوى أو رضوى سواها. التربية الصارمة، أعني التهذيب والتشذيب في الصِّغَر، حاصرت الحِدَّة داخل الجسد، عزلتها فيما يشبه الإقامة الجبريّة فيه، فراح على طريقته يستدّ بغُلّ من حَيِّز سجنه. (كنت في الثالثة والثلاثين من عمري حين التقيت بزميل يُعِدُّ الدكتوراه في الأمراض ذات الأساس العصبي ـ يُطلق عليها اصطلاحيًّا «السايكوسوماتيك»، وهي كلمة مركّبة من مفردتين يونانيتَي الأصل: الأولى تشير إلى العقل والنفس والثانية تشير إلى الجسد. كلّمني الدارس عن رسالته الذي يوشك على إتمامها. قال إنه يتناول سبعة أمراض مصدرها القلق والضغط العصبي. واستغربت حين بدأ في تعدادها لأنني كنت أعاني من خمسة منها: الصداع النصفي. القولون العصبي. الحساسية. الآلام

الروماتزمية. وجع الأسنان. وأذكر أنه ذكر الأورام من بين ما ذكر وأنني حمدت الله بيني وبين نفسي لأنني لم أصب بالأورام التي بدا لي أنها الأخطر في القائمة.

كان طارق رحمه الله ينتقد أسلوب تربيتي لتميم ويرى أنني أكثر لينًا مما يجب ويُكَرِّر: ابنك مهرٌ أصيل (كان مغرمًا بالخيول يحبّها ويُمَيِّزها عن غيرها من المخلوقات)، والمهر الأصيل، يقول أخي، يحتاج أن يُشْكَم ويُدرَّب. أبتسم وأُغَيِّر الموضوع، لأنني أعتقد أن تربية تميم العصبيّ بالفطرة والوراثة يجب ألا تتضمن قمع توتّره وحيويته فتتحول إلى أمراض. لا أريده مثلي.

نعود إلى موضوعنا وإلى الأستاذة في التَّنَكُّر التي لا تُفَضِّل الصدام إلا في قضايا كبيرة تستدعي الصدام، وإن اصطدمت تقود الصدام بهدوء نسبيّ ولغة مهذّبة. تستمع في هدوء كأن ما تسمعه لا يُشعل حرائق في صدرها. لا تسمح لرغبة مُلِحَّة في التهكّم تتفلّت منها، أن تبدو على وجهها أو ينطق به لسانها وهي تستمع إلى زميلة فاضلة تتقمص دور حكيم الزمان وهي تتحدث بمحض هراء. ترفع يدها وتطلب الكلمة في مجلس الكليّة وتعترض بتهذيب ولطف على ما قاله زميل ما ببساطة ويسر كأنه لم ينطق بما يثير زلزالًا في نفسها وفي الأرض.

خذي مثلا هذا الزلزال: اجتماع طارئ للمُجَمَّع الانتخابي عُقد مؤخرًا لمناقشة أحداث جامعة عين شمس. ولاحظي يا سيدتي القارئة أنني حين أقول المُجَمَّع الانتخابي فأنا أعني «زبدة الزُّبدة»

كما يقولون، الأساتذة المنتخبين من أعضاء هيئة التدريس والهيئة المعاونة في كافة كليات الجامعة لاختيار رئيسها، ربعهم عمداء الكليات المنتخبون. وربما لا يجوز ولا يصحّ نقل تفاصيل الاجتماع ومن قال ماذا، ومن غضب مِن مَن وكاد يغادر احتجاجًا، ومن بدا قلقًا ومهمومًا بأمر الجامعة والطلاب، ومن كان يَلْحَنُ في اللغة العربية ويضرب عرض الحائط بأبسط قواعد نحوها. أثناء الاجتماع فاجأنا أستاذ بلا مناسبة أو ربما لغرض ما في نفسه، بالحديث عن الحجّاج بن يوسف الثَّقَفِي (القائل: أرى رءوسًا أَيْنَعَت وحان قِطَافُها). قال الزميل الفاضل: كان على الحجّاج أن يحكم العراق، وكما تعرفون العراق أهل الشقاق والنفاق. قرر الحجّاج أن يقطع بعض الرءوس لكي تستقيم الأوضاع في البلد. ما المشكلة في أن يُقتل ١٥ ألف شخص لتحقيق هذا الهدف؟ الحق أنه لم ينجح في حكم العراق إلا الحجّاج وصدّام حسين!

تورّط الأستاذ الفاضل في كلامٍ عنصريّ ضد شعب العراق، وموقفٍ فاشيّ يعتبر قتل آلاف البشر مسألة بسيطة، فضلًا عن الحديث خارج الموضوع وهو أول ما نحذّر شباب الباحثين من السقوط فيه. ولو أن هذا الأستاذ الفاضل يُدَرِّس في جامعة أوروبية مثلًا لتحوّل الأمر إلى سكاندال أكبر من الفضيحتين الوارد ذكرهما سابقًا في هذا الكتاب، وربما قاضاه البعض وانتهى الأمر بفقده وظيفته بعد فقده سمعته.

ونظرًا للزلزال المُعْتَمِل في صدري، كان متوقعًا أن أفِزّ واقفة

وأمسك بتلابيب زميلي النابه وأشتبك معه في معركة بالأيدي وغير الأيدي، وإن كانت غير متكافئة فهو عريض الكتفين مدكوك العضلات، أما أنا فما زلت، وإن زاد وزني عن أيام الصبا، أرتدي ملابس يُطلق على مقاسها «بُتيت» أي قَطْع صغير. لم يحدث شيء من هذا. ابتلعت الكلام، وبقدرة قادر لم يتوقّف في حلقي فأختنق به. تجاهلت ما قيل، ما دام خارج الموضوع، وواصلت المعركة الأخرى من أجل الوصول إلى بيان معقول في شأن الجامعة والطلاب المتَّهمين زورًا بالعنف بدلًا من تتبع الجناة الحقيقيين ومن يقف وراءهم.

وعلى خلفية أحداث الجامعة التي سبقتها وتلتها أحداث تشيب لها الولدان، منها ثلاث وقائع تسمّم لطلاب بجامعة الأزهر بعد تناول وجبات فاسدة في مطعم المدينة الجامعية. بلغ ضحايا الواقعة الثانية ٥٦١ طالبًا. سبقها وفاة غادة فكري الطالبة بالفرقة الثالثة بكلية الصيدلة في الجامعة نفسها إذ دهمتها سيارة وتُركت تنزف لما يقرب من ثماني ساعات حتى راحت في غيبوبة لازمتها إلى أن فارقت الحياة؛ ووفاة أحمد البارّ الطالب بالفرقة الثالثة بهندسة البترول والمُقيم في المدينة الجامعية بأزمة قلبية أودت بحياته، لأن الخدمات الطبية في المدينة منعدمة، ومستشفى الحسين الذي نقله إليه زملاؤه رفض استقباله لأنه لم يأت في سيارة إسعاف الجامعة؛ ووفاة جهاد موسى الطالبة في الفرقة الأولى بكلية رياض الأطفال في جامعة المنصورة التي صدمتها سيارة أستاذة داخل الحرم، وأدى الإهمال ونقص

المُعِدّات في المستشفى إلى وفاتها. أقول على خلفية هذه الكوارث بدالي التقاعس عن مساندة الطلاب أو اعتبار غضبهم تطاولًا وتمردًا واستكثار أن يهددوا بالرد العنيف، مواقف تحيل إلى الجنون.

كنت أتابع ما يحدث في جامعة الأزهر وأتساءل: هل هو إهمال وفساد أم خطة مدبّرة؟ ومن وراءها؟ المؤكد أن أعداد الضحايا من الشباب كانت مُزَلْزِلة. يملؤني السخط. وبدلًا من تحاشي هذا الهمّ الثقيل والالتزام بنصيحة الأطباء والأصدقاء بأن عليّ مراعاة حالتي النفسية لأنني في مرحلة نقاهة، رحت أتابع التفاصيل كأن هذه المتابعة هي الوسيلة الوحيدة للتكفير عن ذنب هؤلاء الضحايا. ألست مدرِّسة. أليسوا طلابًا؟ أليست مهمّتي في الحياة رعايتهم وحمايتهم؟ نعم ذنب من نوع ما لأنهم يموتون أو يتسمّمون ونواصل حياتنا اليومية وإن بشيء من الحزن والاكتئاب. أقرأ ما ينشر من تحقيقات صحفية. أقرأ شهادات الطلاب وبيانات اتحاداتهم. أعاود قراءة تقرير لجنة تقصي الحقائق التي أشرف عليها المجلس القومي لحقوق الإنسان. ورد فيه: «واقعة التسمم ليست الأولى بل هي تكرار لوقائع متشابهة على فترات متقاربة». وشهد طالب في كلية الزراعة: طلاب المدينة اعتادوا وجود حشرات وديدان بالطعام المُقدم لهم، وفي عام ٢٠١٢ وقعت حادثة مشابهة بالمدينة الجامعية للبنات، وخلّفت وراءها العديد من الأمراض الخطيرة ومنها مرض السُّل. وأكد أنه في تلك الأثناء احتجّ طلاب المدينة الجامعية للبنين واعتصموا للتنديد بما وقع لزميلاتهم بقسم البنات، وتفاقم الأمر وتعدى أمن الجامعة على المحتجات من

الفتيات، وضُرب بعضهن بالركل بالأقدام. وشهد آخر بأن الطلاب «لاحظوا بتاريخ ٣٠ مارس الماضي (٢٠١٣) وجود بقايا فضلات وحشرات (ذباب وصراصير) بالأواني المُقدم فيها طعام الغذاء، فنظَّف الطلاب الأواني بأنفسهم». وهو ما أكده طالب آخر شهد بأنه قبل ثلاثة أسابيع فقط من واقعة التسمم الكبيرة «وقعت نفس حالات الإصابة بالتسمم بالمدينة الجامعية للبنات، وعلى إثرها أصيب بعضهن بالسُّل وفقر الدم والتسمّم الغذائي، وعند اعتراض الطالبات على عدم صلاحية الأغذية تم الاعتداء عليهن بالضرب من قِبل المشرفات».

وشكا الطلاب أن الأمر لا يتعلق بالطعام وحده فالأوضاع الصحية في المدينة مُزْرِيَة. لا يوجد طبيب مقيم فيها، أبسط المستلزمات الصحية ناقصة، حتى مقياس للحرارة لا وجود له. «والزحام الشديد داخل الغرف المخصّصة للنوم حيث يصل العدد إلى ٢٠ طالبًا، وغياب النظافة الدورية على الغرف ودورات المياه، كما أن الغرف لا توجد بها تهوية جيّدة، وغياب الصيانة الدورية على مباني المدينة بصفة عامة وغرف الطلاب بصفة خاصة، مع العلم بأن بعض الطلاب أكدوا أنه أثناء التأسيس لبناء دور خامس بمبنى عمر بن الخطاب سقط سقف الدور الرابع».

أقرأ هذه التقارير والشهادات وأدخل إلى سريري مُثْقَلة. لا أتمكن من النوم إلا بعد الفجر. أتأخر في الاستيقاظ أو أغادر السرير بصعوبة لأن عليّ أن أذهب إلى الجامعة للتدريس أو حضور اجتماع لمجلس

القسم أو لمناقشة مشاريع الأبحاث المُقَدَّمَة من طلاب الدراسات العليا. بعد الحمام وشرب القهوة أرتدي ثوبًا مُلَوَّنًا أو بلوزة زاهية أو جاكيت وردية أو حمراء وأتجه إلى عملي. أحرص أن أحمل معي ما أحتاجه من كتب وأوراق، فضلًا عن السلّتين الكبيرتين. أي سلّتين؟ هل نسيت يا سيدتي القارئة؟ ثمار الأمل التي أوزعها على من يطلب ومن لا يطلب!

أستاذة في التنكّر أم شخصيّة مركّبة كباقي الخلق تجتمع فيها النقائض والأضداد؟ بعد أيام أُتِمُّ السابعة والستين، قضيت أربعة عقود منها أدرِّس في الجامعة، منذ عُيِّنت معيدة في ٥ أكتوبر ١٩٦٧ حتى الآن. صار بعض من درّست لهم أساتذة لهم تلاميذ في قاعة الدرس وتلاميذ خارجها، يشرفون على بحوثهم لنيل الماجستير والدكتوراه. لا يا سيدي القارئ، لا أستعرض إنجازاتي قبل أن أنهي الكتاب، بل أحاول الإجابة عن السؤال الذي طرحته في أول الفقرة. لن تنتبه أنني في السابعة والستين، لا لأن الشيخوخة لا تبدو بعد على ملامحي، وهو أمر وراثيّ من أبي على ما أعتقد، ولا لأنك لو طرقت بابي الآن ستفتح لك الباب امرأة صغيرة الحجم نسبيًّا ترتدي ملابس بسيطة (قميصا وبنطلونًا على الأرجح)، شعرها صبيانيّ قصير وإن كان أبيضه يغلب أسوده، يكاد يُغَيِّبه، ولا لأنك لو أتيت بأطفالك تستغرقها ملاعبتهم كأنها منهم وتكاد تنسى وجودك، ليس لهذه الأسباب فحسب بل لأن هذه المرأة وأعني رضوى، ما إن تجد الشارع خاليًا نسبيًّا، حتى تروح تَرْكُلُ أي حجر صغير تصادفه بقدمها اليمنى،

المرّة بعد المرَّة في محاولة لتوصيله إلى أبعد نقطة ممكنة. تفعل كأيّ صبي بقّال في العاشرة من عمره يُعَوِّضُهُ رَكْلُ الحجر الصغير عن ملل رحلاته التي لا تنتهي لتسليم الطلبات إلى المنازل، وعن رغبته في اللعب غير المتاح لأنه يعمل طول اليوم، ولأنه لا يطمح في التردّد على أحد الأندية. تأخذها اللعبة، تستهويها فلا تتوقف إلا حين تنتبه أن أحد المارة يُحَدِّق فيها باندهاش. تتوقّف حرجًا، تواصل طريقها. ولكن ما إن تجد فرصة أخرى سانحة حتى تعاود الكَرَّة.

الفصل الثالث والثلاثون

فصل الختام

أردتُ، لغرضٍ في نفس يعقوب، أن أختم الكتاب بالحديث عن اللقاء العائليّ في بيت ميّة ومصطفى حيث يجتمع أولادهما وأحفادهما وأبناء أحفادهما وسواهم من الأهل والأصدقاء. ولا داعي أيها القارئ الطيّب، لتسارع إلى استنتاج أن في هذه العودة رغبةً في الهروب من وطأة الهمّ العام، أو من السيدة شوانوما غامضة النوايا، وتمترسًا بأجواء الطفولة وحضانة العائلة الممتدة، لأنه استنتاجٌ خاطئ لا علاقة له بما في نفس رضوى المُشار إليها عاليه باسم يعقوب. سأُفصح عن السبب الأول؛ وهو أنني أرغب في التخفيف عنك فنفترق في وئام وسلام على وجه كل منا ابتسامة. أما السبب الثاني وهو الأهم، فأتْرك لك استشعاره، لأن التصريح به في جملةٍ أو شِبْهِ جملة أو حتى فقرة يختزله إلى خبر أو رسالة بدلًا من عرضه كتجربة يعايشها كلٌّ على طريقته ويُؤَوِّلُها بما يرى ويريد، ويتمثّل منها ما يتمثّل.

سأبدأ بعلي الصغير وهو يدخل البيت ماشيًا على قدميه. يصعد السلم دون مساعدة، يُعلّق على كتفه طبلة بلدية صغيرة في جراب جلدي بحجمها. قبل أقل من عامين، كان علي يدخل البيت تحمله أمه. يفزع لو اقتربنا منه، فيصيح باكيًا. تجاوز علي الثالثة من عمره، وربما أوشك أن يتم الرابعة. يحب الركض والضحك والعَفْرَتَة، يلتقط الفكاهة ويتذوّقها ويعيد إنتاجها. حمل علي الطبلة من بيته إلى المنيل لأنه يريد أن يسمع تميم وهو يدُقُّ عليها ويتعلّم منه. ما إن دخل باب البيت حتى سأل: فين تميم؟ نادينا على تميم. حضر. أخرج علي الطبلة من جرابها وسلّمها له. أتى تميم بكرسي إلى مدخل البيت وجلس عليه. ثبت الطبلة بذراعه اليسرى وبيده اليمنى بدأ ينقر عليها بمهارة وسرعة. ما الذي حدث؟ علي الضاحك والمُقبل بطبلته صار يتراجع خِلْسَةً وببطء، ثم تدريجيًّا يبتعد ويدير ظهره لنا ولتميم. بدا بائسًا وعلى وشك البكاء.

لم أستغرب الموقف على غرابته. عشته من قبل بحذافيره تقريبًا قبل ما يقرب من ثلاثة عقود. بطل الواقعة تميم، في سن علي الآن. كان لديه عود صغير اشتراه له أبوه من تونس. يدقّ عليه بشكل عشوائيّ ويغنّي أغاني محفوظة أحيانًا وكلمات يَرْتَجِلُها، يضمِّنُها كل ما لديه من معارف في كل شيء وأي شيء، يسميها شعرًا. ذهبنا إلى زيارة خالتي نوار. انتبه تميم لوجود عود: عود مين؟ عود محمود. فين محمود؟ نادينا على محمود. كان ابن خالتي الأصغر شابًّا في العشرين ويُحسن العزف. جلس وبدأ يضرب على العود. جلس تميم أمامه ساكنًا ويُنصت. وفجأة انفجر في البكاء.

لم أفهم ساعتها ماذا يجري، وإن قدّرت بعدها أن عزف ابن خالتي أعجزه. هزمه. انتبه الصغير أنه غير قادر أن يغلب محمود أو حتى يُجاريه. الطريف والمضحك أن فارق السن لم يدخل في الحسبان. (وأعتقد الآن أن السبب في رفض تميم قراءة شعره وهو في الخامسة عشرة في حَضْرَة محمود درويش كان من الباب نفسه والمنطق ذاته. ولأن محمود لمّاح وحسّاس فهم الصبي. من يومها سمّاه الأمير).

لم تكن واقعة الطبلة إلا مُنَمْنَمَة واحدة من مئات المُنَمْنَمَات في ذلك اليوم. كان البيت صاخبًا بعشرات البشر. الإخوة وزوجات الإخوة والأولاد والأحفاد، وبعض أبناء وبنات الخالات، وأولادهم وأحفادهم. نقارب الثلاثين أو نزيد. لم يتجاوز الصغار أربعة، وإن بدوا كأنهم نصف الحضور، لأنهم يجرّوننا إلى ملاعبتهم ومناقرتهم والانهماك في نصب الزُّحْليقَة ودفعهم عليها من أعلى واستقبالهم من باب الحرص، من الجهة المقابلة، ومصاحبتهم إلى الكلاب التي تثيرهم ويخافونها ويلحّون في الذهاب إليها.

مفارقة لطيفة: أصغر الأطفال ذلك اليوم كانت سارة الحفيدة الأصغر لهالة أصغر خالاتي. لا تكبرني خالتي هالة إلا بست سنوات، ولكنها صارت جدة لشباب تخرّجوا من الجامعة. كانت في سن حفيدتها سارة أو أكبر قليلًا حين تزوّجت أمي. وكان أبي المُغْرَم بالصغار مثلنا يقول لها: لو ربّعت يديك وجلست هادئة إصبعك على فمك، أكافئك بلبس الحَلَق الطويل. ولا أعرف أي قرط طويل كان هو المقصود، ولكنه كان قرط العروس مَيّة التي لا بد أن الصغيرة كانت

منبهرة به. قبلت الصغيرة بالاتفاق ونفذته فأتى أبي بفردتَي القرط، علّق كل فردة على أعلى أذنَي الصغيرة الحريصة على عدم الحركة حفاظًا على القرط الطويل الذي تعي وجوده كأنها تنظر في المرآة. يتأمّلها أبي بعينيه الماكرتين. يضحك.

قبل ما يقرب من عام كنا نسأل عمر الصغير عما فعله فيقول: انتخبت مويْسي (لم يكن قادرا على نطق حرف الراء بعد). يعتبر أن مصاحبته لأمه إلى لجنة الانتخاب ووقوفه بجوارها وهي تُدلي بصوتها تعني أنه ينتخب. أما محمد ابن السابعة فتشغله الانتخابات. يسألني بعد ما يقرب من عام من الانتخابات: انتخبتِ مين؟ فأردّ عليه السؤال: أنت انتخبت مين؟ يقول: الشفيق! أضحك للألف لام المُضافة. معقول؟ انتخبته ليه؟! يقول بثقة: لأنه بيحبّ مصر وبيشتغل لمصلحتها. أنا رأيي أنه لا يعمل لمصلحتها بل يضرّها. ينظر إليَّ الصغير. يبدو مهمومًا كأنني كلفته بواجب ثقيل عليه إنجازه. هل قال لنفسه: كيف أتأكّد من كلامها، لا بد أن أتأكّد، أم كانت الفكرة مُبْهَمَة وإن لم ينتقص ذلك من وطأتها؟ حدث هذا الحوار بيننا قبل أسبوع من لقاء المنيل حين جاء مع أمه للسلام عليّ بعد عودتي من السفر. ساعتها كان علي منشغلًا بالدقّ على باب غرفة نوم تميم وهو يصيح بأعلى صوته: افتح يا سمسم. افتح يا عدس. افتح يا مكرونة. ويكركر ضاحكًا. أخبرتني أمه أنه حين يسمع أخيه يقول انتخبت، يقول: وانا كمان انتخبت. انتخبت خالد علي عشان اسمي يبقى زي اسم الرئيس!

لم أعد للحديث مع محمد في الموضوع ونحن في المنيل. قلت فليكن: تشغله الاختيارات، من ينفع مصر ومن يضرّها. وهذا جميل. تذكّرت أيمن. كان طالبًا في الفرقة الثالثة بالكليّة. أذكر وقفتنا أمام باب قاعة الدرس بعد المحاضرة حين أخبرني أنه يحب هتلر. آي والله هذا ما قاله. أقول له: كيف يا أيمن؟ يجيب بلا تردّد: قرأت «مَايْن كامْف» (كتاب كفاحي) وأعجبني. بعد سنوات، عشر أو خمس عشرة، زارني أيمن في الكليّة. كان تخرّج وحصل على الدكتوراه وتزوّج وخلّف وصار أستاذًا في إحدى الجامعات. قلت بعد الترحيب به: أما زلت معجبًا بهتلر؟ ضحك عاليًا وطويلًا، قال: كنت صغيرًا، أجمع بين الجهل والبراءة ورغبة صبيانية بالتفرّد برأي مختلف.

قلت سابقًا: إن الحياة تؤطِّر الموت. تسبقه وتليه، وتفرض حدوده، تحيطه من الأعلى والأسفل ومن الجانبين، هذا يقيني. لا أدري إن كان لهذه القناعة علاقة بأنني عشت طفولتي المُبَكِّرَة حتى بلغت التاسعة من عمري في بيت يطلّ على النيل. كان النهر حاضرًا بقوة، يُمْلي دروسه الغريبة على مدار اليوم. أقول دروسًا غريبة لأننا نتمثّلها قبل أن نعيها أو نصيغها في كلمات. لاحقًا وببطء سنعرف أن النهر موجود منذ ما لا نعقله من زمان وباقٍ إلى ما يصعب تخيّله من مستقبل مبهم وغامض، ثوابته ماء النهر وقرص الشمس والقمر المراوغ بدرًا كان أو هلالًا.

وربما لم يكن النيل وحده بل عنادٌ موروث جعلني ذات يوم أتوقّف طويلًا أمام مستعمرةٍ للنمل في متحف ما من متاحف التاريخ الطبيعي،

زرته في جنيف على ما أذكر، ودرسٌ لا أنساه يوم كنت في طريقي إلى الجامعة لإعطاء محاضرتي الصباحيّة. كانت أمطرت بغزارة غير معتادة في القاهرة، ولأن السلطات لا تعرف الاحتياط المسبق لشيء، فوجئنا بنفق العباسِيّة المؤدي إلى الجامعة غارقًا في الماء بما لا يسمح بمرور سيارات ولا بشر. وقفتُ بسيارتي أتساءل كيف أصل الجامعة؟ هل من طريق إليها؟ هل أعود إلى البيت؟ وماذا لو تكلّف بعض الطلاب الوصول إلى قاعة الدرس بعد مشقّة، من شبرا وشبرا الخيمة وحدائق القبة ومدينة نصر ومصر الجديدة، فلا يجدون أستاذة ولا محاضرة؟ كنت على وشك الرضوخ لفكرة أنه لا مفرّ من العودة في اتجاه البيت حين رأيت المشهد فسارعت بالبحث عن مكان أصفّ فيه السيارة. صففتها. اتّجهت مشيًا إلى ما رأيت. شبابٌ وكهول، رجالٌ ونساء وصبية وبنات يتسلّقون الجدار المائل قليلًا إلى يسار مجرى شارع لطفي السيد ليكوّن طريقا موازيا وأكثر ارتفاعًا، يقصدون تجاوز النفق من فوقه قاصدين الجامعة أو ما بعدها. من يصل إلى أعلى الجدار، يُثبِّت قدميه ويقف متوازنًا يمدّ يديه للصاعد بعده. وصاعد ثالث يضع يديه على ظهر الصاعد الثاني ما بين إسناد له كي لا ينزلق، ودفع لجسمه لتسهيل الصعود عليه، وهكذا دواليك رجل بعد رجل وامرأة بعد رجل أو امرأة. أمّا من وصلوا إلى الطريق العلوي وقاموا بمهمّتهم في جذب من يتلوهم، فيتحركون بحرص متجهين إلى سلم يهبط بهم إلى الرصيف الملاصق لبوابة الجامعة. كنت دون الأربعين. تسلّقت مثلهم. ومثلهم وجدت من يشدّني من أعلى ومن يدفع بي من الخلف لييسر عليّ الصعود. لا يا سيدتي

القارئة، لم ينته الدرسُ بعد. دخلت الكليّة وأنا أقول لنفسي: وإن لم يأت إلا ثلاثة طلَّاب سأعطي الدرس فهم يستحقّونه على ما بذلوه من جهد للوصول. دخلت القاعة. لم أصدّق ما رأيت: كان الطلاب يملؤنها، مستقرّين على مقاعدهم، ينتظرون المحاضرة. لو كان لي صوت جميل لانطلقت في الغناء. لم أُغَنِّ ولكنني تجلّيت في الكلام.

أحكي الواقعة لتميم. وأعيد حكيها. أستحضر المشهد حين يراودني اليأس، أقول لنفسي: لا يصحّ أو يجوز لأنني من حزب النمل. من حزب قشّة الغريق، أتشبث بها ولا أُفلتها أبدًا من يدي. من حزب الشاطرة التي تغزل برِجْل حمارة. لماذا لا أقول إننا، كل أسرتنا، لا أعني أنا ومُريد وتميم وحدنا، بل تلك العائلة الممتدة من الشغّيلة والثوّار والحالمين الذين يناطحون زمانهم، من حزب العِناد؟ نَمْقُت الهزيمة. لا نقبل بها. فإن قضت علينا، نموت كالشجر واقفين، ننجز أمرين كلاهما جميل: شرفُ المحاولة وخبراتٌ ثمينة، تركةٌ نخلّفها بحرص إلى القادمين.

عزيزي القارئ وعزيزتي القارئة، أستدرك لأنهي حديثي بالسطر التالي:

هناك احتمال آخر لتتويج مسعانا بغير الهزيمة، ما دمنا قررنا أننا لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا.

تمت في التاسع من مايو ٢٠١٣

صدر للكاتبة

روايات ومجموعات قصصية:

١ ـ الطنطورية (رواية) دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠. الطبعة الخامسة، دار الشروق، ٢٠١٣.

٢ ـ فرج (رواية) دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٨. الطبعة الثانية دار الشروق، ٢٠١٠.

٣ ـ قطعة من أوروبا (رواية)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣. الطبعة الثانية دار الشروق، ٢٠٠٦.

٤ ـ تقارير السيدة راء (نصوص قصصية)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١. الطبعة الثانية، دار الشروق، ٢٠٠٦.

٥ ـ الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا، (نص سيرة)، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣.

٦ ـ حَجَر دافئ (رواية)، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥.

٧ ـ خديجة وسوسن (رواية)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٧.

٨ ـ رأيت النخل (مجموعة قصصية)، سلسلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.

٩ ـ سراج (رواية)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٢. الطبعة الثانية، دار الشروق، ٢٠٠٨.

١٠ ـ ثلاثية غرناطة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤-١٩٩٥. الطبعة العاشرة، دار الشروق، ٢٠١٣.

١١ ـ أطياف (رواية)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٩. الطبعة الثالثة، دار الشروق ٢٠٠٨.

دراسات نقدية:

١ ـ الطريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة في أعمال غسان كنفاني، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٧.

٢ ـ جبران وبليك Gibran and Blake (باللغة الإنجليزية)، الشعبة القومية لليونسكو، القاهرة، ١٩٧٨.

٣ ـ التابع ينهض: الرواية في غرب إفريقيا، دار ابن رشد، بيروت، ١٩٨٠.

٤ ـ في النقد التطبيقي: صيادو الذاكرة، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ٢٠٠١.

٥ ـ بالاشتراك مع آخرين، ذاكرة للمستقبل، موسوعة الكاتبة العربية: ١٨٧٣-١٩٩٩، مؤسسة نور لدراسات وأبحاث المرأة والمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

٦ ـ الحداثة الممكنة: الشدياق والساق على الساق ، دار الشروق، ٢٠٠٩. الطبعة الثانية ٢٠١٢.

الترجمة:

١ ـ الإشراف على ترجمة: القرن العشرون: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية (الجزء التاسع من موسوعة كمبريدج لتاريخ النقد الأدبي)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.

٢ ـ ترجمة منتصف الليل وقصائد أخرى لمريد البرغوثي.

Mourid Barghouti, Midnight and Other Poems, Trans. Radwa Ashour, Arc, Todmorden, 2008.

أثقل من رضوى

«أستاذة في التنكّر أم شخصيّة مركّبة كباقي الخلق تجتمع فيها النقائض والأضداد؟ بعد أيام أُتِمُّ السابعة والستين، قضيت أربعة عقود منها أدرِّس في الجامعة.... صار بعض من درّستهم أساتذة لهم تلاميذ.... لا يا سيدي القارئ، لا أستعرض إنجازاتي قبل أن أنهي الكتاب، بل أحاول الإجابة على السؤال الذي طرحته في أول الفقرة. لن تنتبه أنني في السابعة والستين، لا لأن الشيخوخة لا تبدو بعد على ملامحي...، ولا لأنك لو طرقت بابي الآن ستفتح لك الباب امرأة صغيرة الحجم نسبيًا ترتدي ملابس بسيطة...، شعرها صبيانيّ قصير وإن كان أبيضه يغلب أسوده، يكاد يُغَيِّبه... ليس لهذه الأسباب فحسب بل لأن هذه المرأة وأعني رضوى، ما إن تجد الشارع خاليًا نسبيًا، حتى تروح تَرْكُل أي حجر صغير تصادفه بقدمها اليمنى، المرّة بعد المرَة في محاولة لتوصيله إلى أبعد نقطة ممكنة. تفعل كأيّ صبي بقّال في العاشرة من عمره يُعَوِّضُهُ رَكْلُ الحجر الصغير عن ملل رحلاته التي لا تنتهي لتسليم الطلبات إلى المنازل، وعن رغبته في اللعب غير المتاح لأنه يعمل طول اليوم... تأخذها اللعبة، تستهويها فلا تتوقف إلا حين تنتبه أن أحد المارة يُحَدِّق فيها باندهاش».

تمزج رضوى عاشور في هذه المقاطع من سيرتها الذاتية بين مشاهد من الثورة وتجربتها في مواجهة المرض طوال السنوات الثلاث الأخيرة، تربطها بسنوات سابقة وأسبق. تحكي عن الجامعة والتحرير والشهداء. تحكي عن نفسها، وتتأمل فعل الكتابة.



رضوى عاشور روائية وناقدة وأستاذة جامعية مصرية. ولدت في القاهرة في عام ١٩٤٦ ودرست الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة. حصلت على الماجستير في الأدب المقارن عام ١٩٧٢ وعلى الدكتوراه في الأدب الإفريقي الأمريكي من جامعة ماساتشوستس عام ١٩٧٥. ومن أعمال رضوى عاشور الروائية «سراج» و«ثلاثية غرناطة» و«أطياف» و«قطعة من أوروبا» و«فرج» و«الطنطورية».



دار الشروق

www.shorouk.com